روايات THOMAS HARDY

مكتبة

توماس هاردي

عينان زرقاوان

ترجمة: ميسون الحمد

1066

الأهلية

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/soramnqraa

عينان زرقاوان

الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail: alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية 12
هاتف 4638688 6 00962، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب: 7855 عمّان 11118، الأردنّ
: AlAhliaBookstore
: alahlia_bookstore

الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية 34

◆

عينان زرقاوان / رواية إنجليزيّة
توماس هاردي / إنجلترا
ترجمة: ميسون الحمد / الأردنّ
تدقيق: محمّد استيتيّة / الأردنّ

◆

الطبعة العربيّة الأولى، 2020
حقوق الطبع محفوظة

◆

تصميم الغلاف: **زهير أبو شايب**، عمّان، هاتف ***00962 7 95297109***

◆

الصفّ الضوئيّ: **إيمان زكريّا خطّاب**، عمّان، هاتف ***00962 7 95349156***

30 12 2022 مكتبة
t.me/soramnqraa

الترقيم الدولي: ISBN 978-6589-09-872-0

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/soramnqraa

توماس هاردي

عينان زرقاوان

ترجمة: ميسون الحمد

مكتبة
t.me/soramnqraa

مُقَدِّمَة

تعتبر رواية توماس هاردي «عينان زرقاوان» ثالث رواية له، وأول رواية تحمل اسمه، كتبها في السنتين 1872-1873 وقد نشرت على حلقات في مجلة تينسلي وهي تتحدث عن مثلث حب يربط بين بطلة الرواية وحبيبيها الشاب ستيفن والناقد نايت، أما بطلة الرواية فهي ألفريدا سوانكورت ابنة القسيس اليتيمة الأم والتي تعيش في منطقة نائية، مما يكون له الأثر الأكبر في شخصيتها حيث تنمو شابة رومانسية، طيبة، هادئة، تقودها عاطفتها، لا تعرف ما تريد بالضبط، ولا تتميز بالنضج العاطفي ولا الاجتماعي. أما ستيفن، فهو الشاب الطيب الساذج المسكين الذي ينحدر من أسرة اجتماعية بسيطة، ولكن يكون حبه لألفريدا المحرك الذي يجعله يسافر إلى الهند ليقفز في السلم الطبقي الاجتماعي إلى مركز أعلى. وبسبب طبيعة ألفريدا المتقلبة وعدم قدرتها على التفكير العقلاني فإنها تتخلى عن ستيفن من أجل صديقه نايت الناقد الأدبي والصحفي في جريدة معروفة حيث تذوب شخصيتها في شخصيته. يمتاز نايت بشخصية ذات أفكار قوية ونظريات علمية، لكنه يفتقر إلى التجربة العملية والإنسانية حيث تقتصر تجاربه العامة على نظريات مستقاة من الكتب.

تعيش ألفريدا تناقضها في الاختيار بين نايت وستيفن، بين إعجابها بفتى في مثل سنّها يرفضه والدها بسبب فقره، ولكنها الملكة

في عالمه ومحور حياته، وهو مؤمن إيماناً تاماً بتفوقها الطبقي والفكري والثقافي والاجتماعي والعقلي.

وبين نايت صاحب الطبيعة الجافّة والعقد الاجتماعية، حيث يحلم طوال عمره بالارتباط بفتاة عذراء الروح والجسد لم تعرف قبله أحداً، ولم يخفق قلبها لرجل سواه. ولا يشكل الحب في نظره إلا موضوعاً اختيارياً يخضع للعقل.

تتقاطع الأحداث وتتخلى ألفريدا عن ستيفن بعد أن وعدته بالزواج، وذلك عندما تعشق وتنبهر بأفكار معلمه وصديقه نايت، وهو الذي تنقذ حياته عندما كاد يموت وهو معلق على جرف هاوٍ وذلك باستخدام ملابسها كحبل لإخراجه، وقد اعتبر النقاد هذا الفصل أفضل جزء في الرواية حيث يتحدث عن المعاناة النفسية لشخص يوشك أن يموت.

يتركها نايت بسبب رسالة من امرأة حاقدة، ويتخلى عنها لأنه يعتقد أنها هربت مع ستيفن وقضت ليلتها معه دون زواج، مما يؤدي إلى صدمته وحزنه الشديد.

يزداد تناقض الأحداث حين يلتقي الصديقان بعد سنوات ويكتشف نايت أنه أخطأ بحق ألفريدا ويحاول أن يستعيد حبها، وبنفس الوقت يكتشف ستيفن أنه خسرها بسبب ضعفه وعدم ثقته بنفسه بالإضافة إلى وضعه الاجتماعي الذي تغير الآن ويحاول استرجاعها أيضاً.

عند ذلك يكتشف الصديقان وهما متوجهان إلى منزلها كي يصطلح أحدهما معها يكتشفان أن ألفريدا معهما على نفس القطار، ولكنها لم تكن تجلس في عربة، بل كانت جثة في تابوت. وزوجة للورد وتحمل لقب ليدي.

1

العذراء الجميلة متوجة في الغرب

ألفريدا سوانكورت ذات مشاعر دقيقة سطحية، ومتغيرة حسب الوقت، وما كان يعرف هذه الحقيقة إلا أولئك الذين شاهدوا ظروف ومجرى هذه الحياة.

كانت مزيجاً من عناصر رائعة وكانت أصالتها وندرتها تكمن في هذه العناصر مجتمعة، أكثر منها منفردة. في حقيقة الأمر فلم تكن تستطيع فهم ملامح وجهها عندما تتجاذب معها أطراف الحديث، ولم يكن هذا شيئاً مقصوداً (فهي كانت طفولية وعفوية السلوك) ولكنه يعود إلى فظاظة الحياة التي عاشتها.

فقد عاشت كل حياتها في عزلة، ولا تعرف شيئاً عن الرجال والحب. وعندما بلغت التاسعة عشرة أو العشرين فلم تكن أكثر من سيدة صغيرة كأنها في الخامسة عشرة من عمرها.

هناك أمر ما لم تلاحظه، وهو عيناها ففيهما كانت تكمن ذاتها، لست مضطراً إلى النظر أبعد، فهناك كانت تعيش.

كانت عيناها زرقاوين كمسافات الخريف، زرقاء كتلك الزُّرْقة التي نراها عند تراجع التلال وانحدار الغابات في صباح أيلولي (سبتمبريّ) مشمس.

أزرق ضبابي ذلك الذي لا سطح له ولا بداية، تنظر من خلاله ولا تنظر إليه.

كانت ألفريدا ضعيفة الحضور، وليس لها إلا حضور قطة، بعكس بعض النساء اللائي كان لهن حضور صارخ يلفت انتباه الجميع.

كان لألفريدا تفكيرها الخاص الذي تجده على وجه مادونا ديلا سيدا، ولكن دون لمحات الطرب والجذل.

كان لها الروح الدافئة التي تجدها في ملامح نساء روبن في لوحاته ولكن دون العري الظاهر، وفي ملامح وجوه نساء كوريجو التي تمثل أفكار الإنسان التي تئن بالدموع. هكذا كانت هي في بعض الأحيان.

إن نقطة التحول في حياة ألفريدا، كانت في إحدى الأمسيات عندما وجدت نفسها مضيفة فجأة، ووجهاً لوجه مع رجل لم تره من قبل وتنظر إليه بفضول ميرندا، وكأنها المرة الأولى في حياتها التي ترى فيها رجلاً.

إن والدها أسقف أبرشية في منطقة ويسكس، وهو أرمل في الأربعين من عمره، وكان يعاني في هذا اليوم من نوبة نقرس حادة. بعد أن انتهت ألفريدا من أعمالها اليومية، تركت غرفتها، وصعدت الدرج وقرعت باب غرفة والدها.

أجاب الأب بصوت عميق تعوّد أن يجيب به كلما قرع أحدهم باب غرفته: «تفضلي».

كان والدها ممدداً على فراشه، ومتدثراً بروب النوم، وكان أحمر الوجه ينفث، ويفور، كقنينة توشك أن تنفجر.

قالت بصوت واضح، ومرتفع بسبب إصابة والدها بضعف السمع: «هل ستنزل إلى الطابق الأسفل هذا المساء يا أبي؟».

«لا أعتقد ذلك، يا ألفريدا، أيبيه، أيبيه، بف، بف، إنني لا أستطيع أن أتحمل منديلاً صغيراً على إصبع رجلي المصاب بالنقرس هذا، فكيف بجورب أو شبشب. وها هي تعود مرة أخرى... أوف أوف أوف، لا، لن أنزل إلى الغد».

– إذن فأتمنى ألّا يأتي هذا الرجل اللندني! فأنا لا أعرف ما عليَّ فعله!

– إن هذا يبدو غريباً.

– لا أعتقد أنه سيأتي اليوم.

– لماذا؟

– بسبب الريح الشديدة.

– الرّيح، من أين لك بهذه الأفكار، من سمع يوماً أن الريح تمنع الناس من القيام بأعمالهم؟

– إن إصابة إصبع رجلي سيئة. على كل حال، إذا جاء فقدمي له الطعام، وأمّني له المنام في مكان ما، ثم أرسليه إليّ. يا إلهي كم هي مؤلمة ومزعجة إصبع قدمي!

- هل من الضروري أن يتناول العشاء؟

- ألا ترين كم سيكون متعباً بعد هذه الرحلة الشاقة؟

- إذن فسأقدم له الشاي.

-إن هذا غير كافي وقليل.

- إذن وجبة شاي، إن هناك فطيرة أرنب، ولحم طير بارد، وبعض المعجنات وأشياء أخرى.

- نعم وجبة شاي ستكون جيدة.

- هل عليّ أن أصب له الشاي بنفسي، يا أبي؟.

- نعم، فأنت سيدة المنزل!

- ولكنني لا أعرفه يا أبي ولم يقدمني أحد إليه من قبل، وسأمضي كل هذا الوقت مع رجل غريب أراه المرة الأولى».

- ما هذا الكلام السخيف بشأن أحد يقدم أحداً، لا بد أنك أكثر وعياً من هذا، وتعرفين كيف تتصرفين؟».

- إنه رجل واقعي، وعملي وجائع، ومتعب ومسافر من قبل طلوع الفجر، ومن المؤكد أنه لن يكون عنده وقت لهذه المجاملات، إنه بحاجة إلى الطعام والمأوى، وهذا ما يجب أن نقدمه إليه، وببساطة فأنا اليوم متعب ولا أستطيع القيام بذلك، أتمنى ألّا يكون في هذا شيء مخيف. وأنت تملكين كل الإمكانيات للقيام بهذا الأمر وذلك لقراءتك الكثير من الروايات.

«فعلاً، لا أعتقد أنه أمر مخيف، وخصوصاً عندما يكون ضرورياً، ولكن كما تعرف يا أبي فأنت دائماً ما تكون حاضراً، عند

وجود أحد على العشاء حتى لو كنا نعرفه، ولكن هذه هي المرة الأولى التي أكون فيها وحدي مع رجل لندني غريب، وقد يعتقد أنّ هذا أمراً عجيباً».

- حسناً دعيه يعتقد ما يشاء.

- هل هو شريك السيد هيوبي؟

- لا أعتقد ذلك، ولكن قد يكون».

- كم عمره يا ترى؟».

- هذا ما لا أستطيع إخبارك به، فكل معرفتي به محصورة في المعلومات المرفقة عنه، في رسالة السيد هيوبي، وتجدين نسخة من رسالتي ونسخة من ردّ السيد هيوبي على الطاولة في المكتبة، اقرئيهما، وستعرفين كل ما أعرفه بشأنه».

- لقد قرأتهما.

- ما الداعي إلى كل هذه الأسئلة إذن؟ إنّ فيهما كل ما أعرف من الموضوع، أوه.. أيتها المؤذية، لا تضعي أي شيء هنا، فأنا لا أحتمل وزن بعوضة».

«إنني آسفة يا أبي فقد نسيت، اعتقدت أنك تشعر بالبرد»، وأزالت البطانية التي رمتها على قدميه المتألمتين، وانتظرت قليلاً إلى أن اطمأنت إلى أن آثار الإساءة زالت عن وجهه، ثم انسحبت من الغرفة وعادت مرة أخرى إلى الطابق الأسفل.

* * *

2

كان هذا في مساء يوم شتوي

كانت العربة التي تحمل راكبين، تئنّ تحت ضربات الرياح، وتسير في منطقة موحشة لا ترى فيها مخلوقاً أو بيتاً. أرخى الظلام سدوله على المنطقة، ولولا المبارزة التي حصلت بين المشتري والشعرى اليمانية في التوهج وإرسال أشعتهما أمامهم لما تمكنوا من الرؤية، الضوء الوحيد الذي كان بإمكانهم مشاهدته على الأرض كان بقعاً من اللون الأحمر الخفيف المتلألئ مع خفوت هنا وهناك على الجبال البعيدة، والتي كانت نيراناً أشعلها الفلاحون للتخلص من المخلفات الزراعية والجذور الميتة لأغراض زراعية، هذا ما وضحه سائق العربة بعفوية.

كانوا قد اجتازوا أربعين ميلاً عندما وصلوا محطة السكة الحديدية، وبقي عشرون ميلاً، وبهذا أشرفوا على نهاية رحلتهم، حتى وصلوا إلى وادٍ فسيح يمتد بضعة أميال، حيث كان ذا تربة أكثر خصوبة، وأغزر إنتاجاً، وأكثر تنظيماً، ويختلف عما سبق من المناطق التي رأوها في الطريق.

كان بإمكانهم رؤية قصر محاط بأشجار الدردار التي تمتد عبر الوادي.

قال السائق: «إن هذا بيت أندلستو، بيت عائلة لوكسليان».

ردد الراكب وقد أدار وجهه ليتفحص البناء بعناية فائقة: «بيت أندلستو، بيت عائلة لوكسليان، هل نحن ذاهبان إلى هناك؟»

- لا إننا ذاهبان إلى بيت أبرشية أندلستو، كما أخبرتك سابقاً.

- لقد اعتقدت أنك غيرت رأيك، لأنك نظرت إلى ذاك الاتجاه مطولاً.

- إنني مهتم بالمنزل، ليس إلا.

- إن الجميع مهتمون بالمنزل.

- ليس بالطريقة التي أنا مهتم بها.

- هل تصدق أن عائلتهم ليست أكثر نبلاً من عائلتي؟

- وكيف ذاك؟

- لقد كانوا حفارين وسياجين في بداياتهم، ولكن في قديم الزمان تبادل أحد أجدادهم ملابسه مع الملك تشارلز الثاني وأنقذ بذلك حياة الملك، حيث جاء الملك إلى أحد أجدادهم وهو يعمل في تسييج أحد الحقول، وقال له أيها الرجل في الأسمال البالية هل تعيرني ملابسك، إنني تشارلز الثاني، وإن ما أقوله هو الحقيقة، فقال السياج لوكسليان، لا مانع عندي وتبادلا ملابسهما. قال الملك تشارلز الثاني بوصفه رجلاً عادياً وهو يقود حصانه مبتعداً، إذا أصبحت

ملكاً، فتعال إلى بيتي واطرق الباب، واصرخ هل الملك تشارلز الثاني حاضر؟ واذكر اسمك، سيدخلونك، وسأسميك لورداً.

- إن هذا كان تصرفاً طيباً من السيد تشارلي؟

- كان فعلاً عملاً جيداً.

وكما يَرْوون، فقد تُوِّج تشارلز الثاني ملكاً، وبعد عدة سنين توجه لوكسليان السياج إلى بيت الملك، طرق الباب، وسأل إذا كان الملك تشارلز الثاني حاضراً، فأجابوه بأنه غير حاضر، عندها سأل إذا كان تشارلز الثالث حاضراً، فأجابه شابٌ يبدو عادياً جداً لولا ارتداؤه التاج: نعم أنا تشارلز الثالث.

قال الرجل الآخر بطريقة احتجاجية: «هذا غير صحيح فليس في التاريخ الإنكليزي أي تشارلز ثالث».

- إن هذا تاريخ حقيقي ولكنه غير مدون، وقد كان رجلاً حاد الطباع إذا كنت تذكر.

- حسناً، استمرّ.

- وبالحيلة أصبح لوكسليان السياج لورداً، وكانت أموره جيدة إلى أن اصطدم يوماً مع الملك تشارلز الرابع.

- تشارلز الرابع، لا هذا كثير.

- لماذا، إن هناك جورج الرابع أليس كذلك؟

- بالتأكيد.

- ما الفرق بين جورج وتشارلز، فتشارلز مثل جورج، على أية حال فلن أتكلم أكثر من هذا، ولكن هذا العالم الذي نعيش فيه عالمٌ غريب.

تسللت العتمة، وابتلع الظلام شيئاً فشيئاً ملامح البيت واستمروا في طريقهم صامتين، قطعوا تلّاً وتلّاً آخر ثم مشوا ميلاً آخر، حينذاك تمكنوا من رؤية منارتين ضوئيتين على الساحل القريب تنيران الأفق بضوئهما اللامع. مروا بواحة ثم بوادٍ صغير، عندَها وجّه السائق الحصان إلى منعطف حادّ وبدأ بنزول المنحدر رويداً رويداً.

قال السائق: «إن أبرشية أندلستو من هنا، هذا الجزء هو أندلستو الغربية، قرية اللورد لوكسليان في أندلستو الغربية ولها كنيسة خاصة بها، والقسيس سوانكورت هو قسيس الكنيستين، ويتنقل بينهما. وأعتقد أنّ مكان البيت كان في القديم محجراً، وقد أزال كل الحجارة ليبني البيت وجعل ما حول البيت جنة من الأزهار والأشجار وذلك بتربة أحضرها من مكان ما، أما باقي الحقول فلا تنفع لزراعة أي شيء».

- منذ متى وهو في هذا المنصب؟

- منذ سنتين، لا... أعتقد منذ سنة ونصف لأنه لم يتم إشهاره بعد، والإشهار يكون بعد سنتين. ولكنه شخص لطيف حسن المعشر، ويعرفني جيداً فأنا سائق على هذه الطريق.

اجتازوا العريشة، وداروا حول المنعطف والمدخنة، وأصبح البيت في مجال رؤيتهم، ولكنه كان غير مضاء. ترجل الرجلان وتحسّسا طريقهما في الظلمة وقرعا الباب، ولم يجب أحد.

بعد عدة دقائق، أعاد الغريب الكرّة بعناد، سمع عندها صوت خطوات في القاعة وحركة أكرة الباب ولكن لم يظهر أحد.

- لعلهم في الخارج؟

- وأنا كنت قد عولت على عشاء ساخن في مطبخ القسيس سوانكورت، وقد تخيلت فطيرة لحم، وكعكاً، ونبيذاً من ذاك الذي يحتفظون به هنا.

سمعوا صوت رجل يقول بتعجب: «أيها الجيران، أكنتم أغنياء، أم فقراء فما الذي أتى بكم في هذا الوقت من الليل إلى هذه المنطقة النائية؟؟».

وعندما التفتوا إلى الصوت كان رجل عجوز يمشي بتثاقل ويحمل بيده مصباحاً.

- أتعتقد أن الوقت متأخر! إنها لم تتجاوز السابعة، أضِئ المكانَ وأدخلنا يا ويليام وارم.

- أهذا أنت يا روبرت ليكبان؟

- نعم، ليس أحد غيري.

- هل جاء الزائر معك؟

قال الغريب: «نعم، هل السيد سوانكورت حاضر؟».

- تفضلوا بالدخول من الباب الخلفي، فقد علق هذا الباب، فحتى الأتراك لن يتمكنوا من فتحه، وعلى الرغم من أنني رجل مسن ومريض، وهذا كله من الله، إلا أنني أستطيع أن أدلكم على الطريق يا سيدي.

تبع الرجلان الدليل ودخلا من باب صغير ومرّا بغرفة غسيل الأطباق وبالمطبخ، إلى أن وصلا غرفة الاستقبال، وكانوا يوشكون أن يأخذوه ليشاهد غرفته عندما ظهرت ألفريدا من القاعة الداخلية للمدخل الأمامي وكانت قد ذهبت لتستعلم عن سبب التأخير. كانت في دهشة بالغة وهي ترى الزوار في هذا المكان.

كانت قد زينت نفسها بمكياج خفيف، وتركت شعرها ينسدل على كتفيها، ومع كل محاولاتها فلم تبد امرأة كافية لتناسب الموقف.

رفع الزائر قبعته، احتراماً لها.

نظرت ألفريدا بكثير من الاهتمام والاستغراب إلى الشخص الذي ستُقدَّم له واجبات الضيافة.

قال الغريب بصوت موسيقي: «أنا السيد سميث».

قالت ألفريدا: «أنا الآنسة سوانكورت».

انتهى فضولها. كان الفرق كبيراً بين الصورة التي رسمتها في مخيلتها للضيف وهي أنه رجل أعمال، حادّ الطباع، مسنّ، له رائحة دخان المدن وشحوب أهلها التواقين إلى الشمس، وكان هذا مدعاة إلى سرورها حتى إنها ابتسمت بل أوشكت على الضحك في وجه القادم الجديد.

إن الزائر هو ستيفن سميث، وكان في هذا الوقت ما زال شاباً صغيراً وصل سن الرجولة قريباً. وبالنظر إلى منظره فتتأكد أن لندن لن تكون مسرحَ نشاطاته فإن هذا الوجه لا يمكن أن يتغذى على

الدخان والوحل والضباب والغبار، إن هذه الملامح الطلقة لم تتعرض لأي قلق من متاعب بابل الثانية.

كانت بشرته تشبه بشرة ألفريدا بصفائها، له وجنتان مائلتان إلى حمرة خفيفة كوجنتيها، وشفتان تشبهان قوس كيوبيد وبلون الكرز كلون شفتيها، وشعر أشقر مجعد كشعرها، وعينان زرقاوان رماديتان لامعتان كعينيها، وله شارب خفيف ذو زغب بُنِّيّ فوق شفته العليا. هذا هو الرجل المهني القادم من لندن.

اعتذرت ألفريدا بتردد، عن عدم استطاعة السيد سوانكورت استقباله بسبب مرضه، ورد الزائر بصوت صبياني حاول أن يجعله رجولياً بأنه يأسف لسماع ذلك. وما دامت ترتيبات استقباله قد تمت فلا يهم الأمر كثيراً.

أُخِذ ستيفن إلى غرفته. وتسللت ألفريدا إلى غرفة أبيها خلسة وقالت: «لقد حضر يا أبي، يا له من رجل صغير أن يكون رجل أعمال».

قال والدها: «حقاً».

- إن وجهه جميل يشبه وجهي.

- حقاً، وماذا أيضاً؟

- هذا كل ما أعرفه منه، أليس لطيفاً؟

- سنعرف هذا بعد أن نتعرف عليه، انزلي وقدمي إلى الرجل المسكين بحق السماء شيئاً يأكله وشيئاً يشربه، وعند انتهائه أودّ محادثته هنا إذا لم يكن عنده مانع.

نزلت الآنسة الصغيرة ولمّا كانت في انتظار عودته قرأت الرسائل المتعلقة به.

«من السيد سوانكورت إلى السيد هيوبي

سيدي، إننا نفكر في صيانة البرج والممرّ لكنيسة الأبرشية، وقد ذكّرك اللورد لوكسليان راعي الجماعة، بوصفه معمارياً جديراً بالثقة، ليقوم بكل امتنان بالإشراف على الأمر، لأني أجهل تماماً أساسيات العمل، وهل بإمكانك، كما قال اللورد لوكسليان أن تتكرم بمساعدتنا، وذلك بأن تأتي أنت أو ترسل أحد رجالك ليرى المبنى، وتقدم تقريراً بعد ذلك إلى الكنيسة والرعية.

إن الموقع بعيد جداً ولا يصله قطار مسافة أربعة عشر ميلاً، وأقرب منطقة للنزول هي مدينة، بل بالتحديد هي قرية كبيرة تدعى قلعة بوتريل وهي تبعد ميلين، لذا فأعتقد أن إقامتكم في الأبرشية سيكون أكثر ملاءمة وأنا مستعد لأن أضع الأبرشية تحت تصرفكم بدل الذهاب إلى الفندق في قلعة بوتريل والعودة في الصباح.

نحن على استعداد لاستقبالك في أي يوم يناسبك من الأسبوع المقبل.

المخلص

كريستوفر سوانكورت»

«السيد هيوبي إلى السيد سوانكورت

بيرسي بليس، تشارينغكروس العشرون من آب (أغسطس) 18---

حضرة السيد. تمت الموافقة على طلبك المرسل بتاريخ 18 من الشهر الحالي، ولقد قمت بالترتيب لعمل دراسة ورسومات للممرّ ولبرج أبرشية كنيستكم، وللأشياء المتهدمة منه، التي تحتاج إلى تصليحات.

سيغادر مساعدي السيد ستيفن سميث لندن في قطار الصباح الباكر لهذه الغاية، وأتقدم بجزيل الشكر لعرضك باستضافته عندك في الأبرشية، ومن المرجح أن يصل إلى بيتك في ساعات المساء وبإمكانك أن تثق به وتلقي على عاتقه كل مهمات تصليحات الكنيسة المعمارية.

وأنا واثق بأن المخطط لإعادة الإعمار التي سأقوم بإعدادها، بناء على التفاصيل المقدمة من السيد سميث ستكون مرضية لكم وللورد لوكسليان.

تفضلوا بقبول فائق الاحترام،

السيد هيوبي»

* * *

3

الطيور رخيمة الأصوات تغني أشجى الألحان

كانت أول وجبة في بيت أندلستو جيدة وممتعة لستيفن سميث، أُعِدت المائدة المنوعة كما اقترحت ألفريدا على والدها بجميع مكونات وجبة الشاي الفاخرة التي تتناسب مع كل من هو بعيد عن بيته، وكانت مناسبة تماماً لأذواق الشباب، كانت الطاولة مزينة بالأزهار والأوراق الشتوية، عليها قطع، دجاج، وفطيرة معجنات وكانت الصحون مزينة بفطائر من اللحم.

كان الشاي بفناجين بورسلان وارتشيستر قديمة الطراز، بجانب موقد النار كانت ألفريدا تحاول إضفاء طابع من النضج على حركاتها في أثناء قيامها بصب الشاي، ولأنها تناولت عشاءَها قبل حضوره فلم يكن هناك شي تفعله فأحست بالإحراج، لذا فقد أخذت بالتحدث. استأذنته لإنهاء رسالة كانت قد بدأت كتابتها قبل حضوره وبعد أن جلست على الطاولة، راودها إحساس بأن تصرفها فيه نوع من الوقاحة، ولكن عندما لاحظت أنه لم يأخذ الموضوع بتلك الطريقة استراحت، ولكنها قليلاً، لمست كم هو

محرج لطريقتها في مراقبة فنجان الشاي الخاص به وذلك لإعادة ملئه مرة أخرى عندها أحست بقليل من الراحة، أما اللحظة التي أحست فيها بأنها سيدة الموقف فهي عندما اصطدمت ساقه بطرف الطاولة وكاد يقلب فنجان الشاي أمامه رأساً على عقب كتلميذ مدرسة، فاستراحت أساريرها وانطلقت تتحدث بسهولة وذابت الحواجز فيما بينهما وكانا وكأنهما التقيا منذ زمن بعيد.

انطلق ستيفن إلى التحدث بطلاقة وأهمية عن تجاربه العلمية البسيطة، أما هي فكانت إنسانة بسيطة بلا تجارب عملية ولكنها أخذت تحدثه مع كثرة من الحركات التمثيلية بقصص أخبرها بها والدها وقد أثار اهتمامه وإعجابه قدرتها التمثيلية في تقليد الحركات والأصوات. وقد كانا صورة جميلة للشباب والجمال في منزل السيد سوانكورت تلك الليلة.

صعد ستيفن لرؤية السيد سوانكورت في غرفة نومه، وكان السيد سوانكورت قد اعتذر لعدم استقباله في الطابق السفلي، بسبب مرضه فاضطر إلى استقباله في غرفة النوم.

- أردت أن أخبرك ببعض الأمور قبل أن يطلع الصباح، بشأن سبب زيارتك، إن المرء ليمل من الاستلقاء مسجوناً في السرير، بسبب النقرس الذي أعتبره عدواً مفاجئاً لي، وقد وصل هذا المرض إلى إصبع رجلي، ولكنني أتوقع أن أتحسن في الصباح. أتمنى أن يكونوا قد أحسنوا استقبالك في الطابق السفلي.

- بشكل ممتاز، وأنا آسف لرؤيتك في الفراش، وأتمنى ألّا أقوم بإزعاجك في أثناء وجودي في البيت».

- لا، لا، إنك لن تزعجني. إن ابنتي ماهرة وسأتحسن غداً، بالتأكيد بسبب الخلطات الشهيرة التي تعملها، وإنني أعتبرها أحسن من كل الأدوية في العالم. والآن لنتحدث في موضوع الكنيسة. تفضل بالجلوس، إننا لا نستطيع القيام بشعائرنا الدينية بسبب صعوبة المكان كما ترى، ولهذا السبب نادراً ما يبقى معنا أحد من المصلّين مطولاً، ولهذا فلا يتبقى لنا الوقت الكافي لنقوم بعملية الوعظ فهم سيذهبون قبل أن نتشرف بمعرفتهم، إن هذا البرج، كما ترى تجاوز إمكانية التصليح، أما الكنيسة فهي جيدة عند المقارنة مع الكنائس المجاورة التي ترى بلاطها متعفناً والطحالب تغطي جدرانها».

- يا الله.

- هذا لا شيء، إن بعض جيراني في الكنائس المجاورة يضطرون إلى فتح المظلات اتقاء للمطر في أثناء الصلاة. ويغلقونها عندما يتوقف المطر وبالتالي تتوقف حبات المطر عن النزول على رؤوسهم من السقف. والآن لو سمحت أن تحضر لي تلك الأوراق على الطاولة لأشرح لك أين وصلنا في أعمالنا تحديداً.

وفي أثناء إحضار ستيفن للأوراق أضاف القسيس: «لا بد أنك صاحب اختصاص».

- إلى حد ما.

- إنك شاب صغير كم تبلغ من العمر؟ أعتقد أنك لم تتجاوز التاسعة عشرة.

- إنني في الواحدة والعشرين من عمري.

- إن هذا نصف عمري بالضبط. فأنا في الثانية والأربعين.

وبعد أن تجاذب معه أطراف الحديث قال القسيس فجأة: «على فكرة لقد ذكرت أن اسمك الكامل هو ستيفن فيتزميرسي وأن جدك الأول جاء من كاكسبري، وقد تراءى لي أنني قد أعرف القليل عن عائلتك، فحسب اعتقادي فأنت تنتمي إلى عائلة نبيلة وليست عائلة عادية».

- لا أعتقد أنني أحمل أيّ دم نبيل في عروقي.

- هراء ناولني موسوعة طبقة النبلاء إذا سمحت، دعني أرى، ها هو ستيفن فيتزميرسي سميث إنه يرقد في كنيسة سانت ماري، أليس كذلك؟ وقد تفرع من هذه العائلة «ليزوارثي سميث» ثم جاء الجنرال السيد «ستيفن فيتمارسي سميث» إلى كاكسبري».

صاح ستيفن: «نعم، لقد شاهدت قبره ولكن لا تربطنا به أية صلة قربى».

قال وهو يشير إلى سطر في الصفحة: «قد لا يكون حسب علمك الشخصي، ولكن انظر هنا إلى هذا يا سيدي العزيز». نظر ستيفن إلى حيث أشار حيث كان مكتوباً: «ستيفن فيتزمارسي سميث الذي يعيش في لندن ولكن تمتد أصوله إلى كاكبسيري، حيث كانت شجرة العائلة».

- قد تكون فرداً من عائلة مهنيين الآن، وبما أنني لست رجلاً فضولياً فنادراً ما أسأل مثل هذه الأسئلة، ولكن أثار انتباهي أنفك الذي يدل على أصول نبيلة، وأتقدم إليك بالتهنئة على دمك الأزرق النبيل.

قال الشاب بتواضع: «كنت أتمنى لو تهنئني على صفة شخصية سلوكية».

- يا للهراء هذا سيأتي مع الوقت فما زلت يافعاً، والحياة أمامك، والآن انظر: إن لنا نحن أيضاً اسماً عريقاً: هنا كما ترى جدي الأول «جيفري» خسر لقب البارون لأنه يروي النكات، إنها قصة طويلة لا يمكنني روايتها الآن. إنني رجل مسكين، رجل نبيل مسكين، فمن أسعى إلى صداقتهم، لا يريدون صداقتي. ومن يسعون إلى صداقتي أجد نفسي أرفع مستوى من أن أصادقهم، فأنا رجل منعزل ووحيد ما عدا المرات القليلة التي أتناول فيها العشاء مع اللورد لوكسليان بحكم القرابة البعيدة التي تربطنا.

- ولكن إنّ لك كتبك ودراساتك وابنتك.

- نعم نعم، حسناً يا سيد سميث لا أنوي احتجازك أكثر في غرفة مريض، إن هذا يذكرني بقصة مضحكة.

وأخذ يضحك، نظر ستيفن إليه باهتمام.

- لا، لا، لا يمكنني روايتها.

- تفضل بالذهاب إلى الطابق الأرضي حيث ستقوم ابنتي بواجب الضيافة تجاهك، اطلب منها أن تغني، إنها تغني وتعزف أشياء جميلة، تصبح على خير، أحس بأنني أعرفك منذ ما يزيد عن الخمس سنوات، سأقرع الجرس ليأتي أحد ما يدلك على الطريق.

- لا يهم سأجد طريقي بنفسي.

نزل الدرج وهو يفكر في بساطة الريف وأهل الريف مقارنة بتحفظ أهل المدن وتعقيدهم. قالت ألفريدا:

- نسيت أن أخبرك بأن أبي يعاني ضعفاً في السمع.

- لقد عرفت هذا، في الواقع نحن الآن أصدقاء، فهل من الممكن أن تغني لي يا آنسة سوانكورت؟

عرفت ألفريدا أن والدها وراء الموضوع فهذه طريقته في التعامل مع الضيوف.

وأول مرة تحسّ ألفريدا بالسرور والاستعداد، وقد يكون ذلك بسبب ملامح ستيفن الطلقة أو لصغر عمره. وهذا لن يكون مثاراً للخوف والانتقاد.

اختارت بعض الألحان العائلية القديمة التي كانت أمها تغنيها منذ سنوات بعيدة، وجلست تعزف على البيانو ألحاناً جميلة.

- هل تحب هذه الأشياء القديمة يا سيد سميث؟

- نعم بشكل كبير أكثر من أي شيء في العالم من تراتيل الجُنّاز.

- سأغني لك قطعة قدمتها إليّ سيدة فرنسية في أثناء إقامتها هنا. وبعد ذلك سأغني لك قطعتي المفضلة، إنني أحب أن أغني لمن يهمه الاستماع إليّ.

إن المرأة التي تؤثر في الرجل غالباً ما يتم استحضارها في شكل معين في الذاكرة. لقد استحضر ستيفنُ ألفريدا في ذاكرته في أثناء غنائها وخلال لحظات صحوه ونومه، كامرأة شابة ترتدي

فستاناً حريرياً فضي اللون وقد انعكس الضوء على شعرها فبدا محاطاً بهالة من الضوء وعلى عنقها الوردي، وهي تعزف وتنظر إلى ستيفن تارة وإلى نوتاتها تارة أخرى. انتقل ستيفن إلى كرسي صغير بين البيانو والجدار واستطاع حشر نفسه فيه، وأخذ يحدّق بوجه ألفريدا بتوق وعمقٍ إلى أن احمرّت وجنتاها وتوقفت عن العزف. نظرت إليه فكانت ملامحه في غاية السكينة.

- إنك لا تستطيع أن تقدم ملاحظاتك يا سيد ستيفن، وذلك لأنه يبدو أنك لا تستمع إلى الأغاني.

- لقد كنت أراقب أدوات الأغنية وهو أنت.

- سيد سميث!

- إن هذا صحيح، إنني لا أستمع إلى الكثير من الأغاني، لقد أخطأت تقييمي يا آنسة سوانكورت، فأنتِ اعتقدتِ أنني رجل أعيش حياة مليئة بالهرج والمرج والصخب، ولكنني أبعد ما أكون عن ذلك، إنني رجل بسيط أعيش حياة بسيطة وهادئة كحياتك بل ومنعزلة كالموت.

- الموت الذي يأتي من وفرة الحياة، ولكنك لستَ كما توقعت، فأنت شخص بسيط بلا تجارب عملية وغير انتقادي، لهذا فلم أجد صعوبة في الغناء أمامك ألحاناً لست متمكنة منها كثيراً.

عندما لاحظت أنها أثارت استياءه بهذه الملاحظة فقد أجابت بسذاجة: «إنني أعني يا سيد سميث أن هذا أحسن وليس أسوأ، أن تكون شاباً بلا خبرة، ألا تعتقد أن حياتي هنا مملة؟».

- لا أعتقد ذلك، لا بدّ أنها شاعرية، وندية وحيوية، ومثيرة.

- ها أنت تعود مرة أخرى يا سيد سميث، إن الرجال جنس عجيب، فعندما تتوقع منهم الصدق تجدهم عكس ذلك. إن حياتي هنا قد تكون مملة في معظم الأحيان لكنها تكون ممتعة في أحيان أخرى».

قال ستيفن: «أعتقد أنني أستطيع العيش هنا إلى الأبد»، أحست ألفريدا حينها أن سهماً أصابها من قلب ستيفن.

- ولكنك لا تستطيع أن تعيش هنا إلى الأبد.

«لا»، وانسحب بحساسية كحساسية القوقعة.

كانت هناك مشاعر إعجاب بينهما وإن كانت أقلّ عند ألفريدا بسبب طبيعة المرأة. ملأ الإعجاب قلبه وملأ قلبها أيضاً.

* * *

4

حيث يجرف العشب من أكوام عديدة

كان السيد سميث، لسبب خاص متحمساً للخروج في الصباح التالي، بعد الفجر بقليل ، حيث كان باستطاعته أن يرى من غرفته الجرفين الحادين ينزلقان معاً مشكلين حرف V باتجاه القاع، كان البحر الرمادي الصغير يشبه القمع المائي. وفي أعلى التل كان بإمكانه أن يرى الكنيسة، مسرح عملياته وهي أكبر وأعلى مبنى في محيطها (البناية العارية، السوداء) ترتفع في السماء من أعلى منطقة في التل ببرجها المربع المتهدم دون أيّ شرفة أو قبة بل دون زخرفة. ومحاطة بسور منخفض حيث بإمكانه أنْ يرى أنّ المقبرة ليست كأي مقبرة ، وخطوطَ القبور غير متسقة تحت الشمس ، وبعض النصب التذكارية. وهي منطقة قاحلة لا ينمو فيها شيء إلا بعض الأعشاب الرمادية الفقيرة.

بعد هذا التقييم بخمس دقائق تم إخلاء الغرفة وإعادة فرشها حيث بدت بعد ساعتين دافئة ولامعة وذات ديكورات لطيفة. وقد بدا سميث بعد جولته الصباحية شاباً متفتحاً وجذاباً، له ملامح الرجال الوسيمين في لوحات الرسامين المشهورين.

وما أن تمتم باسم ألفريدا حتى رآها في المرج، بفستان بسيط وبلا قبعة تركض بسرعة صبي، ورشاقة فتاة خلف أرنب أليف محاولةً الإمساك به، وحيث بدت كل إستراتيجياتها التكتيكية واضحة للأرنب الذي ما انفك يناورها هو الآخر. كانت المنطقة هنا تختلف عن التلال حيث كانت الأعشاب والأشجار أكثر كثافة وخصوبة، ولم تكن الرياح لتهبّ داخل هذه المنطقة المحصورة بحزام من الخضرة.

سمع سميث صوت شخص يناديه يتحرك بتثاقل ويرتدي شبشباً، كان الصوت قادماً من المكتبة، وهناك كان السيد سوانكورت ينتظره.

-كنت أعرف أنني سأتحسن بسرعة، فأنا أعاني كل عامين من هذا، ودائماً ما يزول في الليلة التالية، أين كنت هذا الصباح؟ لقد رأيتك قادماً الآن وأنا مسرور بنشاطك؟

- نعم لقد خرجت للنزهة.

- بدأت مبكراً؟

- نعم.

- مبكراً جداً على ما أعتقد؟

- نعم هذا ما يبدو.

- أي طريق سلكت؟ باتجاه البحر؟ الجميع يذهب باتجاه البحر.

- لا لقد اتبعت منبع النهر الأعلى.

- يبدو أنك مختلف عن أقرانك، لقد أغراك هذا المكان الموحش برومانسيته بمفارقة سريرك.

- هو ليس رومانسياً، لقد أحببته.

بدا الشاب غير راغب في التوضيح.

- لا بد أنه كذلك وإلا فما الذي دعاك إلى مغادرة فراشك بعد رحلة شاقة استمرت 14 ساعة أو 16؟ أما أنا فسأكون مستعداً لجولة مسافة عشرة أميال، ولكن بعد الإفطار وليس قبل.

يعتبر السيد سوانكورت نفسه وسيماً بشكل جازم ، كانت صفحة وجهه محايدة دون ألوان غامقة عند الوجنتين وفاتحة عند الجبهة كلون الرجل الذي يتغذى جيداً ولا يفكر كثيراً. كان لا يرتدي الملابس المناسبة لجسده وتحس بأنه إذا فَقَدَ توازنه فقد يسقط إلى الخلف. أما من الناحية الأكاديمية فكان كأي قسيس آخر.

كنت ترى على طول المدخنة زجاجات من أدوية الخيول والخنازير والحمير. ومقابل الجدار طاولة مرتفعة مصنوعة من خشب البلوط اصطف عليها عينات من البوم والنورس وطائر الغطاس، وبجانبها أكوام من القمح وعلى عينات هذه الطيور بطاقات بتواريخ اقتنائها. بعض الأدراج والرفوف كان فيها كتب منوعة مثل (ملاحظات عن الرومان) للدكتور براون و(رسالة إلى الكورونثيّين) للدكتور سميث مما حافظ على صفة المكان، على الرغم من وجود بيت للألعاب أمامها. وكان عند النافذة حوض للسمك، وقبعة ألفريدا معلقة على زاويته.

قال السيد سوانكورت بعد الإفطار: «إلى العمل» حيث كان كأنّه عجلة تنظيم السرعة. بدؤوا بالتحضير للذهاب إلى الكنيسة. امتطى القسيس، بعد قليل من التردد فرسه الفاحمة السواد وذلك حتى لا يؤذي قدمه. طلب ستيفن من أحد الرجال مساعدته. وكان القسيس يصيح ليبعث الحماسة في الرجال. وبعد حوالي دقيقة أو دقيقتين سمعوا صوتاً حول المبنى. «كنتُ قوياً جداً، ولكن كل هذا تغير، أنا حرّ، ومستقل، كأيّ واحد هنا، حتى لو وضع بعد اسمه لقب سكوير».

قال القسّيس متسائلاً، عند ظهور ويليام وارم:

- ما الأمر؟

والتفت إلى ستيفن قائلاً: «إن وارم يقول الحقيقة أحياناً، أما بخصوص اللقب (سكوير) فلماذا أصبح يُعطى للكلاب، ويُستخدَم في جميع المراسلات لكل وضيع يرتدي معطفاً أسود! هل من شيء آخر يا وارم؟».

- لقد بدؤوا بالقلي الآن.

- يؤسفني سماع ذلك.

- نعم إني لا أنفك عن سماع هذا الصوت في رأسي ليلَ نهار كصوت قلي السمك، قلي.. قلي... طوال النهار في رأسي المسكين حتى لا أعود أعرف أين أنا هنا أو هناك، يا ربي أخرجه من رأسي وأرحني.

- أيهما أفضل ضعف سمعي، أم أولئك الناس الذين يقلون السمك في رأس وارم، إنه لأمر جدير بالاهتمام؟

قال وارم: «أستطيع أن أسمع قلي القلاية وصوت الطش بشكل واضح كوضوح الحياة نفسها».

قال ستيفن: «نعم إنه جدير بالاهتمام».

قال القسيس: «إنه لأمر غريب».

ثم صعدوا كلهم الممر إلى أعلى التل بمحاذاة أحجار الجدار حيث كان يظهر منه لمعان الكوارتز والمرمر الأحمر نتيجة انكسار أشعة الشمس، ومشى ستيفن بمحاذاة الفرس.

كانت ألفريدا تتنقل في كل مكان، كانت أحياناً في الأمام وأحياناً في الخلف، في كل الاتجاهات كأنها فراشة حرة. كانت تتسلق بطريقة ما وتسبق الجميع. تابع القسيس الشرح في أثناء المسير.

«في الواقع أنا لم أكن أريد هذا الإزعاج المترتب على تصليح الكنيسة على الإطلاق، ولكن كان لا بد من عمل شيء دفاعاً عن النفس ضد كل أولئك الخاطئين»، استخدمَ الكلمة بمعناها الإنجيلي.

قال ستيفن بطريقة جافة: «كم هذا غريب؟».

- غريب! هذا قليل أمام أبرشية (تي ونكلي).

- كم هذا غريب؟

- غريب! يا عزيزي هذا لا شي بالمقارنة مع أبرشية سنيرتون، على كل حال بالنسبة إلى أبرشيّتنا فأتمنى أن نحرز تقدماً سريعاً.

- يجب أن تثق بالظروف.

- لا يمكن الوثوق بالظروف، ليس لنا إلا الوثوق بالله. ها نحن في وسط مكان موحش أليس كذلك؟ ولكني أحب هذا المكان في هذه الأيام.

دخلوا إلى المقبرة، من جانب درج حجري. إنه مكان جميل للدفن، من الطبيعي أن يشعر المرء بالفرحة والسرور حين يُدفَن هنا. كانت مقبرة جميلة ليس فيها أي سوء، لم تكن القبور متراصّة، ولم يكن عليها صلبان من العصيّ حيث الإحساس بالسجن، أو ذات حدائق منسقة، توحي بصور أناس في ملابس سوداء أو مناديل بيضاء جاؤوا للتعزية، أو عجلات عربات دفن الموتى، أو شجيرات السرو التي تثير الشجن أو توابيت ملقاة خلف الأشجار تذكرنا كم نحن قريبون من موتنا، لا.. لا شيء من هذا، بل كانت ذات أعشاب طويلة برية تأخذ شكل التلال التي تغطيها بشكل غير متناسق. والجبل القديم الخلاب في البعيد كأنه في اللامكان. في الخارج التلال والحشائش كما في الداخل، ثم البحر الواسع الهادئ الذي يلتقي بالأفق على مدّ البصر ويوحي بالعمق والرحابة، وكانت صخور متفرقة تنتصب من بعيد وأمواج من الزَّبَد تضرب جذورَها ويزيد بياضَها النوارسُ الكثيرة التي تحوم بنشاط حولها.

قال سوانكورت بحدة: «الآن يا وارم».

وتلقى وارم الأوامر بالاستعداد. بقي هو وستيفن في الموقع، واستمر العمل حتى نادى للعشاء وحدةُ مطبخ القسيس في أعلى التل. لم تظهر ألفريدا في المبنى إلّا مساءً، وجاءت بناءً على دعوة خاصة من ستيفن، كانت مفعمة بالحياة وبالحركة، وعند دخولها

المبنى القديم أضيء عالم ستيفن بألوان قرمزية، وتم التخلص من وارم بإرساله لقياس ارتفاع البرج. اقتربتْ منه كثيراً إلى درجة أن حواف تنورتها لامست قدمه، وسألته كيف تسير أمور العمل والرسومات الأولية وحضّرت نفسها لتعلم مبادئ الحساب العملية المطلوبة للمبنى؟ ثم تسلقت منبر الوعظ واتكأت على المنبر، وتخيلت نفسها المرّة المئة أنها واعظة تلقي خطبتها من على المنبر.

- لا تخبر أبي بما سأخبرك به يا سيد سميث.

- لا لن أخبره.

- حسناً ، أنا أقوم بكتابة مواعظ أبي في معظم الأحيان وتكون أفضل من تلك التي يقوم هو نفسه بكتابتها. ويعظ بها الناس ويعظني، ويكون قد نسي أنني مَنْ قمت بكتابتها، أليس هذا سخيفاً! ؟

- لا بد أنك شديدة الذكاء.

قالت وهي تنزل عن المنبر: «إن الأمر في غاية السهولة» واتجهت نحوه موضحة بخفة ما تقوم به وهو كالتالي: «هل تعرف لعبة تدعى أين هو؟ ما هو؟ متى حصل؟».

- لا لم ألعبها أبداً.

- يا للأسف، لأن كتابة الموعظة تشبه هذه اللعبة كثيراً. تأخذ النص ، وتسأل نفسك: لماذا؟ ما هو؟...إلخ، ثم تدوِّن ذلك وتستمر أولاً وثانياً وثالثاً ، إن أبي لا يستخدم رابعاً، ويصبح عندك موضوع متكامل من عدة صفحات واكتب بين أقواس كبيرة بخط أسود «لا

تذكر هذا إذا ما رأيت الفلاحين يغطون بالنوم»، ثم الخاتمة بضع كلمات وأكون قد انتهيت، وفي أثناء هذا الوقت أكتب خلف كل صفحة ، «أبقِ صوتك منخفضاً».

ثم أضافت مصححة نفسها: «وذلك لأن صوته يرتفع ويرتفع ويبدأ بالصراخ كفلاح في الحقل، أبي مضحك في بعض الأشياء». أحسّت بالخوف بعد هذه الانفعالات الطفولية، وكأنّ غريزة الأنثى حذرتها حيث خفّ لوهلة حماسُها المندفع بالتصريح أمام رجل غريب.

رأت والدها فاختفت مع الريح. سيطرت عليها المشاعر الجياشة في أثناء نزولها منحدر مقبرة الكنيسة، مشاعر دون دوافع. تحدثت مع والدها برهةً وتابعت طريقها إلى البيت. دخل السيد سوانكوت الكنيسة متوجهاً إلى ستيفن وقد أنعشته الريح، وكان مزاجه مرحاً وهو يراقب ألفريدا في أثناء نزولها بابتسامة. قال: «أيتها الطائر الصغير إنك تبدين متوحشة»، ثم توجه إلى ستيفن «إنها ليست متوحشة على الإطلاق يا سيد سميث، هي عادية مثلك تماماً».

– أعتقد أن الآنسة سوانكورت عالية الذكاء.

قال الأب وهو يرفع صوته بطريق تهكمية: «إنها لكذلك بالتأكيد، وسأخبرك بشيء، ولكن يجب ألّا تعرفه هي، أبداً أبداً أبداً، حيث تصرّ هي على اعتباره سراً لا يمكن البوح به ، فهي تكتب لي المواعظ وتكتبها بشكل جيد. تستطيع الشقية الصغيرة القيام بذلك، إنها تملك حذاقة تاجر ولكن أرجوك ألّا تخبرها.. لا تذكر أي كلمة من هذا».

قال السيد سوانكورت وأشار بعصاه: «انظر هناك ما رأيك في السقف؟».

- هل قمت بهذا سيدي؟

- نعم، لقد ارتديت قميص العمل طوال الوقت، وأنزلت العوارض الخشبية، وقمت بتثبيت الجديد منها وأصلحت القديم ودهنت السقف، كل هذا بيديّ هاتين. وارم كان مساعدي، لقد اشتغلنا كالعبيد، أليس كذلك يا وارم؟

قال وليام وارم: «بجهد أكثر من بعض الناس، كالعبيد من غير شك، ولم نكن لنغضب عندما كان المسمار يعوج! يا الله، من السيئ أن تلعن وتحتفظ باللعنة في داخلك عوضاً عن إخراجها إلى العلن أليس كذلك يا سيدي؟».

- ماذا تقصد؟

- أنت يا سيدي في أثناء إصلاحك للسقف كنت تلعن في سرّك ، وهذا حسب اعتقادي ليس سيئاً.

- لا أعتقد أنك تعرف ماذا بسرّي يا وارم.

- أنا لا أعرف ما بسرك يا سيدي هههه؟ قد أكون رجلاً بسيطاً يهذرف بالأشياء ولا أعرف القراءة، ولكن أعرف بعض الكلمات هنا وهناك ، هل تذكر يا سيدي عندما كنت تصنع كرسياً جديداً في أحد الليالي في ورشتك وطلبت مني أن أحمل الشمعة؟

- نعم وما في ذلك؟

- وقفت بالشمعة، وقلتَ حينذاك إنك تحب الصحبة، حتى لو كانت من كلب، أو قطة، وكنت تعنيني ولم تتمكن من صنع الكرسي.

- نعم أذكر.

- الكرسيّ كان جميل الشكل، لكن يا إلهي!

- لقد حذرتك يا وارم أكثر من مرّة من التحدث مع الناس بقلة احترام.

- كان منظره جميلاً ولكن لا يمكن الجلوس عليه البتة. كان ملتوياً كالحرف Z، عندها ثرتَ وحملتَه ورميتَه في زاوية المشغل، «اللعنة على الكرسيّ» هذا ما أعتقد أنك كنت تقوله في نفسك يا سيدي، كنت أراه في وجهك، وأطلب من الله أن يغفر لي لأنني قلت ما كنت تودّ قوله، ولم تتوقف عن الضحك من شخص بسيط كان قادراً على قراءة أفكارك بوضوح، ويبدو أنني رجل حكيم كأيّ واحد هنا أو هناك.

قال سوانكورت لستيفن في اليوم التالي: «من الأفضل أن تستعين برجل صاحب خبرة عملية ليساعدك على العمل، وقد أخذت إذن اللورد لوكسليان لاستدعاء رجل عند مجيئك. طلبت منه المجيء عند العاشرة إنه رجل ذكي وسيخبرك بكل ما تريد معرفته بشأن حالة الجدران، إن اسمه هو جون سميث».

لم تحب ألفريدا أن يراها أحد برفقة ستيفن في المقبرة. «سأشاهدك من هنا، وأنتَ في قمة البرج» ثم قالت ضاحكة، «وسأشاهد خيالك بمحاذاة السماء».

- سأشير لك بمنديلي، حال وصولي، يا آنسة سوانكورت.

قال وهو ينظر إلى ساعته: «بعد 12 دقيقة من الآن، سأكون على البرج أتطلع إلى رؤيتك».

ذهبتْ إلى الشرفة حيث تستطيع أن تشاهده وهو يواصل مسيره إلى الكنيسة، شاهدت نقطة بيضاء في انتظاره كانت رجلاً في ملابس العمل حيث توقف معه ، وبدل أن يتقدما باتجاه الكنيسة فقد جلسا على مقعد حجري وأخذا يتحدثان. نظرت إلى ساعتها، وكانت قد مرت الاثنتا عشرة دقيقة ولم يُبْدِ ستيفن أي إشارة للتحرك، دقائق أخرى مرت دون أدنى حركة، تسللت إليها برودة الانتظار، وبعد ربع ساعة بدءا بالتحرك ببطء نحو التل.

قالت لنفسها بغضب: «هذه وقاحة وقلة أدب، يعتقد الشخص أنه يحب هذا الرجل الغريب بدلاً من...» بقيت الكلمة معلقة وتفكر فيها أو لا تفكر. ثم عادت إلى الشرفة.

سألت والدها: «هل الرجل الذي أرسلتَ في طلبه كسول؟»

أجاب بدهشة: «لا، على العكس تماماً، إنه بنّاء اللورد لوكسينيان ، السيد جون سميث».

قالت ألفريدا بعدم اهتمام: «حسناً»، ثم عادت إلى مكانها وانتظرت وارتجفت مرة ثانية. كان يعتمل في صدرها شيء تافه وطفولي: النظر من البرج والإشارة بالمنديل. إنّ صديقها الجديد قد وعدها فكيف له أن يغيظها؟ فكانت مجروحة كثيراً.

بعد نصف ساعة كان يمكن رؤية رجلين لا يتحركان فوق الكومة القديمة حتى تلك اللحظة. لم يتمكن ستيفن من الوفاء بوعده، واختفى دون أن يقوم بالإشارة.

عاد في منتصف النهار. كان يبدو الانزعاج واضحاً، حيث كانت تشيح بنظراتها كلما أحست بنظراته عليها، وتعاملت معه ببرود شديد، بل وأبرد من البرود ذاته، ولم تتحدث بأي كلمة. «لم يكن لطيفاً أن تتركني أنتظر في البرد، وأن تنكث وعدك»، قالت هذا بصوت منخفض حتى لا يسمعها والدها.

- سامحيني، السماحَ السماحَ، لقد نسيت، نسيت تماماً! لا أعرف ما الذي منعني من التذكر...

قالت بغضب: «هل هناك المزيد من الإيضاحات؟» كان صامتاً بعض الوقت، ثم قال: «لا» بلهجة من اقترف ذنباً.

* * *

5

التفتح الغزير في الأشجار المتشابكة

كان وقت الإفطار.

يستطيع المرء أن يرى من غرفة الطعام ذات الإضاءة الدافئة التي أخذتها من نيران المَوقِد، أن الطقس في الخارج قد اكتسى بظلال رمادية غامضة، شجر العرعر بفروعه وأغصانه الممتدة، والأرز، والصنوبر بكافة تنوعاته، كلها كانت تميل إلى الرمادي الغامق أما الأشجار ذات الأوراق العريضة فتميل إلى الأخضر الرمادي، والتلال المحيطة بالبرج تميل إلى الرمادي البنيّ، أما السماء الممتدة فهي رمادية كئيبة، لكن وعلى الرغم من كل هذا فلم يكن ذا تأثير سيّئ في النفس، بل كان مشجعاً، فلم تكن السماء تمطر ومن غير المحتمل أن تمطر في الأيام القادمة.

انتقلت ألفريدا من الطاولة إلى الموقد عندما سمعت قرعاً على الباب الخارجي.

إنه ساعي البريد، وكان قد دخل بخفة، ذهبت وفتحت له الباب. عادت بعد برهة ويداها خلف ظهرها.

- كم عدد الرسائل؟ ثلاث للبابا، وواحدة للسيد سميث ولا شيء للآنسة سوانكورت، هناك واحدة من الرسائل خَمِّنْ مَن أرسلها؟ اللورد لوكسليان، إنّ فيها شيئاً صلباً يمكنك أن تتحسسه من الخارج، ولكن لا يمكنني أن أعرف ما هو؟

أجاب السيد سوانكورت عن أسئلتها بتلقائية متعجباً: «لماذا يرسل لوكسليان رسالة، ما السبب؟» وتخلتْ عنه برهةً نظرته الأرستقراطية وأصبح رجلاً مسكيناً بسيطاً يتلقى تعليمات من سيدة بواسطة هذه الرسالة.

قرأ ستيفن رسالته باهتمام وتركيز شديد على العكس من القسيس.

«بيرسي بلاس، مساء الثلاثاء

عزيزي السيد سميث،

إن السيد الكبير، مستاء لتأخرك في اسكتشات البرج ويدّعي أنك شخص مثير للمشاكل، وأنا أكتب إليك لأخبرك بضرورة العودة. وهو يدّعي أن بإمكانه أن يقوم بالعمل خلال ثلاث ساعات، وقد أخبرته بأنك بلا خبرة عملية ويبدو أنه قد نسي هذا الأمر. مع العلم أن هذا الأمر لم يُحدِث عنده أي فرق. على أي حال، وبيني وبينك بشكل شخصي: لو كنت مكانك فلن أعلن هذا يوماً أو يومين، إذا لم أكن مضطراً إلى العودة. سأكمل الأسبوع وأنجز أعبائي ولن يكون هناك فرق في ردة فعله سواء جئت الأحد أو الاثنين.

المخلص

سمكنز جنكنز»

«يا إلهي! شيء محبط»، قال ستيفن هذا وهو مرتبك ذاك النوع من الارتباك الذي يحصل عند التعرض لهجمة من التحقير، في الوقت الذي تم فيه تضخيمك، وفجأة يتم إعادتك، وبكل صلافة إلى حجمك الطبيعي.

قالت الآنسة سوانكورت: «ما هو الآمر المحبط؟». في هذه الفترة استعاد ستيفن رباطة جأشه وأجاب بلهجة المهندس الخبير: «متطلبات العمل الضرورية تقتضي عودتي إلى لندن مع الأسف».

قال وهو ينظر إليه أثناء قراءته رسالته: «هل عليك أن تذهب؟ شاب صغير مثلك.. أمور مهمة؟ من أين لشاب مثلك أمور مهمة».

أجاب سميث وهو يحمرّ خجلاً لقوله هذه الأمور: «في الحقيقة إن السيد هيوبي طلب عودتي إلى لندن، وعليَّ أن أنفذ الأوامر».

- حسناً حسناً، من الذوق الرفيع أن تعود. فأنا أعرف أكثر مما تعتقد، يبدو أنك ستصبح شريكه، لقد توقعت هذا فوراً وأثناء قراءة رسالته إليّ، والطريقة التي تكلم بها بشأنك، إنه يعلق عليك الكثير من الآمال، وإلا لما كان متحمساً لعودتك بهذه السرعة.

كانت الملاحظات غير سارّة لستيفن. إن فكرة المشاركة مع أحدِ عمالقة المعماريّين في لندن كانت مبهجة، على الرغم من استحالتها. إن رأي السيد سوانكورت فيه مخالف تماماً لرأي هيوبي. مرّت بوجهه سحابة حزن لابتعاده عن المكان والناس، وصعقت ألفريدا بتلك النظرة حتى السيد سوانكورت لاحظها.

وقال له بلهجة مرحة: «حسناً ، لا تهتم ، يجب أن تأتي إلى هنا بشكل شخصي وليس بسبب العمل. تعال كزائر -في أوقات العطل- كلكم أبناء المدن عندكم عطل كأبناء المدارس، أليس كذلك؟».

- في آب (أغسطس) على ما أعتقد.

- حسناً تعال في آب، لا أعتقد أن عليك المغادرة بسرعة فأنا مسرور بزيارة شخص محترم للتحدث معه في هذه المنطقة النائية.

«لا لست كذلك»، وأكمل بتردد: «لست مضطراً إلى المغادرة قبل يوم الاثنين».

- جيد، وهذا ما يشجعني على ما أودّ أن أقترحه. إن هذه الرسالة من اللورد لوكسليان ، وأعتقد أنك سمعتني أذكره أكثر من مرّة بصفته المسؤول عن المنطقة وحامي أحيائها وراعيها؟

- أعرف هذا.

-إنه في لندن الآن يبدو أنه ذاهب للقيام ببعض الأعمال يوماً أو يومين وأخذ معه زوجته الليدي لوكسليان، وقد طلب مني الذهاب إلى بيته والبحث عن ورقة بين أغراضه الخاصة التي نسي أن يأخذها معه.

تساءلت ألفريدا: «ماذا أرسل في الرسالة».

- مفتاحاً لدرج خاص يحفظ الأوراق فيه، وهو لا يثق بأحد آخر سواي للقيام بهذا العمل. وقد قمت له بأعمال مشابهة في السابق.

ثم أردف السيد سوانكورت:

- اقتراحي كالتالي، وهو ما سنقضي فيه المساء: سنقوم نحن الثلاثة بالذهاب إلى «تارجان بي»، وسنمرّ ببيت أندلستو، وفي الوقت الذي أبحث فيه عن الأوراق فبإمكانكما أن تتجولا في الغرف كما يحلو لكما؛ فأنا بإمكاني الدخول إلى البيت في أي وقت كما تعلم. المبنى ليس إلا بنايات من الخارج ولكن له قاعة رائعة ودَرَج فخم ويحتوي على العديد من اللوحات».

قال ستيفن: «نعم هناك الكثير».

- هل رأيت البيت إذن؟

- نعم رأيته عندما جئت إلى هنا.

- لكني كنت أشير إلى التصميم الداخلي. ولكنيسة سانت إيفال، وهي أقدم من كنيستنا سانت أجنس، حيث أقوم بالوعظ هنا وهناك بالتناوب. في الواقع أنا أحتاج إلى المساعدة، إن ركوب الحصان ميلين في الصباحات الباردة أمر سيّئ، فعليّ أن أحسن التعامل مع صحتي، وإلا فإني سأقضي بقية العام ما بين السعال والنباح. وعند ذهاب العائلة فلا يبقى إلا ثلاثة خدم أقوم بوعظهم. حسناً هذا هو الترتيب. ألفريدا، هل تودين الذهاب؟

وافقت ألفريدا، وتفرقت حفلة الإفطار الصغير. نهض ستيفن ليأخذ بعض القياسات للكنيسة وتبعه القسيس إلى الباب بملامح غامضة ومتسائلة ثم همس القسيس: «أرجو أن تتحمل عدم قيامنا بالصلاة العائلية هذا الصباح!».

أجاب ستيفن: «لا بأس».

قال القسيس همساً: «لأقول لك الحقيقة إننا لا نقوم بالصلاة دائماً ولكن عند حضور شخص غريب فأجد أن من الضروري القيام بها، إن هناك أمراً خاصاً بك يجعلني أحس بالألفة. وهذا يذكرني بقصة كنت أسمعها عندما كنت صغيراً مندفعاً وجاهلاً، يا لها من قصة». ولكن القسيس منع نفسه من الاستمرار وضحك قائلاً: «يا لها من قصة!».

– هل كانت قصة جيدة؟

– نعم ولكنها سيئة جداً – جداً ولا يمكنني أن أرويها لك أبداً.

بدأت رحلتهم عند الساعة الثالثة، كانت العربة تسير بصوت منخفض، وحذوات الحصان كأنها أجراس على الأرض الصلبة، وهي تتبع بخط مستقيم الطريق الصخرية المجعدة، كأنها تلتحم في الأفق البعيد.

إن تارجان بي منطقة مملة، وسهل الوصول إليها، انزلقوا حول الأزقة العديدة، التي لم تكن أقل من عشرين ميلاً مستقيمة ومتعرجة، إلى قلعة اللورد لوكسليان. فتحت الباب امرأة ذات عنق سمين وذقن مزدوج، وكان يقف خلفها ولد صغير. «سأعطيه شيئاً هذا المسكين الصغي»، قالت ألفريدا وأخرجت حقيبتها وفتحتها فتطايرت منها كومة من الأوراق كأنها سرب من الطيور البيضاء يحوم في الجو في جميع الاتجاهات.

قال ستيفن: «حسناً».

قال القسيس: «ما هذا؟ أرجو ألّا تكون نقوداً يا ألفريدا».

انزعجت ألفريدا وشعرت بالذنب. قالت: «إنها شيء خاص يا أبي» وانقضّ ستيفن بوثبة وساعده الولد الصغير، وزحف حول عجلات العربة وحوافر الخيل ليجمع الأوراق وسلمها لها مرة أخرى.

«لا بد أنك تتساءل عن ماهية هذه النصوص؟ حسناً سأخبرك، إنها قصة رومانسية أقوم بكتابتها». ولم تستطع أن تمنع نفسها من احمرار وجهها.

سألها السيد سوانكورت، الذي كانت تفوته بعض الكلمات بسبب ضعف سمعه: «أتعنين رواية؟».

- نعم «بلاط قلعة كليون» قصة من أحداث القرن الخامس عشر. لم أحدد تاريخ حدوثها بعد.

- رواية رومانسية، إذا ما تعرضت الحقيبة للسرقة، فسينخدع بها قاطع الطريق.

- نعم هذه طريقتي في حمل المسودّات. إن السبب الحقيقي وراء ذلك هو أنني أكتب قطعاً منها وأنا أركب الحصان وأضعها هناك حيث المكان المناسب.

- ماذا ستفعلين. بها بعد أن تنهيها؟

«لا أعلم» وأدارت وجهها ناحية الطريق. وصلوا البيت، دخلوا من بوابة قديمة بلون الحجر ممتدة تحت أقواس كبيرة ثم وجدوا أنفسهم في داخل قاعة مغلقة بواجهات مثيرة ومدهشة في غاية الروعة، إن هذه البناية تعود إلى عصر هنري الثامن ولكن هذا المنظر الرائع يعود إلى فترات أبعد من هذا التاريخ. كان يمكن رؤية

الهضاب والوديان من النوافذ. ولم يكن هناك أثر للمبنى القديم. كانت الشبابيك طويلة وذات قضبان كثيرة، وكانت خطوط السقف تفصل الأشعة القادمة من النافذة الزجاجية في السقف. إن الأحجار العليا لهذه النوافذ البارزة مع النوافذ المثلثة كانت تشكل أشكالاً ضخمة وباهرة ومتشابكة وهي ذات تنوعات رائعة. المداخن الثمانية الطويلة تتطاول في العلياء. وفي الخلف كانت تبدو قممُ أشجار الحور والجميز وهي تتمايل خلف التلال، والخلجانُ المضلعة التي تسكن سطحها الوحشة ، كان المنظر رائعاً من النوافذ والشرفات.

دخل السيد سوانكورت القصر، فَهُوَ له حرية الدخول متى شاء وقد استطاع إدخالهما تحت ذريعة المهمات الخاصة، ثم تركهما السيد سوانكورت في المكتبة.

وبدأ بالبحث في مجموعة من الأوراق كان قد أخذها من إحدى الخزائن التي تم وصفها في الرسالة، وأخذت ألفريدا وستيفن بالتجول في المنزل إلى حين انتهاء الأب. دخلت ألفريدا المعرض وتبعها ستيفن بشكل تلقائي. كان غرفة طويلة واسعة وتم إغناؤها بطراز معماري فريد يتجاوز القرن أو أكثر. كان كورنيش الجدران، وهو من عصر النهضة، مدعماً بقبة ممتدة على السقف المنحوت والملتوي والملفوف وهي أيضاً من طراز تلك الفترة.

كان ستيفن في إحدى الزوايا ينظر إلى ألفريدا التي بدأت تحس بالكآبة، وتم كسر حاجز الصمت بينهما عند فتح الباب. وظهرت فتاتان صغيرتان ترتديان ملابس دافئة وهما ذواتا عيون لامعة وشعرهما يتأرجح هنا وهناك، وكانتا تتضاحكان بسعادة واضحة.

- لقد سمعنا صوتك يا آنسة سوانكورت، هل تنوين البقاء هنا؟ أنت أمّنا الصغيرة، أما أمنا الكبيرة فذهبت إلى لندن.

قالت إحدى الفتاتين وهي تشبه أختها ولكنها أصغر قليلاً: «دعيني أقبلك».

كانت وجناتهما الحمراوات وشعرهما الأصفر يتماشى مع فستان ألفريدا، وقفت حينذاك وحضنت الفتاتين.

- إنه شيء غريب أن يخطر ببالهما تسميتي بـ«الماما الصغيرة» فأنا أعشقهما، قد يكون ذلك لأنني ارتديت في إحدى المرات ثوباً يشبه ثوب الليدي لوكسليان؟

هاتان المخلوقتان هما «فخامة ماري» و«فخامة كيت» إنهما أصغر سناً من لقب كهذا، إنهما ابنتا اللورد والليدي لوكسوليان وقد تركهما والداهما في البيت تحت رعاية المربية والممرضة. إن اللورد يحب أولاده جداً ولا يمكن القول نفس الشيء في زوجته.

إنه يشعر أحياناً أنها لا تريد أن تسعده لأنها لم تنجب له ولد ذكراً.

كانت الطفلتان تتراكضان خلف ألفريدا، وتتطلعان إليها كأنها كائن كبير من نفس فصيلتهما، ولا تنتمي لفصيلة الكبار. وكم تحب هاتان البنتان أن تعانقاها كلما التقتا بها.

جاءت المربية لتضع حداً لحرية هاتين الفتاتين.

قالت إحداهنّ بحزن: «أتمنى لو كنت تعيشين هنا يا آنسة سوانكوت».

قالت الأخرى بحزن أكبر: «وأنا أيضاً، إن ماما لا تلعب معنا كما تلعبين أنت، لا أعتقد أنها كانت تعرف اللعب وهي فتاة صغيرة. متى سنزورك؟»

- وقتما تريدان. استأذِنا الماما وتعاليا.

- إلى اللقاء.

تذكرت زائرها الذي نسيته في خضمّ الأحداث، بحثت عنه ولم تجده، فقالت في نفسها لا بد أنه انضم إلى والدها. وجدت أن السيد سوانكورت كان ما زال بين أكوام الأوراق. أخذت تبحث عنه فهي لم تُطق أن يكون بعيداً عنها. بحثت عند الدرج المصنوع من خشب البلوط، بحثت في كل أرجاء المنزل. وفي إحدى الغرف، وقريباً من النافذة فقد رأت خيال ستيفن وبجانبه خيال امرأة، واضعاً يده على خصرها ، ومالَ إليها كأنه يقبلها، هل قبلها؟ إن هذه الحركة تبدو كقبلة.

- آنسة سوانكورت ها أنتِ هنا، كنتُ أبحث عنك.

- أتعرف أحداً في هذا المكان؟

- لا أعرف أحداً وكيف لي ذلك؟

* * *

6

الوداع وإلى لقاء قريب

في نفس اللحظة تناهى إلى مسامعها صوت إغلاق باب خارجي من بعيد، ولاحظت من الشباك طيفاً، لم تستطع تحديد ماهيته، يتجه إلى النهر ويختفي بشكل تدريجي.

سمعا صوت السيد سوانكورت يناديهما من آخر الممرّ، فوجداه بانتظارهما، وقد ارتدى معطفه ووضع قبعته بشكل يشعر بالانتصار لنجاح مهمته. انطلق الثلاثة في العربة بعيداً عن القصر، تحت البوابة الحجرية الصخرية.

لم يتبادلوا أي كلمة طوال الطريق المحاطة بالأشجار العارية العالية، إن عقلها البسيط قليل الاستعمال كان مشغولاً بتحليل الوضع، إن هذا الشاب الذي ألهمها مشاعر رومانسية أقرب إلى الروايات، والقادم من لندن للعمل عند والدها، قد جاء بالصدفة إلى أندلستو هاوس ثم استطاع بطريقة ما أن يتقرب من امرأة وكل هذا خلال نصف ساعة.

في أي غرفة كانا؟ تساءلت ألفريدا، لا بد أنها غرفة مكتب اللورد لوكسليان أو غرفة الأعمال؟ من كان في البيت؟ لا أحد سوى المربّيات والخدم وعلى حد علمها فقد تجاهلهنّ تماماً؟ هل من الممكن أن تكون السيدة التي شاهدتها تغادر المنزل جزءاً من مسرحية؟ وهذا ما لن تعرفه إلا بالرجوع إلى الجاني نفسه، هذا ما لن تقوم به أبداً. وكلما أمعنت بالتفكير تأكدت أن اللقاء تم بطريق الصدفة وليس مدبراً. وبعد تحليلات نسائية خاصة انتهت إلى أنّ عليها ألّا تكون سيئة النية، فستيفن سميث لا يمكن أن يتورط بعلاقة حب مع امرأة أقل منه منزلة، وقد كان واضحاً أنه يكنّ لها مشاعر جياشة ويبدو أنه يسعى ويصبو إلى أكثر من هذا.

كانت في حيرة شديدة، فقد أدركت عند ذلك أنها بدأت تحبه، لا أنها تتلاعب بمشاعره، وأنها بدأت تحب هيئته الأقرب إلى الصبيان وبراءتهم.

وصلوا الجسر الذي يربط ما بين شرق الأبرشية وغربها، والقريب من الوادي المتصل بالبحر حيث كان نقطة الانحدار إلى بيت القسيس. اعتاد القسيس أن يكافئ الخيل بعد رحلة كهذه بالتموج والحركات الالتفافية. فجأة قفزت ألفريدا من العربة، فتبعها ستيفن، وانتهز الفرصة للحديث معها.

– لماذا فعلت هذا يا آنسة سوانكورت؟ إنه أمر في غاية الخطورة!

أجابت ببرود: «لا على الإطلاق». وما زال طيف بيت أندلستو يسيطر على دماغها. سار بحذر ثلاث دقائق أو أربعاً لأنه

أحس بأنه محاط بهذا البرود القاسي، ولكنه أحس بأن هذا البرود من صفات الفتيات، فعاد إلى جانبها ومدّ ذراعه بمروءة لمساعدتها في عبور الطريق المنحدر.. هذه أول مرة يتم معاملتها كامرأة ناضجة، إن لها الحق برفض عرضه هذا، إنها حتى هذه اللحظة لم تحظَ بأيّ اهتمام ذكوري سوى من والدها: «ألفريدا، هاتي ذراعك»، اجتاحتها مشاعر فياضة غريبة وتأرجحت بين القبول والرفض، وتراءى لها أن تعاقبه، «لا شكراً، أفضِّل النزول وحدي»، وعندها فكرت بردة فعلها وكم سيعتبرها غريبة الأطوار، وبعد تفكير قليل، قبلت عرضه. وسارا ببطء خلف العربة.

– إنك صامتة، يا آنسة سوانكورت!

– أنت أيضاً صامت.

– قد يكون لدي أسبابي.

– الحزن وحده هو ما يجعل الناس صامتين، وأنت ليس عندك ما يحزنك.

– أنت لا تعلمين شيئاً ، ولكن عندي إشكاليات قد لا تكون إشكاليات بل معضلات.

– ما هي؟

أجاب بتردد: «قد أخبرك، حسناً.. إنه...».

تركت ذراعه بعصبية ودفعته بعيداً عنها، وأحست بأنها فقدت كبرياءَها عند سؤالها سؤالاً مرفوض الإجابة حتى لو كان رفضاً لطيفاً رقيقاً حيث من وجهة نظرها فإنّ اللطف لا يمحو الرفض.

«لا أريد أن أعرف شيئاً.. لا أريد ذلك. العربة تنتظرنا في أعلى التل وعلينا أن نصعد». وركبتْ في المقدمة، دون مساعدة ستيفن، وقالت: «ها أنا ذا يا بابا ابنتك ألفريدا».

قال القسيس بلهجة مصطنعة وقد استيقظ من النوم واستعد للنزول من العربة: «آه، حسناً».

- ماذا تفعل يا أبي لم نصل إلى البيت بعد.

قال بتردد: «نعم نعم لم نصل بعد»، وعاد إلى موقعه السابق، «في الواقع إنني كنت في حالة تأمل عميق حيث نسيت أين نحن»، وبعد برهة عاد القسيس إلى الشخير.

أرخى الحزن سدوله فوق ستيفن سميث في الأمسية الأخيرة، وأما دعوة القسيس له إلى زيارتهم في الصيف فلم تفلح بالتخفيف من هذا الحزن.

غادرهم عند الفجر قبل طلوع الشمس. كانت ألفريدا تتململ في فراشها طوال الليل، فلن تستيقظ مبكراً بعد اليوم للقيام بالواجبات المنزلية تجاهه، ستفتقد رؤية عينيه اللامعتين وشعره المجعد والإحساس بالمشاعر الرومانسية الغامضة، ولوهلة اتخذت اهتماماتها الأنثوية منحى آخر، إذ أحسّت بأنها نفسها مسؤولة عن سلامته. تناولوا الإفطار قبل طلوع الشمس. عقد السيد سوانكورت النية للاستيقاظ مبكراً لتوديع ضيفه وكانت دهشته عظيمة عندما رأى ألفريدا تحمل شمعة وتتجه إلى مائدة الطعام. وبعد انتهاء ستيفن من الحمام ذهبت ألفريدا إلى البيت الصيفي حيث تبعها إلى هناك، وقفا متقاربين

متكئين على السور الريفي، أشارت ألفريدا إلى بعض الأشياء البعيدة ولكن ستيفن لم يكن يرى شيئاً في الوقت الحالي.

«حسناً وداعاً لا أظن أنني سأراك مرة أخرى، على الرغم من الدعوة». عزفت مشكلته الحقيقية على وتر طبيعتها الحساسة، وعرفت أن بإمكانها أن تسامحه على خطأ أو آخر. منعه الخجل من النظر إلى وجهها فنظر إلى فمها وشفتيها.

قالت برجاء: «تعال مرة أخرى سيد سميث».

– أتمنى ذلك، ولكن من الأفضل ألّا أعود.

– لماذا؟

– لي أسبابي الخاصة، التي تمنعني، وهي لا علاقة لها بك.

«يا إلهي، وكيف لأمورك الخاصة أن تؤذيني؟» قالت هذا فجأة بلهجة متعاطفة. وعندما أدركت أنها طريقة غير لائقة قالت بصوت خفيض:

– أعرف لماذا لن تعود، لأنك لا تريد ذلك، ستعود إلى لندن وإلى حياتك الصاخبة هناك ولا تريد أن ترانا مرّة أخرى.

– أنت تعلمين أن الأمر ليس كذلك.

– وتستمرّ بكتابة الرسائل إلى خطيبتك كما كنت تفعل في السابق.

– ما معنى هذا؟ ليس لي خطيبة!

– لقد كتبت رسالة إلى آنسة..... رأيتها مع الرسائل.

- هه، إنها سيدة عجوز تدير مكتبة، وقد طلبت منها أن تحتفظ لي بالصحيفة إلى حين عودتي.

قالت: «لا داعي إلى التوضيح فهذا أمر خاص بك»، وقد أحسّت بالراحة لإسماعه هذه الملاحظة: «ألن تعود لرؤية والدي؟».

- أودّ ذلك، وأود أن أراك أنت أيضاً.. ولكن!

قاطعته قائلة: «ستخبرني بهذا الأمر الذي تخفيه».

- لا، ليس الآن.

قالت وقد أحست بقليل من الإهانة: «أخبرني، هل للمرأة في بيت أندلستو علاقة بموقفك مني؟».

حملق قليلاً وأجاب، وهو ينظر في بؤبؤ عينيها بكل الصدق في العالم: «لا».

لم تتوضح الصورة بعد ولكن الكآبة تركتْها، ولم يكن بوسعها إلا أن تصدقه، ومهما كان السر المخفي، فهو لم يكن بسرّ عاطفي.

دخلوا البيت، كان السيد سوانكورت واقفاً على الدرج منتعلاً شبشباً ويشكو من صداع شديد، وكان كل شي معدّاً لمغادرة ستيفن.

- لقد ذكرتَ أنك ستزورنا في آب (أغسطس)، فموعدنا في آب إذن، هذا إذا كنت مهتماً بحزب المحافظين.

قالت ألفريدا وهي متجهة إلى الباب: «إنك قلت إنك ستعود وعليك أن تعود».

لم يعد هناك من سبب يمنع الشاب من العودة بصفته ضيفاً، لقد وعد بالعودة. ودّعهم وركب العربة وذهب في طريقه.

قال السيد سوانكورت لنفسه وهو يدخل البيت: «لم أتأثر بأحد في حياتي كما تأثرت بهذا الشاب، وهذا ما لا أستطيع أن أفهمه».

* * *

7

لم تعودي تعرفين مني الكثير ، يا حبيبتي

عاد سميث إلى زيارة بيت القسيس في أندلستو، وفاءً لوعده، تحت ذريعة ترميم ستة وثلاثين كرسياً فاخراً من القرن الخامس عشر كانت في حالة يرثى لها من التلف ولا يمكن التعرف عليها، فكان لا بد من عمل رسومات لمعالمها في محاولة صاخبة لإعادة إصلاحها.

دخل البيت وقت الغروب وكان العالم جميلاً مرة أخرى في عيون الشابين. أحست ألفريدا بالخيبة الممزوجة بالاستغراب، عندما اكتشفت، بطريق الصدفة أنه لم يأتِ من لندن مباشرة ولكنه وصل إلى المنطقة في الليلة السابقة، إلا أنها تذكرت أن العديد من السائحين يسكنون الساحل في هذا الفصل، ربما يكون ستيفن قد حذا حذوهم.

لقد تحدثوا كثيراً تلك الليلة بأحوال ستيفن المهنية وآماله وطموحاته، وكانت إجابات ستيفن تبدو غامضة.

أمطرت السّماء في اليوم التالي، واقترحت ألفريدا، أن يلعبا الشطرنج.

لاحظت ألفريدا مسائل غريبة في طريقة لعب خصمها فهو أصلاً لم يكن خصماً ضعيفاً، ولكن طريقته في اللعب هي الغريبة، منها كيفية انقضاضه على أحجار الشطرنج، ولكنها اعتقدت أن هذه هي طريقةُ لعبِ الشباب هذه الأيام، إلا أنها عادت وتذكرت أن كل اللاعبين الذين تعلموا اللعب نظرياً ينقضون على الأحجار بنفس الطريقة. إن خصمها ليس ضعيفاً، ولاحظت طريقته الغريبة في القضاء على قطع الشطرنج، وتجلى هذا حين قَتَلَ الوزيرَ ودفعه جانباً بالحجر الآخر بدل أن يرفعه كما في التحركات الأساسية، ممّا جعلها عاجزة عن الكلام. «كم هي غريبة طريقتك في التعامل مع الأحجار يا سيد سميث!».

- حقاً؟ آسف لذلك.

- لا داعي للأسف، ليس هناك من سبب يدعو إلى الأسف، ولكن من علّمك كيف تلعب؟

- لا أحد يا آنسة سوانكورت، لقد تعلمت من كتاب أعارني إياه صديق، هو السيد نايت ، أفضل رجل في العالم.

- لكن، هل شاهدت أحداً يلعب هذه اللعبة من قبل؟

- لم أشاهد مباراة واحدة في حياتي، إن هذه المرة الأولى التي ألعب بها أمام أحد، لقد لعبت العديد من الألعاب عن طريق الكتب، ولقد درست أسباب العديد من الحركات، وهذا كان كل شيء.

كان هذا تفسيراً لكل ممارساته التي أثارت استغرابها في أثناء اللعب. إن حقيقة أن يملك رجل كل هذه الرغبة في اللعب بالشطرنج

لا توحي أبداً أنه ترعرع دون أن يرى لعبة واحدة. فكرت في هذا بعض الوقت ، وهي تبحث عن ثغرات في اللعبة.

كان السيد سوانكورت يجلس وعيناه مثبتتان على اللوح ولكن يبدو أنه يفكر في أمور أخرى، وقال لألفريدا بعض الكلام باللاتينية حيث رد عليه ستيفن بنفس اللغة.

«رائع، ممتاز» قال سوانكورت وهو يضرب الطاولة بيده.

- كانت هذه الكلمات تطبيقاً على مادة دراسية غريبة كنت أتعلمها.

فأجابه السيد سوانكورت: «ولكنني مسرور بك يا سيد سميث، من النادر أن أجد سيداً متعلماً يتمّ اقتباساً باللاتينية».

قال ستيفن بهدوء: «إنني أطبق الكلمات على نفسي».

قالت له ألفريدا: «أنت آخر شخص في العالم كنت أظنه يقوم بهذا!». فنظر ستيفن بثبات في وجهها ، وأجاب ببطء وبصوت عميق بدا طريفاً وغير ناضجاً، واستمرت بالأسئلة وهو يجيب.

أما القسيس، الذي كان يسمع بطريقة نقدية خلال حركة شفتي ستيفن، فقد فاته ملاحظة بعض الأصوات نتيجة لضعف سمعه.

قال السيد سوانكورت: «أعذر فضولي، إن لفظك كان صحيحاً وقريباً نوعاً ما وعلى غير المتوقع من شباب هذه الأيام في الاهتمام بلغة ميتة كاللاتينية، ومع هذا فإن لهجتك فيها أصوات وألحان غريبة عما تعودت عليه أذناي. اعتقدت في البداية أنك

اكتسبت طريقتك في لفظ أحرف العلة من بعض مدارس الشمال، ولكن لا يمكن هذا نظراً للألحان. ما أودّ السؤال عنه إذا كان أستاذك للأدب الكلاسيكي هو رجل خريج من جامعة أكسفورد أو كامبردج؟».

- نعم إنه خريج أكسفورد، زميل سانت سيبراين.

- حقاً؟

- نعم من غير شك.

قال سوانكورت بدهشة: «إن هذا أغرب ما سمعت وهو أن يكون ستيفن تلميذ رجل كهذا».

صاح ستيفن بحماسة: أفضل وأذكى رجل في إنكلترا!

- إن تلميذ أستاذ كهذا عليه ألّا يلفظ اللاتينية بالطريقة التي تلفظها، بل عليه أن يتغلب على جميع من سمعت من الناس. كم من الوقت علمك؟

- أربع سنوات

- أربع سنوات!

قال ستيفن بتردد: «إن السبب في اللفظ بهذه الطريقة يعود إلى أسلوب التعليم، الذي تم بطريق المراسلة، كنت أرسل له الأسئلة والتمارين مرتين في الأسبوع ويعيد إرسالها مصححة مرتين في الأسبوع، بالإضافة إلى حاشية فيها ملاحظات بالتعليمات. بهذه الطريقة تعلمت اللاتينية واليونانية. إنه ليس مسؤولاً عن لفظي، ولم يسمعني ألفظ حرفاً».

قال القسيس: «حالة روائية، وحالة فريدة من الصبر».

«بالنسبة إليه وليس بالنسبة إليّ، فإن هنري نايت رجل بألف رجل، أتذكر حديثه لي بهذا الموضوع خاصةً اللفظ. قال إنه يأسف كثيراً لأنه يرى أن الناس في المستقبل، سيلفظون الكلمات، كما تسمعها آذانهم والأسوأ أن عصر الخطابة سيولّي وسيحلّ محله عصر الكتابة». كانت ألفريدا ووالدها ينتظران ستيفن ليكمل أكثرَ جزءٍ مشوقٍ في القصة، وبالتحديد الظروف التي حتمت عليه هذه الطريقة الغريبة في التعلّم، ولكن ستيفن لم يفصح عن معلومات أكثر، ولاحظوا من كيفية استغراقه في لوح الشطرنج أنه تواق إلى الخروج من الموضوع.

استمرت اللعبة، لعبتْ ألفريدا عن ظهر قلب، ولعب ستيفن بطريق الأفكار والتأمل، وكان من القساوة أن تقتل هي «ملكه» بعد هذا الجهد، وفكرت أن تدعه يقتل «ملكها» من باب التعاطف معه؟ وفي اللعبة التالية وكانت غير مهتمة بالنتيجة فقد كان لعبها أعلى من معدل لعب النساء، وكانت تعرف هذا وسمحت له بأن يقتل ملكها مرة أخرى. وفي اللعبة الأخيرة حيث تبنت أسلوب موزي جامبت، ففي البداية فقد تم الفوز الساحق لألفريدا في الحركة الثانية عشرة. نظر ستيفن بشك، وكان قلبه ينبض أسرع وزاد تسارعه في اللحظة التي بدأت بالعمل بجدية في هذه الجولة الأخيرة. كان السيد سوانكورت قد غادر الغرفة

قال وقد احمرّ وجهه: «لقد كنتِ إلى الآن تستخفّين بقدراتي، لم تبذلي قصارى جهدك في الجولتين الأولى والثانية».

ظهر إحساس بالذنب على وجهها، وأضحى ستيفن صورة للحزن مما سبب لها الندم على هذا الخطأ الذي قامت به.

قالت بلطف: «سامحني يا سيد سميث، لم أعتقد أن ما قمت به يبدو كأنه ازدراء لمهارتك ، ولكنني من المؤكّد لم أعنِ هذا، ولم أكن لأفوز باللعبة الأولى والثانية ضد واحد حارب بهذه الضراوة والرجولة».

سحب نفساً طويلاً وقال بمرارة: «أنتِ أكثر ذكاء مني. تستطيعين القيام بكل شيء وأنا لا أستطيع القيام بشيء».

انفجر بشدة، ووصل قلبه إلى حنجرته وقال: «أوه يا آنسة سوانكورت، عليّ أن أخبركِ كم أحببتك، طوال فترة غيابي كنت أعبدك»، قفز من مقعده، وانزلق بطريقة عفوية إلى جانبها وقبل أن تشك بشيء كانت ذراعه حول خصرها وجلس الاثنان متشابكين.

كان انفجار الحب جديداً كلّه بالنسبة لألفريدا، ارتعدت من رومانسية المشاعر أكثر من المشاعر نفسها. وفجأة سحبت نفسها ووقفت مستاءة من استسلامها لضغطه دون مقاومة واعتبرت أن ما حصل غير ناضج.

قالت بصوت غنج مغرور: «عليك ألّا تقوم بهذه الأعمال، عليك ألّا تقوم بهذا مرة أخرى، ثم إن بابا قادم».

قال بطبيعته اللينة، دون أن يقرأ ملامحها: «دعيني أقبّلك، مرة واحدة فقط».

- لا، ولا واحدة.

- واحدة فقط على خدك.

- لا.

- على جبينك.

- بالتأكيد لا.

- أنت تهتمين بشخص آخر إذن؟ هذا ما أعتقده؟

- بالتأكيد لا.

- ولا حتى أنا.

قالت ببساطة: «كيف لي أن أعرف؟»

سمعا صوت أقدام السيد سوانكورت يدخل الغرفة، وهنا انتهت عزلتهما وفي اليوم التالي اقترح السيد سوانكورت المسير إلى الهضاب خلف خليج تاجان مسافة 3 أميال. قبل موعد المغادرة بنصف ساعة سمعوا صوت تحطم في الساحة الخلفية، وظهر وارم وهو يقول للعالم بشكل عام ولنفسه بشكل خاص، وحوله قليل من الناس:

«هل أنت متأكد أن قلي السمك سيكون نهاية ويليام وارم، لقد بدؤوا مرة أخرى هذا الصباح كما دائماً فزفزفز».

- هل رأسك يؤلمك مرة أخرى يا وارم؟ ما هذا الصوت الذي سمعناه في الحديقة؟

- يا سيدي إنني رجل ضعيف، والقلي ما زال دائراً في رأسي طوال الليل وهذا الصباح، كالعادة كنت أشعر بالدوار ووقعت

خشبة من دعامة العربة. وأنا خجل جداً لهذا وأعتقد أنني أنا السبب وراء ذلك، وأنا رجل مستقل هنا وهناك.

صاحت ألفريدا بخيبة أمل: «يا إلهي كسرت دعامة العربة». وكذلك كان ستيفن.

أبدى القس أعصاباً هادئة بالنسبة إلى الحادث.

قال القسيس: «إنها مسافة بعيدة بإمكان ألفريدا أن تركب المهر وأنت تركب الفرس العجوز».

قالت ألفريدا: «إنك لم ترَ أني على ظهر الخيل، عليك أن تراني». نظرت إلى ستيفن وقرأت أفكاره، ثم قالت في الحال: «أنت لا تعرف أن تركب حصاناً يا مستر سميث!».

- يؤسفني القول إنني لا أعرف.

- أعجب لرجل كيف لا يعرف الركوب!

جاء القسيس لإنقاذه: «إن هذا شائع جداً، كان عليه تعلّم دروس أخرى، وأنا أرجح هذه الخطة: دع ألفريدا تقود الحصان، وأنت يا سيد ستيفن سر إلى جانبها». رحّب ستيفن بالاقتراح، وكان له نتائج إيجابية حيث سيصحب ألفريدا لفترة طويلة بطيئة دون احتمالية إفساد المتعة بقلقها القادم. أسرجت المهرة.

«حسناً يا سيد سميث»، قالت السيدة وهي تنزل الدرج، كعادتها في ركوب الخيل وتغيير الملابس، وأضافت ببهجة، «إن لديك مهمة عليك إنجازها اليوم: هذان قرطاي المفضلان، لكن وللأسف فإن خطافيهما قصيران، وهذا يزيد من احتمالية سقوطهما

عند تحريك رأسي كثيراً في أثناء ركوب الخيل وبهذا فلا أحس بهما عند سقوطهما، ستؤدي لي خدمة عظيمة إذا أبقيتْ عيناك عليهما وتذكرني بهما في كل ثانية من اليوم وتخبرني في حال سقط أحدهما، وقد حصل أن فقدت أحدهما يوماً، أليس كذلك يا يونتي؟».

- نعم يا آنسة.

تابعت ألفريدا: «مرة أو مرتين وجدت أحدهما في الحقول».

تابعت يونتي: «ومرة أخرى عند البوابة على بعد 18 أكراً».

أضافت ألفريدا: «ومرة على سجاد غرفتي».

- وفي إحدى المرات كان يتدلى من التطاريز المزيّن بها على معطفك يا آنسة، ومرة أخرى على ظهرك، أليس كذلك؟ وكيف كنت حينذاك؟ إلى أن وجدتِه!

وضع ستيفن قدم ألفريدا الصغيرة في يده، «واحد اثنان، ثلاثة هوووب».

وللأسف، فبعد أن رفعها تحرك الحصان فكانت ألفريدا على الأرض.

قال القسيس مشجعاً: «لا بأس حاول مرة أخرى، إنها مهمة بسيطة تتطلب الكثير من التدريب، مع أنها تبدو سهلة، قف قريباً من رأس الحصان يا مستر سميث».

«بالتأكيد لن أسمح له مرة أخرى، تعال يا وارم ساعدني على الصعود»، تقدم وارم فكانت على السرج.

وبعد ذلك تقدموا في المسير بصمت. وهبت رياح عليلة من البحر تزيل لهيب رياح الوادي الساخنة.

- أعتقد أن الرجل الذي لا يستطيع الجلوس على السرج، أو إجلاس أحد آخر يبدو بلا فائدة حقيقية، ولكني أعدك يا آنسة سوانكورت أن أتعلم ذلك لأجلك، سأفعل بالتأكيد.

قالت: «إن فيك أمراً غير عادي، هل معرفتك ببعض الأمور يجب أن تكون مصحوبة بجهلك بأمور أخرى؟»

رفع ستيفن عينيه إلى عينيها، وقال بجدية: «إن هناك أموراً كثيرة للتعلم في هذا العالم الواسع، ولكني لم أزعج نفسي بتعلم هذه الجزئية حيث لم أجد أنها مهمة، ولكني أعتقد أنني كنت مخطئاً، سأتعلم ركوب الخيل وكل ما يتعلق به، لأنك عند ذلك ستحبينني أكثر، هل تحبينني أقل الآن حيث إنني لا أحسن ركوب الخيل؟».

نظرت إليه نظرة جانبية مليئة بالرقة والتأمل وقالت بجدية: «هل تجدني كجنية كيتس في قصيدة La Belle Dame sans Merci» وبدأت دون أن تنتظر الإجابة، «تخيل نفسك يا سيد ستيفن تقول:

أجلستها على وادي
الرتيب الخطوات
ولم أنعم برؤية أي شيء سواها طوال النهار،
فكانت تتثنّى
تتغنى بأنغام السحر،
بترانيم الوجد

وأبيات الجَمال،
كأنه الجنّ
ينشد يترنم،
يتغنى بألحان الصبا
في سحر ودلال،
أحضرت لي جذوراً
محلاة بالعذوبة،
والشهد المذاب،
من المنّ المعطر بالندى».

مكتبة
t.me/soramnqraa

وأكمل الشاب وقد احمرّ خجلاً: «لا، لا».

وقالت بلغة غريبة «أحبك كثيراً».

قالت وقد استعادت رباطة جأشها: «انظر إليّ كيف أعدو، وانطلق يا بانسي الآن بسرعة».

أخذ ستيفن يراقب طيفها وهي تسابق الريح، وتختفي في الأفق، وشعرها يتطاير في الهواء. أكمل سيره في نفس الاتجاه بعض الوقت ولم ير أيّ أثر لها. جلس على صخرة حزيناً كزهرة دون شمس. وبعد ربع ساعة سمع صوت حوافر بانسي قادمة من دورة حول التل. فقالت وعيناها تلمعان ووجهها يزداد احمراراً: «يا له من عَدْوٍ ممتع ذلك الذي قمنا به». وأدارت وجه الحصان، نهض ستيفن وأكملا المشوار.

- حسناً، ماذا عندك لتخبرني به يا سيد سميث، بعد غيابي الطويل؟

قال: «هل تذكرين السؤال الذي لم تستطيعي الإجابة عنه الليلة الماضية، وهو إن كنتِ تهتمين بي أكثر من أي شخص؟».

- لا أستطيع الإجابة عليه الآن أيضاً.

- لماذا؟

- لأنني لا أعرف إن كنت أهمك أكثر من أي شخص.

أجاب بتوتر وبعرفان: «من غير ريب، فأنتِ تهمينني أكثر من أي شخص آخر». وانزلق إلى الجهة الأخرى وهو ينظر إلى وجهها وقال بمرح: «انظري في عينيّ» وأطاعت بخجل.

وأكمل بجرأة: «وما رأيك بقبلة؟».

- مستحيل، لا يمكن، إذا رآنا أحد فقد تكون نهايتي. بإمكانك أن تقبل يدي إذا شئت.

اكتشفت من نظرته إلى قفاز ركوب الخيل الذي ترتديه ما يجول بخاطره من عدم شاعرية الموقف، فقالت له: «حسناً سأخلع قفازي، انظر كم هما جميلتان وبيضاوان، ألا تريد أن تقبلهما، إذا لم تقبلهما الآن، فلن تقبلهما أبداً.

- إذا لم أقبلهما فإني لن أقبلك أبداً يا عزيزتي ألفريدا، وأنت تعرفين أنني أطمح إلى أكثر من هذا، فأنت مليكتي، وأنا على استعداد للموت من أجلك.

نظرت إليه بتأمل وقد احمرّت وجنتاها، يا لها من لحظة تاريخية، لحظة جعلتها تشعر بالفخر، فهذه المرة الأولى التي تتربع فيها على عرش قلب رجل. وانقضّ ستيفن بخلسة على يدها وقبّلها.

قالت بعناد مهرة: «لا.. لا ما كان لك أن تفاجئني بهذه الطريقة!». ونتج عن هذا صراع سلس وحميم على ملكية اليد أقرب إلى صراع الأولاد منه إلى صراع كرامة بين رجل وامرأة، إلى أن ضاق بهما ذرعاً الحصان بانسي، فاستعادت ألفريدا يدها ونفسها وقالت بطريقة بعيدة عن المرح وعن الغضب: «إنك تجعلني أتصرف بشكل غير لطيف، ولم أكن لأسمح بهذه العربدة الطفولية، فنحن أكبر سناً من هذه الممارسات».

قال بلهجة نادمة وهو يدرك تماماً تماديه في هذا الصراع السخيف مما أدى إلى خسارته جزءاً من كرامته: «أرجو ألّا تعتقدي أنني رجل متلون ملتوٍ».

- أنت تتصرف دون رسميات، وهذا ما لا أقبله نظراً للفترة القليلة التي تعرّف فيها بعضنا على بعض، أنت تتمادى كثيراً، وتعتقد أنني فتاة ريفية، ولا يهمّك كيف تتعامل معها.

- أؤكد لك يا آنسة سوانكورت إنني لا أملك نية سوء، كل ما أردته أن أطبع قبلة جميلة جدية على يدك.

قالت وهي تهز رأسها: «مرّة أخرى ها قد عدنا إلى الأسلوب الملتوي. وعليك ألّا تطلب مني أن أنظر في عينيك».

وواصلا التقدم خلال السهول والحقول باتجاه التلال، وعند حدود الحقول المشرفة على البحر عبّرت عن رغبتها في الترجل، فربطت الحصان بشجرة، وعَبَرا الممر المتشعب، الذي انتهى بحيد مسطح مواجه لصخرة عملاقة ذات لون أزرق وأسود، كانت الصخرة أمامهما بين البحر وأعلى حافة بارزة، وبعيداً تحتهما كان

المحيط يمتد بلا نهاية. وكانت النوارس الصارخة منتشرة على الصخور الناتئة، تبحث عن الاستقرار ولا تجده. وكانت سلسلة مرتفعات ستورم- تورنا حيث يقفان تمتدّ على اليمين والشمال بارزة وملتوية. وخلفهما كان بفعل عوامل الطبيعة قنطرة وكرسي يتسع لاثنين أو ثلاثة، جلست ألفريدا وجلس ستيفن إلى جانبها.

- أنا خائفة أن يكون جلوسنا هنا، بهذه الطريقة غير لائق، فكما تعرف لم يمض وقت طويل على تعارفنا فيسمح لنا بجلسة كهذه، أليس كذلك؟

- بلى، إنها فترة كافية.

- كيف تعرف ذلك؟

لا تقاس الأمور بطول الفترة الزمنية ولكن بالكيفية التي تنبض بها الدقائق وهي التي تحدد إذا كان الوقت كافياً أم لم يكن.

- نعم أعلم هذا، ولكني لا أفكر بأبي وموقفه إذا عرف بهذا الموضوع الجديد، فلا أظن أنه يتوقعه.

- عزيزتي ألفي أعرف أنني أستعجل الأمور، ولا يحق لي التحدث هكذا ولكنني أتمنى أن نتزوج، هل تحبينني وتكنّين لي نفس ما أكنّ لك من مشاعر؟

أجابت بارتباك: «لا».

في لحظة الإنكار هذه، أدار ستيفن وجهه بشكل حازم إلى الجهة الأخرى ومادت الأرض تحت قدميه وعم الصمت والسكون إلا من ثلاثة طيور تحوم في السماء.

قالت بإطراء مع بعض التنبيه: «لم أقصد أن أوقفك»، وعندما رأت أنه ما زال صامتاً أضافت بحماسة: «إذا أعدت ما قلته قد أغيّر رأيي وأكون أقل عناداً إذا أحببت».

قال: «حبيبتي ألفريدا» وقبّلها.

كانت هذه قبلتها الأولى... كانت ساذجة وقليلة الخبرة، وانتابتها مشاعر متباينة، من المقاومة، وعدم الإذعان ولم تفلح هذه المشاعر في الظهور وأدت إلى مزيد من التمادي، ولم يكن هناك توجه للاستجابة، ولم يكن وضع الكتف على الكتف، واليد فوق اليد، والوجه فوق الوجه سلساً، وعلى الرغم من الخجل، فقد كانت الشفاه في المكان المناسب في اللحظة الحاسمة، ولم تظهر الأفكار المخجلة الموروثة، التي تجعل العشيق أكثر عشقاً. وبسبب قلة الخبرة، فالمرأة يجب أن تقبّل كثيراً قبل أن تجيد التقبيل. إن فن ملامسة الشفاه برقة يخضع لقوانين أسطورية تشبه ممارسة خدعة سحرية تدعى Forcing a card حيث تنقل الورقة بخفة وتسحب وتزال حافتها، تختارها اليد ولا يساورها الشك في أنك تفرض عليها ورقة بعينها. هذه العملية يجب أن تتم بسرعة، ودهاء وبساطة لكي يعتقد الشخص أن اختيار الورقة تم بمحض اختياره الشخصي ودون إجبار.

لم تكن تلك التسهيلات متاحة الآن، فبعد أن استعاد ستيفن وعيه فقد انتابته مشاعر الأسف لأن قبلته قد أفسدتْها مشاعرُها القلقة في تلقيها، وفي نفس الوقت انتابه السرور لأن هذه المشاعر هي سبب تميزها وسحرها.

قال: «أنت تهتمين بي وتحبينني أيضاً».

- نعم.

- كثيراً.

- نعم.

- أتمنى أن تنتظريني وتَقْبَلي أن تكوني زوجتي.

وقالت بسذاجة: «لم لا؟».

- هناك سبب لذلك يا حبيبتي.

- حسب علمي فلا سبب يمنعنا من الزواج.

- افرضي أن هناك سبباً يخصني يمنعك، أو يمنع والدك من الموافقة على الارتباط بي.

- لا شيء يمكن أن يمنعني من حبك، فلا شائبة في طبيعة شخصيتك، فأنا أعرف كم أنت نقي ونبيل، فكيف تتوقع أن تكون مشاعري باردة تجاهك؟

- إذن فلا شيء قد يؤثر فينا أو يقلل من قيمتي في عينيك يا ألفي؟

قالت براحة: «لا شيء مهما كان، هل هذا كل ما هناك؟ وما يهمني إذا حصلت بعض الظروف الخارجية؟».

- لا يمكنك أن تقرري حتى تعرفي ما أمامك. سنتكلم في هذا لاحقاً في البيت، إنني أثق بمشاعرك تماماً ولكني لا أشعر بالتفاؤل.

- إن الحب بالنسبة لنا جديد وطازج كالندى ونحن معاً، ما دام هناك عالم محبين، وهذا كثير، فأنا يا ستيفن أرى الاختلاف بيننا،

بين الرجل والمرأة عموماً، وقد أكون مقتنعة ببناء سعادتي على أي ظروف مفاجئة قد تظهر. فأنت من تجعل العالم يتناسب مع سعادتك.

- إنك يا ألفريدا تتفوّهين بأشياء تجعلك أكبر من عمرك الحقيقي بخمس سنين أو أكبر مني أحياناً، فأنا لا أستطيع أن أكون بهذا النضج... ومع كل هذا فلم يقبّلك أحد من قبل؟

- نعم

- لقد عرفتُ هذا، فقد كنتِ متوترة جداً: تركبين الخيل بمهارة ولكنك لا تقبّلين بشكل جيد أبداً. قال لي صديقي نايت في إحدى المرات «إن كل امرأة فيها عيب ما».

- هيا علينا أن نعود وإلا فسنتأخر عن موعد العشاء.

وعادا إلى المكان الذي ربطا فيه الحصان وفضلت ألفريدا أن تمتطيه على طريقة القرويين. وعادا من نفس الطريق إلى البيت. أخرجت ثرثرتها ستيفن من ملكوت أفكاره ونسي كلاهما كل شيء عدا إيقاع اللحظة الخاصة بهما.

- لماذا أحببتني؟

- لا أعلم.

أجابت بإصرار: «بل تعلم».

- ربما لأجل عينيك.

- ماذا بشأنهما؟ هيا لا أريد إجابات سطحية. ماذا أعجبك بعينيّ؟

- لا شيء محدد، إنهما جميلتان.

- هيا يا ستيفن لن أرضى بهذا، ماذا أحببت فيّ؟

- قد يكون فمك!

- ما به فمي؟

- أعتقد أن الفم سبب مقبول.

- إن هذا غير مريح أبداً.

- فم بتبويزة جميلة وشفتان عذبتان، ولكن معظم الناس يملكونها.

- أيها العزيز توقف عن اختلاق أشياء من رأسك. ما الذي أحببتني لأجله؟

- قد يكون عنقك وشعرك، ولكني غير متأكد، أو دمك النبيل الذي يغلي في عروقك، وإنني غير متأكد، أو ذراعاك ويداك اللتان تقبضان على أذرع الناس وأيديهم، وإنني غير متأكد، أو قدماك اللتان تلعبان تحت تنورتك كالفئران، وما زلت غير متأكد، قد يكون لسانك، صاحب الألحان العذبة، ولكنني ما زلت غير متأكد.

- حسناً، هذا كلام جميل. ولكني لا أهتم بحبك وأنت ترسمني بهذه الصورة، وتقول إنك غير متأكد. إنها أسباب سطحية باردة. كيف أحسست بي؟ كان ستيفن يختلس الضحكات، ويعلو وجهه نظرات المداعبة. وأكملت قائلة: «عندما حدثت نفسك بأنني أحب هذه الشابة».

- لم أحدث نفسي مطلقاً.

- حسناً عندما حدثت نفسك بأنني لن أحب هذه الفتاة الشابة.

- ولم أحدث نفسي بهذا أيضاً.

- إذن، على ما أعتقد إنني يجب أن أحب هذه الفتاة.

- لا.

- ماذا إذاً؟

- الأمر أكثر تعقيداً وليس بهذه البساطة.

- أخبرني، هيا، هيا.

- حسناً، لماذا لا تخبرني، لن أسألك مرة أخرى أبداً أبداً، ما الذي يمنعنك من البوح بمكنونات قلبك، هذا ما لا أستطيع أن أفهمه.

- ما الفائدة؟ يا معذبتي الحلوة، إنه يسكن الروح بكل بساطة، عندما لم أعرفك، لم أعرف الحب وعندما رأيتك عرفته، هل هذا كافي؟

- حسناً، على ما أظن سأقبل بهذا. على أي حال فسأخبرك ماذا أحببت فيك، فأنت وسيم ولكن هذا ليس كل شيء، أحببتك لأنك نبيل وحسن الطباع.

- لا أعتقد أن هذه صفات صحيحة للرجل ليُحَبّ من أجلها، أعتقد أنها أكثر ميلاً لتكون صفات للانتقاد منها للحب. على

أي حال فسأتقدم إلى خطبتك من أبيك حال وصولنا، وستكون خطبة طويلة.

- أحب ذلك ولكن أرجوك أن تؤجلها إلى الغد!

- لماذا؟

- في حال اعتراضه ولا أظنه سيفعل، فسيكون لنا الغد بطوله نعيشه بسعادة ودون منغصات الرفض... حسناً، ما الذي تفكر فيه الآن بهذا العمق؟

- أفكر في صديقي نايت وكم سيكون مستمتعاً بالمشهد! كم أتمنى أن يأتي إلى هنا.

أجابت بغيرة: «يبدو أنك متعلق به كثيراً، ولا بد أنه شخص جدير بالاهتمام ليستحوذ على تفكيرك».

أجاب ستيفن ووجهه يتوهج بحماسة: «جدير بالاهتمام! إنه نبيل، عليك أن تقولي نبيل».

قالت بسخرية: «نعم، نعم، نسيت ذلك. هو أكثر الرجال نبلاً في إنكلترا كما أخبرتنا سابقاً».

- اضحكي كما تشائين يا آنسة ألفي، إنه رجل رائع.

- أعرف أنه مَثَلك الأعلى، ولكن أخبرني أي شيء بشأنه، ما عمله مثلاً؟

- إنه كاتب.

- ماذا يكتب؟ لم أسمع به مطلقاً.

- لأنه وآخرين قلائل مثله، منغمسون في «نحن» كبيرة، كينونة غير محسوسة، تدعى النقد الأدبي والاجتماعي الراهن.

- إنه مجرَّد ناقد إذن.

- مجرّد، يا ألفي؟ إنه شيء يدعو إلى الفخر أن تكوني جزءاً من طاقم هذه المجموعة؛ فهل أفضل من أن يكون المرء روائياً.

- هذه إهانة لي أنا ابنة كون قلعة كليون الفقيرة.

قال هامساً: «لم أعنِ هذا. ما أعنيه أنه رجل ذو شأن وليس مجرد ناقد، إنه يكتب أشياء على درجة من الأهمية ويقوم بنقد الكتب أحياناً، وأعماله العادية مقالات اجتماعية، وأخلاقية كما تحتوي مجلة البرزنت وليست نقداً أدبياً فقط».

- إذا كان يكتب في مجلة البرزنت، فمن المؤكد أنه رجل موهوب، فهذه المجلة تصل إلينا أحياناً، وطلبت من أبي مراراً الاشتراك فيها، ولكنه متحفظ جداً. وفيما يتعلق بالسيد نايت فأعتقد أنه رجل نبيل.

- إنه رجل ممتاز، وسأسعى لأكون صديقه الحميم في يوم ماً.

- ألستَ صديقه الحميم الآن؟

أجاب ستيفن: «لسنا أصدقاء حميمين، هذا أمر يفترض أنه بعيد المنال، إننا ننحدر من نفس المكان، وقد علمني أشياء كثيرة، ولكن لا صداقة حميمية بيننا». وأضاف وقد لمعت عيناه: «كم سأكون مسروراً حين ازداد غِنًى وشهرة ونصبح أنا وهو أصدقاء».

بدأ العبوس يغزو وجه ألفريدا: «أنت لا تفكر إلا فيه، حتى إنك تحبه أكثر مني».

- لا يا ألفريدا، المشاعر تختلف هنا كثيراً، إنني أقدره، وهو يستحق مني أكثر من ذلك.

«أنت لست لطيفاً الآن، وتسعى إلى إثارة غيرتي بكل الطرق الممكنة»، وأضافت بحرقة: «وأنا متأكدة أنك لن تتكلم بشأني لشخص ثالث بنفس الحماس الذي تتحدث معي به بشأن صديقك».

قال بحماس: «أنت لا تفهمين هذا الموضوع يا ألفريدا، ستقابلينه يوماً ما، إنه في غاية الذكاء، بل عبقري، إن كلمة عبقري لا توفيه حقه، سوف يسحرك حديثه، إنه إنسان يسعى الجميع إلى صداقته، وهذه نصف الحقيقة».

- لا يهمني كم هو رائع، ولا أريد معرفته، إنه يقف بيني وبينك، وأنت تفكر فيه ليلَ نهارَ أكثر من أي شخص آخر. حتى إنك تنساني.

- آه يا عزيزتي، كم أحبك.

- وأنا لا أريدك أن تحدثني بشأنه في أثناء حبك لي. حسناً هَبْ يا ستيفن أننا تعرضنا للغرق، أنا وهذا (النايت) فمن تنقذ فينا؟

- كلاكما؟

- أحدنا فقط.

- لا أستطيع القول...، لا أعرف...، إنه غير مقبول...، إن هذا قرار مخيف.

- آها، عرفت ستنقذه وتدعني أغرق، أغرق، أغرق... وتقول إنني أنا التي لا أهتم بحبك.

وابتعدت عنه متخذة منعطفاً بعيداً عن الطريق، وأشاحت بوجهها بعيداً، ولم تكلمه، مما أضاف إلى الجو برود الإقصاء.

وسرعان ما انهزم ستيفن في هذه اللعبة، استدار وأصبح في مدى رؤيتها.

- هل أنت مستاءة يا ألفي، لماذا لا تتكلمين؟

- أنقذني أولاً ودع السيد العبقري يغرق، فأنا أكرهه. والآن من تختار؟

- حقاً يا ألفي. لا يجوز أن تضعيني في هذا الموقف السخيف.

«إذن لن أكون معك وحدي بعد اليوم، إنها لقساوة منك أن تجرحني هكذا»، وضحكت على سخافتها ولكنها أصرت.

- هيا يا ألفريدا لنتصالح، ونعود أصدقاء.

- إلا إذا قلت إنك ستنقذني وتدعه يغرق.

- سأنقذك، وسأنقذه أيضاً.

واستمرت بإغاظته قائلة: «وتدعه يغرق، هيا إنك لا تحبني».

أجاب بغيظ: «وسأدعه يغرق».

قالت وقد أضاءت عينيها ومضة الانتصار: «الآن أنا ملكك».

قالت يونتي الخادمة، لحظة دخولها البيت: «هناك واحد فقط مفقود».

طارت يد ألفريدا إلى أذنها تتفقد القرط، ونظرت إلى ستيفن نظرة لوم، فقال بانزعاج: «لقد نسيت تماماً، يا ليتني تذكرت».

أخذت تتثنى ودخلت البيت، تبعها ستيفن فقالت: «لو أنك طلبت مني مراقبة شيء، لقمت به بالتأكيد».

- النسيان مغفور!

- حسناً ستجده لي إن كنت تحبني، وتريد أن تخطبني بعد موافقة أبي.

صمتت برهة، وقالت: «أعرف أين سقط مني، لا بد أنه على التل، فقد شعرت حينذاك بشعور ضئيل بأن شيئاً ما فيّ قد تغير، ولكني كنت غائبة الذهن ولم أفكر حينذاك، إنه هناك وعليك أن تبحث عنه».

- حسناً سأذهب فوراً.

اتجه إلى الوادي بخطوات واسعة، تحت الشمس الحارقة، ووسط صمت ما بعد الظهيرة القاتل، وصعد سلسلة الجبال بسرعة متهورة إلى حيث كانوا يجلسون. بحث بين الصخور والحجارة والشقوق ولم يجد القرط. أعاد تتبع آثار أقدامه، وتوقف عند تقاطع الطرق، وأخذ يستعيد ذكرياته. وبدأ بالنزول، خلال الحقول، باتجاه بيت أندلستو.

مشى بكل ثقة، بالممر بجانب النهر، وكأنه يعرف كل إنش في الطريق، وما أن بدأت الظلال بالتمدد، والشمس بالاضمحلال، حتى وصل إلى بوابتين خشبيتين على أطراف بستان أندلستو. وكان النهر يمر تحت السياج ليروي البستان.

كان الكوخ، بين السياج وعند انعطافة الجدول والمدخنة المربعة، المختفية بعباءة اللبلاب المتمددة، بغزارة بعيداً عن جذورها مما زادها ضخامة. وأصبحت بضخامة البرج.

كانت حدود الحديقة قريبة، وكان شجر الجميز يتمايل ببطء بفعل الرياح التي استيقظت توّاً.

عبر ستيفن الجسر الخشبي واتجه إلى باب الكوخ، فَتَحَ الباب دون أن يقرع، أو يعطي إشارة من أي نوع.

أصدر عبارات الترحيب شخصٌ في الداخل، حين فتح الباب وتبعه صوت احتكاك الكرسيّ بالأرض الحجرية لقيام أحد ما عن الطاولة، أغلق الباب ولم يسمع إلا صوت الملاعق والصحون.

* * *

8

لم يكن باروناً ولا لورداً

كان السديم ينسحب من البرك والمستنقعات في رحلة الحج إلى الظلام، عندما جاء ستيفن كانت ألفريدا تقف على الدرج، بلون سماء الغرب الصفراء.

قالت بقلق: «هل أمضيتَ كل هذا الوقت تبحث عن القرط؟».

- لا. لا. ولم أجده.

- لا يهم، على الرغم من أنهما قرطاي المفضلين، ولكن أين كنت؟ وماذا كنت تفعل؟

- لقد أقلقتني وأخفتني. فأنت لا تعرف إنشاً في هذه الأرض، ماذا لو وقعت عن الصخور، عليك أن تعاقب لما سببته لي من قلق.

- أريد أن أتكلم مع والدك. فلدي الكثير لأخبركما به.

- هل ما ستقوله سيعرض وقتنا الجميل هذا للخطر؟ وهل هو السر الذي أشرت إليه مراراً؟ وهل سيتسبب في تعاستي؟

- محتمل!

تنهدت بعمق وقالت: «لنؤجله إلى الغد».

- لا يمكن، يجب أن يتم الآن، أين والدك؟

«إنه في حديقة المطبخ كالمعتاد في مثل هذا الوقت. سأتركك الآن، قل كل ما يمكنك قوله، وافعل ما بدا لك، وكن متأكداً من أنني سأنتظر النهاية بفارغ الصبر». ودخلت البيت.

انتظرت في غرفة الجلوس، وراقبت الأضواء تتحول إلى خيالات، والخيالات إلى ظلام، إلى أن نفد صبرها، وأرادت أن تعرف ماذا يحصل في حديقة المطبخ، انسحبت بهدوء وخفة إلى أن وصلت باب الحديقة ونظرت من ثقب الباب ولم ترَ أحداً، صعدت سُلّماً صغيراً كان يستعمل لجمع الفاكهة، ونظرت فوق الجدار باتجاه الحقول الممتدة إلى ما لا نهاية. كان السيد سوانكورت يروح ويجيء ويبدو كأنه يحدِّث نفسه بصوت مرتفع، ثم سمعت صوتاً آخر يصيح أحيانا بإجابات، وهذا الصوت الرقيق بطبعه القادم من الجهة الأخرى، لم يكن صوت ستيفن.

يبدو أن صاحب الصوت، قد انتظر في حديقة المزرعة القريبة المهملة، المرتبطة بعقار صغير والتي تم بيعها مؤخراً وهو غير معروف لألفريدا يدعى تروتون. أو قد يكون والدها التقى أحد معارف العائلة، أو أحد الغرباء عن الحي الذي تجول في هذا المكان البعيد.

لم يكن هناك داع إلى إزعاجه ، فكما يبدو فلم يفاتحه ستيفن بالموضوع بعدُ، دخلت ألفريدا إلى غرفتها وهي تتساءل عن ستيفن، وجلست قرب النافذة، ذراعها متكئة على الطاولة، ويدها تحت ذقنها تفكر.

كانت ليلة من ليالي آب (أغسطس) الحارة الساكنة، حيث تستطيع سماع أدنى حركة ولو كانت على بُعد أميال، أخذت تفكر في ستيفن وتتمنى ألّا يكون قد هجر صحبتها لأي سبب. فهو كان رقيقاً وحساساً وغامضاً، وهذا ما رفع منزلته في عينيها. غابت عن الوعي لحظات وهي تنظر إلى الأمور من هذا المنظار، إن الانعطافات الغريبة للأمور اليومية العادية التافهة، هي كثيرة في الحياة، حيث نعتاد على عدم اعتبارها، وننسى بالفعل إذا كانت وليدة صدفة. فالمرّة العشرين وهي تتخيل قبلة الصباح، وكيف لامست شفتيها شفتان أخريان، فجأة سمعت صوت قبلة، ليست من النوع السريع المختلس ولكن قبلة عن سبق إصرار، عالية الصوت وذات خبرة.

احمرّ وجهها ونظرت من النافذة ، ولم ترَ شيئاً بدأت العتمة في رسم خطوطها مقابل توهج السماء الحزين الذي لم يكسره سوى شجرة يافعة نمت بعيداً عن رفيقاتها صاعدة عباب السماء كالرمح.

قد يكون أيَّ شخص يقف على الجزء العشبي للحقل، وهي لم تستطع تمييز أيّ أحد بسبب الشجيرات التي نمت في الآونة الأخيرة وحجبت الرؤية.

وما كان بأي حال من الأحوال أن يخطر ببالها أن غياب حبيبها الغامض له علاقة بهذه القبلة، ولكن تعلقها الغامض به كان مدعاة إلى شكوك مختلفة حتى إنها حمّلته مسؤولية إحساسها بالغيرة.

نزلت إلى الطابق السفلي على رؤوس أصابعها، بدأت البحث في كل الزوايا: حول مكان الصوت، وحول البلكونات، وبين القواوير، وبين الشجيرات، وخلف الأشجار، ولم تجد أحداً. عادت إلى الداخل وأخذت تنادي الخادمة يونتي.

أجابها السيد سوانكورت وهو يُخرِج رأسه من غرفة مكتبه ويحمل بيده شمعة أضاءت وجه ألفريدا وكشفت القلق الذي يعتمل في داخلها.

قال والدها: «لقد ذهبت إلى بيت عمتها، لقضاء الأمسية».

قالت متفاجئة: «لم أكن أعلم أنك هنا يا أبي، لم أرَ ضوء مكتبك، حين كنت في الخارج حيث ما زالت الستائر مفتوحة».

- نعم إنني هنا. لماذا تريدين يونتي؟ لقد حضّرت العشاء قبل مغادرتها.

- حقاً! لم أره! ولكنني لا أريدها لهذا السبب. و...

قد أحست أنّ عليها أن تقدم سبباً معقولاً، فقفز إلى دماغها موضوع آخر غير مهم.

كانت جمرة عود الثقاب الحمراء ملقاة في المتكة، فاستنتجت أن الشمعة لا بد أن أضيئت قبل قليل، لهذا فهي لم تر ضوء الشمعة وهي في الخارج.

قال القسيس: «سآتي حالاً، لقد ظننت أنك مع ستيفن».

عاد والدها إلى غرفته.

أثارت ملاحظة والدها دهشتها، فهو إذن موافق على تواجدها مع ستيفن وحدهما. قطع ظهور ستيفن حبل أفكارها.

- هل سمعتَ قبلة في المرج؟

- متى؟

- الآن بالتحديد.

- لم أفهم ما تقصدين بالتحديد! وأنا بالتحديد ليس لي من أقبّله في المرج، إذا كان هذا ما تعنيه.

- ألا تعلم أي شيء بهذا؟

- أبداً ، ما الذي دعاك إلى التساؤل؟

- لا شيء ذو أهمية، ألم تحدِّث أبي بالخطبة بعد؟

- للأسف لا، فلم أجده حينذاك، وبعد ذلك فقد أخذت أفكر في الاعتراض والرفض وكيف سينهي هذا سعادتنا، لذلك فقد أخذت برأيك وقررت تأجيله إلى الغد، مما يمنحنا يوماً إضافياً من السعادة الغامرة.

- ولكني أعتقد أنه من غير اللائق أن تكون صامتاً مدة طويلة.

وأضافت برقة: «أريده أن يعرف بحبنا. ما الذي دعاك إلى أن تأخذ برأيي؟»

- حسناً، سأخبرك أنت أولاً بسرّي، سأخبرك الآن ، ما زال هناك ساعتان لموعد النوم، لنتمشَّ قليلاً باتجاه الكنيسة.

أطاعت ألفريدا بيسر وسهولة وتمشّيا تحت ضوء القمر باتجاه الكنيسة، كان الباب مغلقاً. دارا حول الشرفة يداً بيد إلى أن وجدا مكاناً يستريحان عنده في المقبرة ، اختار ستيفن قبراً أبيض مسطحاً وجديداً جلس عليه داعياً إياها إلى الجلوس.

- لا ليس هنا؟

- لماذا؟

- مرّ بذهني خاطر.

وجلستْ.

قال لها: «هل ستبقين تحبينني على الرغم مما قد يقال فيّ؟؟».

- لماذا تعيد هذا الكلام باستمرار وبحزن؟

اقتربت قائلة: «أنت تعلم أنني سأبقى أحبك، مهما قيل فيك، ومهما حصل فلن يغير من حبي شيئاً وسنبقى معاً إلى الأبد فمصيرك مصيري».

- هل فكرتِ يوماً من هما والداي؟ ومن أي مجتمع أنا؟

- ليس بالتحديد ، لقد لاحظت تصرفاً واحداً غريباً أو تصرّفين لا أكثر. أعتقد أنك انحدرت من عائلة من الناس المتعلمين.

- هَبي أنني لست كذلك وأنني المتعلم الوحيد في عائلتي؟

- لا يهمني، فأنت كل همّي.

- أين تعتقدين أنني درست في المرحلة المدرسية؟ أعني أيّ نوع من المدارس؟

أجابت ببساطة: «أكاديمية الدكتور فلان».

- مدرسة راهبات في البداية، ثم مدرسة محلية.

- لهذا فقط؟ حسناً إنني ما زلت أحبك كما السابق.

وهمست برقة: «أحبك كثيراً، ولماذا تخبرني بهذه الأمور؟ ولِمَ هي ذات أهمية؟».

ضَمَّها إليه أكثر واستمر: «ماذا تعتقدين أن والدي يعمل؟».

- له وظيفة ما.

- إنه بنّاء.

- متعهد بناء؟

- لا، إنه يبني أكواخ، وهو بستانيّ أيضاً.

صمتت برهة.

قالت: «مع أنها فكرة غريبة، ولكن لا يهم».

- ألست غاضبة مني لعدم إخبارك من قبل؟

- لا، أبداً هل والدتك على قيد الحياة؟

- نعم.

- هل هي امرأة لطيفة؟

- نعم. إنها أفضل أمّ في العالم. إن عائلتها جميعهم من الفلاحين، إلا هي، إنها لبّانة.

قالت بتعجب: «أوه ستيفن».

واستمر ستيفن دون أدنى تردد: «استمرت في العمل فترة طويلة بعد الزواج، وأذكر جيداً عندما كنت صغيراً، كنت أذهب معها إلى الملبنة، وأشاهد كيف كانوا يقشطون القشطة وذلك بخض الحليب، وكنت أنام في أثناء هذه العملية، وأحياناً كنت أساعدها. يا لها من أيام سعيدة!».

- لا ، لا ، إنها ليست أياماً سعيدة.

- بلى لقد كانت أياماً سعيدة.

- لا أرى سعادة في العمل والشقاء في ملبنة.

- اليدان متورمتان ومحمرّتان، والأحذية المضغوطة.

قالت: «أعتقد أنه من غير المقبول أن نقيّمك بناءً على الشقاء الذي عشته في طفولتك وشبابك، وعلى القيام بهذه الأعمال الوضيعة».

ابتعد عنها ستيفن قليلاً.

فقالت: «ولكنّ حبي لك لم يتغير»، واقتربت منه واستمرت من تحت كتفه، «ولا يهمني ماضيك، لا بد أنك شخص مميز، وذو جهود جبارة لتستطيع الخروج من هذه الأوضاع، وتبني نفسك بهذه الطريقة».

- ليست جهودي يا عزيزتي ، إن نايت هو من شجعني ودفعني إلى القيام بذلك.

- دائماً هو! دائماً هو! .

- نعم، هذا صحيح.

أكمل بصوت بطيء: «أترين، هو كان وراء دراستي بالمراسلة، فأنا كنت أعرفه قبل ذهابه إلى أكسفورد بسنوات ، ولكن فكرة أن يعلمني الأدب الكلاسيكي فلم تكن قد نضجت واكتملت بعد. وذلك لأن دراستي وقراءاتي لم تبلغ الدرجة المطلوبة المناسبة لهذا النوع التعليمي. وكنت قد تركت القرية، ونادراً ما التقينا، ولكنه استمر بمراسلتي بانتظام. سأخبرك بالقصة في وقت آخر؛ فلم يعد هناك ما يقال سوى إعطاء الأسماء، والتواريخ، والأماكن».

- أرجوك أن لا تكبد نفسك المزيد من العناء. فأنت شخص عزيز وصادق ونزيه لتخبرني بكل هذا بشأن نفسك وهو ليس بمشين، لقد أصبح أمراً عادياً أن يذهب الملايين إلى لندن، أدواتهم على ظهورهم، وجيوبهم شبه خاوية، ليبدؤوا حياتهم، إن هذا الأمر يجب احترامه وتقديره.

وأضافت بمرح: «بهذا تكتسب صيت النورمانديين وغناهم».

- ولكنني ما زلت في بداية الطريق.

- لا بأس بهذا. أهذا ما كان يضايقك؟

- اعتقدت أنه من الخطأ أن أجعلك تحبينني دون أن تعرفي حقيقتي، ولكنني جبنت، خفت أن أخسرك.

- كم أصبحتْ واضحة تصرفاتكَ الآن؟ خصوصيتك في لعب الشطرنج! كيفية لفظك للاتينية التي لفتت انتباه والدي! ثقافتك العميقة الغريبة والمتنوعة المستقاة من الكتب، وبنفس الوقت الجهل في الإتيكيت الاجتماعي! كل هذا أدركته الآن، وهل لهذا علاقة بما رأيتُه في بيت اللورد لوكسليان؟

- ماذا رأيتِ؟

- رأيتك تضع رداء حول امرأة.

- لقد كانت والدتي.

نظرت إليه باهتمام: هل أمك هناك؟

- كنت سأخبرك بالباقي غداً. هل تعرفين أين يسكن والديّ؟ فأنت تعرفينهما بالشكل.

قالت بدهشة: «هل أعرفهما؟».

- نعم، إن أبي هو جون سميث بنّاء اللورد لوكسليان، وهو يعيش تحت جدران البستان مقابل النهر.

- لا، ستيفن إنّ هذا غير ممكن!

- لقد قام ببناء أو ساعد على بناء هذا البيت الذي تعيشين فيه، منذ سنوات عديدة، لقد قام بتنصيب أحجار بوابة المدخل لقصر اللورد لوكسليان. جدي قام بزراعة الأشجار التي تحيط بمنزلك، وجدتي هي التي كانت تساعده بمسك الشجرة مستقيمة بين يديها، وهو كان يهيل عليها التراب وقد أخبراني بذلك عندما كنت صغيراً، وكان حفار قبور أيضاً فقد حفر العديد منها هنا.

- وهل كان هذا السبب وراء اختفائك صباح وصولك وهذا المساء، لرؤية أمك وأبيك؟ وهل هذا هو السبب وراء معرفتك طريق القرية جيداً؟

- ولكن تذكري أنني تركت القرية منذ كنت في التاسعة، وذهبت لأعيش مع عمي الحداد بالقرب من exonbury وذلك

للالتحاق بمنحة بالمدرسة الوطنية، بعيداً عن هذا الشاطئ النائي، حيث قابلت صديقي نايت، وعندما بلغت الخامسة عشرة فقد علّمني مديرُ المدرسة وعلمني أيضاً السيد نايت، ثم ألحقوني بمكتب هندسي لأتعلم، وذلك لأنني كنت ماهراً باستخدام القلم. ودفع والدي القسط كاملاً وبغض النظر عن محاولة اللورد لوكسليان دفعه فقد كان يحب أبي ويقدِّره جداً. بقيتُ هناك مدة ستة أشهر إلى أن تم استدعائي كمصلِّح (هكذا يسمونه في مكتب لندن) هذه كل قصتي.

- كنت أعتقد أنك ضيف من لندن ابن مدينة. وأنت ولدت هنا! وعرفت هذه القرية قبل أن أعرفها أنا!

همست: «كم هذا غريب. كم تبدو الأمور غريبة لي».

قال ستيفن بابتسامة كالحة: «لقد جاملتْكم أمي يوم الأحد القريب، وقال لها والدك أنا سعيد برؤيتك منتظمة في الكنيسة يا جين».

- أذكر هذا، ولكني لم أتحدث معها فنحن هنا منذ 18 شهراً والأبرشية كبيرة.

أضاف ستيف ضاحكاً: «وعلى النقيض من هذا فإنّ أباكِ قد يعتقد أنني من أصل نبيل، وأني صاحب دم أزرق. ففي نفس ليلة وصولي أصرّ على إثبات نسبي من أحد أعظم الموسوعات القديمة المتعلقة بعائلات المنطقة الغربية، اعتماداً على اسمي الأوسط فقط. والحقيقة فقد أُعطيتُ هذا الاسم بناءً على اسم جدي الذي كان بستانيّاً ثلاثين سنة عند عائلة فيتزمورسي سميث. وعندما رأيت وجهك يا عزيزتي لم أجرؤ على مصارحته والابتعاد عنك.

تنهدت بعمق وقالت: «فهمت الآن، إن عدم التكافؤ سيخلق لنا المتاعب»، وأضافت بهمس حزين:

«لا أمانع لو كان أهلك يعيشون بعيداً. وكان أبي سيوافق لو كانوا يعيشون في مكان يبعد مئات الأميال، فالمسافات البعيدة تقلل التناقض العائلي. ولكنه لن يوافق، فماذا عليّ أن أعمل يا ستيفن؟»

قال بصوت متردد ثقيل: «تَخَلَّيْ عنّي، دعيني أذهب مجدداً إلى لندن، ولا تفكري فيّ بعد ذلك».

- لا، لا أستطيع أن أتخلى عنك. إن هذا الوضع اليائس يجعلني أتعلق بك أكثر، مهلاً مهلاً، ولماذا نقلق؟ ولماذا سيعترض والدي؟ إنك معماري في لندن، ومن عساه يبحث في أصولك هناك؟ لا أحد. سنعيش في لندن ، أليس كذلك؟ وما سبب خوفنا إذن؟

قال ستيفن وآماله تعانق آمالها: «إن نايت يقول لي إنه لا عيب في أنني ترعرعت في كوخ ، ويقول إني جدير بصداقته كما لو أنني لورد. فإذا كنت جديراً بصداقته أفلا أكون جديراً بك يا ألفريدا؟؟»

- أنا لم أحب أحداً سواك في حياتي، ولكني لم أجد صداقة أعمق من صداقتك لنايت، وليتها ما كانت لأنها تقلل من قيمتي.

- أنت تعرفين قيمتك عندي. ألم تكوني حبيبة أحد من قبل؟

- لا أعتبره جدياً.

- ألم يحبك أحد من قبل؟

- بلى رجل. وقال إنه يحبني كثيراً.

- منذ متى؟

- منذ مدة طويلة.

- منذ متى؟ كم أمدها؟

- اثنا عشر شهراً.

قال بخيبة أمل: «هذه ليست مدة بعيدة».

- لقد قلتُ طويلة، ولم أقل طويلة جداً.

- وهل أراد أن يتزوجك؟

- نعم، ولكنني لم أرَ فيه شيئاً مناسباً لي.

- هل بإمكاني أن أعرف ماذا كان يعمل؟

- لقد كان مزارعاً.

- مزارعاً ليس بمناسب، وهو أفضل بكثير من عائلتي. أين هو الآن؟

- هنا.

- هنا، ماذا تعنين بـ هنا؟

- أعني أنه هنا.

- أين هنا؟

- تحتنا، تحت هذا القبر، إنه ميت، ونحن نجلس فوق قبره.

قال الشاب وهو يقف وينظر إلى القبر: «كم يبدو حزيناً وقاسياً ما تقولينه، هذا محبط».

- ستيفن، أنا لم أكن أريد الجلوس هنا، ولكن أنتَ مَن أصرَّ على ذلك.

- أشجّعته؟

- لم أشجعه بنظرة واحدة، أو إشارة أو كلمة، مات بالسل يوم وصولك.

- لنذهب من هنا، لا أحب الوقوف هنا، حتى لو لم تحبّيه، فإنه منافسي.

قالت وهي تتبعه: «القلق يجعلك غير عقلاني، كان من الأفضل أن أخبرك قبل أن نجلس».

* * *

9

احتدّ والدها غضباً

كانا يشعران بالاكتئاب على الرغم منهما بسبب التعقيدات التي مرّا بها، نزلا التل يداً بيد وتوقفا قليلاً عند الباب كالأطفال المتأخرين عن المدرسة.

تتقبل النساء قَدَرَهُنَّ بشكل عملي أكثر من الرجال. أبعدت رأسها عن التفكير في عائلة حبيبها وأصله الوضيع، وكان هو يفكر بحزن وأسى في أن ألفريدا قد طُلبت للزواج من قبل.

- ما كان اسم ذلك الرجل؟

- فليكس جتواي، وهو الابن الوحيد لأرملة.

- أتذكرين العائلة؟

- إنها تكرهني الآن. إنهم يقولون إنني قتلته. ستيفن إنني أحبك أنت فقط.

ضغط على أصابعها برفق، ومر ببالهما المتاعب القادمة.

كانت المكتبة الغرفة الوحيدة المضاءة، دخلا وقد قررا أن الحبّ المتبادل بينهما هو مصيرهما الأبدي.

كان في الغرفة رجل ظهره بمواجهة الباب، وفي اللحظة التي قررت الانسحاب رآها والدها وناداها قائلاً: إنه السيد مارتن كانِستر وقد جاء ليحصل على نسخة من سجل السيدة جيتواي المسكينة.

كانت ألفريدا تحب صحبة السيد مارتن كانِستر فهو يلفت انتباهها عند الحديث بتجاربه الغريبة المتعلقة بحفر القبور القديمة لناس كان يعرفهم وكيف أنه تعرف عليهم ببعض العلامات (والحقيقة أنه لم يتعرف إلى أحد) والسيد مارتن له عينان ماكرتان صغيرتان، وذقن مكتنزة مزدوجة.

إن شهودها وصل الورق في يد كانستر وبعض الشلنات على الطاولة توحي بأن العمل مزدهر، وكان محور الحديث أخبار القرية.

وقف السيد كانستر ولمس جبهته بإصبعه تحيةً قيِّمة لألفريدا، ولم يقدم أي تحية لستيفن (حيث هو وعموم القرويين لا يكنون لهم أيّ اعتبار) وجلس مرة ثانية واستمر بحديثه:

- إلى أين وصلت يا سيدي؟

- إلى دق الوتد.

- إن دق الوتد كما كنت أقول ولكن ليس بالمعنى الحرفي للكلمة.

وهنا رفع السيد كانستر عصاه التي يتوكأ عليها بشكل متعامد مع يده اليسرى وخبط خبطة قوية على عقب العصا، بيده اليمنى وقال:

«إن جون كان يقوم بتثبيت الوتد في هذه المرحلة». وهزّ عصاه ونظر في عيون من حوله بحزم ليتأكد من متابعتهم لحديثه باهتمام، «وعندما كان يطرق بضع طرقات على الوتد فكان يتركه ليتأكد من ثباته في الأرض، ثم يعود للطرق مرة ثانية وبقوة أكبر، ولا نية له للتوقف، وعندما وضع جون يده على الوتد ليتحسسه خرجت المطرقة من مكانها».

قالت ألفريدا: «يا إلهي».

- المطرقة انهالت على يده، لم تجرحه قطّ بل انهالت على يد المسكين جون سميث وحطمتها.

قال القسيس: «يا إلهي ، يا إلهي يا للرجل المسكين!».

صاح ستيفن بذعر: «جون سميث بنّاء اللورد؟».

- نعم هو نفسه رجل من أكثر الناس طيبة.

- هل إصابته بالغة؟

قال سوانكورت غير مدرك انفعال ستيفن: «لقد سمعت أن له ولداً في لندن. ولد أموره واعدة».

وأعاد ستيفن: «وكيف هي إصابته؟».

- إن المطرقة لا بد أن تسبب إصابة شديدة، حسناً تصبحون على خير جميعاً.

وخرج من الغرفة، تأرجح في الصالة وبقي أكثر من دقيقة يحاول إحكام إغلاق الباب.

استدار ستيفن مخاطباً القسيس: «سيدي، أرجو أن تسمح لي بالمغادرة، جون سميث هو أبي».

لم يستوعب القسيس في البداية ما قيل وسأل مستفسراً: «ماذا قلت؟».

أجاب ستيفن بإصرار: «إن جون سميث هو أبي».

اكتست رقبة سوانكورت حمرة وامتدت لتشمل وجهه، أصبحت ملامحه أكثر شدة، وشفتاه أكثر حدة. وقد كان واضحاً أن العديد من التناقضات تعتمل بداخله وتعكس نفسها على هيئته.

قال القسيس بصوت جاف ودون مشاعر: «بالتأكيد».

وهذه كلمة تعتمد في فهمها على كيفية نطقها، وقد قالها بطريقة لا توحي بمعناها.

قال ستيفن بمشاعر مختلطة بين البقاء والذهاب: «عليّ أن أذهب الآن. ولكن حين عودتي أرجو أن تسمح لي ببعض من وقتك لحديث خاص».

من المؤكد أنه فَهِمَ ما يريد منه فقال: «مع أنني لا أعتقد أن يكون هناك أيّ أمر شخصي بيننا».

اعتمر السيد سوانكورت قبعته القش وعبر غرفة المكتبة إلى الشُّرفة التي كان يغشاها ضوء القمر، وفكر في عبثية موائد العشاء الفاخرة، ومتعة دراسة شجرة العائلة والنسب ولعب الشطرنج.

إن تعصب السيد سوانكورت كان أكثر من كرمه وتسامحه، وإن لحظات ستيفن بصداقته قلّت إن لم نقل إنها انتهت.

تردد ستيفن في اللحاق بالقسيس، ولكنه اتجه إلى الباب فتبعته ألفريدا، وهناك التقيا بيونتي وآن لحظة وصولهما من القرية.

قالت ألفريدا: «هل سمعتما بحادثة جون سميث، الحادث أبسط مما قيل أليس كذلك؟».

قال الطبيب: «بلى، إنها مجرد رضوض».

قالت ألفريدا بسرور: «الحمد لله هذا ما اعتقدتُ».

قال الطبيب: «كيف لم ينتبه للمطرقة، كان من الممكن أن تسحق يده، ولكن بعون الله فهي زرقاء اللون وسوداء فقط».

قال ستيفن: «أنا شاكر لكما جداً». بقيت يونتي فاغرة شفتاها من الدهشة، إلى أن طلبت منها ألفريدا دخول البيت وهنا أمسك ستيفن بيدها وقال برقة: «هل تسامحيني؟» وضغطت هي على يده.

وأسرع ستيفن إلى منزل والده.

دخل والدها لحظةَ مغادرة ستيفن وقال مستفسراً: «ما رأيك في هذا؟».

وبخفة أنثوية أمسكت بأول قشة تمكنها من تدارك الموقف: «لقد أخبرني بذلك، وهذا الاكتشاف لم يتم على الرغم منه أو عن طريق الصدفة، فقد كنا في طريقنا لإخبارك».

- قادم لأخباري! لماذا لم يخبرني من قبل؟ وإن ما يزعجني هو إخفاؤه حقيقته أكثر من حقيقته نفسها. لقد استغفلني، واستغفلك أنت أيضاً لقد كنتما قريبان بعضكما من بعض، وتتراسلان بطريقة لم

أكن لأوافق عليها، وتنعكس علينا بشكل سلبي، فينبغي للفتاة ألّا تتسكع وحدها مع من لا نعرف مَن هو.

- لقد رأيتنا يا أبي ولم تعلق؟

- إن هذا ذنبي، إنه ذنبي، بماذا كنت أفكر؟ إنه ابن فلاح، ونحن السوانكورت ننتمي للكسليانز. ولم نصل إلى هذا المستوى على الرغم من محاولاتنا عبر العصور، والآن عندما بدأت تتحقق أحلامنا، انظروا من دخل بيتنا. ومن الذي سأدعوه إلى هنا أيضاً؟!

بدأت ألفريدا بالبكاء. وقالت: «أبي اغفر لي وله، نحن مهتم بعضنا ببعض كثيراً، كثيراً يا أبي. وما كان سيسألك إياه الليلة هو أن توافق على خطبتنا إلى أن يصبح رجلاً محترماً مثلك، إننا لسنا على عجلة من أمرنا ولا نريد الزواج إلا بعد أن يصبح غنياً، فقط اسمح لنا بالخطوبة، إنني أحبه كثيراً، وهو أيضاً يحبني جداً.

تأثر السيد سوانكوت بهذا الرجاء، ولكنه كان منزعجاً من الأمر برمته فأجاب: «لا» وكانت (لا) مفخمة وممتدة.

- لا، لا، لا تقل هذا يا أبي.

- ألا يكفي أنه تم خداعي وإلحاق العار بي لأنني أحضرته إلى هنا؟ ابن أحد الفلاحين الأجراء لديّ، وسيكون صهري! يا للسماء! أنت مجنونة!

- لقد رأيتَ رسائله إليّ منذ زيارته الأولى، وكنت تعرف أنها رسائل حب يا أبي، ومن لحظة تواجده عندنا كنت تسمح له بأن يكون معي وحدنا دائماً، وقد عرفت، بالتأكيد بماذا كنا نفكر ونعمل ولم توقفه وأنت تعرف أنه عند الوقوع بالحب في الحب يفوز.

قال القسيس: «بما أنكِ ضغطتِ عليّ، نعم كنت أعرف أن هناك ارتباطاً طفولياً قد يحصل بينكما، ولم أكلف نفسي عناء منعه، ولكني لم أؤيده عملياً، وكيف تتوقعين أن أفعل ذلك الآن؟ إن هذا مستحيل! لا يمكن لأي أب أن يسمح بشيء كهذا في كل إنكلترا».

- ولكنه نفس الرجل، نفس الرجل في كل شيء، وكيف يصبح لا يناسبني الآن وقد ناسبني سابقاً.

- بدا كشاب له أصدقاء مقتدرون، وعنده بعض الأملاك، ولكن بعد أن تبين أنه لا يملك شيئاً، أصبح شاباً آخر.

- ألم تستعلم عنه؟

- قابلتُ هيوبي، ولم يخبرني شيئاً، وكذلك الشاب نفسه لم يخبرني شيئاً، وهذا ما أعتبره أمراً مخجلاً، أن تدخل بيوت الناس مثل الخونة، أو مثل لا أعرف من!

- لكنه كان خائفاً من إخبارك وكنت أنا أيضاً خائفة من معرفتك حقيقة أصله، إنه يحبني ويخاف خسارتي وأما حديثه عن صديقه في زيارته الأولى فلست أعلم لِمَ قام بذلك. لقد أتى من أجل العمل. ولا يعنينا من هما والداه، وكان يعرف أنه إذا أخبرك فلن يعود إلى هنا مرة أخرى، وقد لا يراني مرّة ثانية، وهو يريد ذلك، ومن يلومه لمحاولته، بأي وسيلة، أن يكون بجانبي، بجانب الفتاة التي يحب. «كل شيء مصرح به في الحب والحرب» لقد سمعتك تقول هذا مراراً يا أبي، وأنت كنت ستقوم بالمثل، وأي رجل كان سيقوم بمثل ما قام به.

- وأي رجل يكتشف ما اكتشفته سيقوم بما قمت به، ولإصلاح خطئي فسأطرده من بيتي ما أن تسمح بذلك قوانين الضيافة.

وتذكر فجأة أنه رجل دين وأضاف: «لن أفعل ذلك من أجل الله. ولكن يجب أن يكون عنده الذوق الكافي لعدم البقاء هنا بعد هذا».

- سيفعل لأنه رجل نبيل، هل رأيت كم أخلاقه رفيعة؟

وقالت مفاخرة: «إن أخلاق ستيفن كأخلاق أبطال الملاحم الرومانية. فهو عندها يتفوق عليهم».

- بإمكان أي شخص أن يكون كما تدعين، إذا عاش في المدينة، وفتح عينيه على جميع الأشياء، وقد يكون اكتسب نبله من مشاهدة المعارض، أو الذهاب إلى المسارح. إنه يذكرني بأسوأ قصة غير لائقة سمعتها في حياتي.

- ما هي هذه القصة؟

- لا، شكراً، لن أخبرك بقصة غير لائقة تحت أي ظرف كان.

قالت ألفريدا بشجاعة وسط تنهداتها التي قطعت تَهَدُّجها: «لو أن والديه عاشا في مكان بعيد في شمال إنجلترا أو شرقها، في أيّ مكان ما عدا هذا فكنت لتأخذ هذا بعين الاعتبار. إن الشخص هو من يصنع نفسه، فهو يصبح ما أعطته إياه مهنته، وليس ما أعطاه إياه أهله المتواضعون، والذي لم تعرفه أن السيد سميث قد وفّر مبلغاً جيداً ووضعه المادي أفضل منا. فكما يقولون لقد درس ابنه مهنة تكلف الكثير، وإنه لذكاء وشرف لستيفن أن يكون أفضل أهله.

- نعم، ليصبح وحش ملك للوحوش ولتعمّ الدنيا الفوضى.

- لقد أهنتني يا أبي. لقد فعلت ذلك. إنه حبيبي ستيفن.

أدار وجهه لها وقال: «هذا غير صحيح، أنت تخلطين احتمالات الحاضر بحقائق المستقبل، ماذا سيكون عليه بما هو الآن، وليس بما ستحققه له مهنته من مستقبل. القضية كالتالي: ابن عامل عندي في الأبرشية، وقد لا يصل إلى نفس درجتي الاجتماعية ، فتى أغرّ لم يتقدم في عمله بعدُ، ويكتسب رزقه منه ويستحق لقبه، وبغض النظر عن وضع أبيه الوضيع، هو يتقدم إلى خطبتك، وأهله يعيشون في نفس البقعة من إنكلترا التي تعيشين فيها، والتي تمثل عالمنا، وستُعرَفين دائماً بزوجة ابن جون سميث البنّاء وليس تحت أي ظرف بزوجة المهندس من لندن، وهذه نقيصة، وليست حقيقة متعادلة، وهذا كلام نهائي فلا أريد سماع المزيد، وبإمكانك أن تناقشي طوال الليل وتقدمي حججك وبراهينك، ولكني سألتزم بموقفي».

سكتت ألفريدا وقد خابت آمالها وأخذت تنظر من النافذة بعينين مغرورقتين بالدموع ووجنتاها مبتلّتان.

- إنني أعتبره تهوراً وأكثر من هذا فإنني أعتبره وقاحة من هيوبي.

وأضاف: «لم أسمع في حياتي من قبل أن يرسل تعريفاً كهذا بمراهق من المنطقة، من الطبيعي أن يتم خداعنا، فأنا لا ألومك الآن أبداً».

ذهب ليبحث عن رسالة هيوبي: «هذا ما قاله: «عزيزي، بالموافقة على طلبك بتاريخ الثامن عشر، فقد رتبت عمل اسكتشات

ودراسة» إلخ إلخ إلخ «إن مساعدي السيد سميث» لقد دعاه بمساعدي، ومن الطبيعي أن أفهم أنه يقصد أن هناك نوعاً ما من الشراكة بينهما، لماذا لم يقل كاتب؟».

- لا يمكن أن يسميه كاتباً لأنهم ببساطة لا يكتبون في هذه المهنة، هكذا قال ستيفن.

وأضافت: «ولهذا فقد استعمل هيوبي الكلمة المناسبة».

- دعيني أتكلم لو سمحتِ: سيغادر مساعدي السيد سميث لندن في قطار الصباح الباكر... شكراً كثيراً لعرضك باستضافته... وبإمكانك أن تضع ثقتك به، وتعتمد على فطنته ونباهته فيما يتعلق بموضوع الكنيسة المعماري. أعيد وأكرر إن هيوبي كان يجدر به أن يكون خجولاً من نفسه لإعطائه هذا الفتى الصغير أكثر من حقه.

جادلت ألفريدا أباها فقالت:

- إن أصحاب الأعمال في لندن لا يعرفون شيئاً عن والدي مَن يعمل لديهم. وعندهم مساعدون يعملون عندهم منذ سنوات ولا يعرفون أماكن سكنهم. إن كل ما يهم رجال لندن هو مقدار الربح الذي يقدمونه للشركة؟ وما الأعمال التي يستطيعون القيام بها؟ ومما زاد من رصيده شخصيته السلسة وأفكاره المنتظمة.

- الشخصية السلسة المنتظمة تعد نقيصة وليس امتيازاً، فهي لا تعطي صاحبها القدرة الكافية على تقييم من هو الجدير بالاحتقار.

- إنها تبين أن الشخص يتصرف بإيمان وليس بالشكل كما تقول أنت دائماً «خلافة بالوراثة».

– على ما أعتقد إن هذا بعض ما كان يقوله لكِ، كان يجدر بي أن أشك فيه فهو لم يكن يهتم بالصلصات بأي حال، فأنا دائماً ما شككت في أن الشخص من غير طبقة النبلاء هو الذي لا يهتم بالنكهات والصلصات. إن صحناً كهذا دليل على مُحْدَثي النعمة ويا لفكرة إحضار المارتيني 40 لرجل يجهل ماهيته! ولا يعرف الفرق بينها وبين الزجاجة ذات الثمانية عشر بنساً، ولم يبق منه سوى إحدى عشرة زجاجة. وشطر الشِّعْر اللاتيني الذي أكمله كان جافاً وحاداً وأنا الذي لم أتابع الأدب الكلاسيكي منذ 18 عاماً لم أكن لأتذكره.

– من الأفضل أن تذهبي إلى غرفتك ومع الأيام فستنسين هذا الأمر برمته.

– لا لا يا أبي، أرجوك لأجل الرحمة المتعلقة بالحب البائس، فإن أكثر الأمور قسوة أن تعتقد أن عاطفة كهذه يمكن أن تنتهي بسهولة.

قال والدها بلهجة جافة غير ودود: «إن عندي مشروعاً لا أستطيع إخبارك به حالياً. خطة ستدرّ النفع عليّ وعليك وكانت تحوم حولي من فترة، ولم أكن أحلم بفوائدها إلا مساء اليوم عندما ظهرت الحقيقة. وسأكون غير حكيم إذا أضعتها».

– لا أحب كلمة مشروع، لقد فقدتَ يا أبي الكثير بسبب هذه المشاريع. ما هو المشروع هذه المرة؟ هل هو منجم؟

– لا، ليس مشروع مناجم.

– سكك حديد؟

- ولا سكك حديد. إنه أحد العروض الغامضة التي نرى إعلاناتها، ويكون الرجل مجنوناً إذا لم يغتنمه سريعاً، وعلى أي حال فأنا لا أنوي أن أتحدث به حتى ينضج تماماً. ولكن بوسعي القول إنك ستتمكنين من قلي سمكة أخرى بدل ستيفن هذا. تذكري فأنا أفضِّل أن أكون لطيفاً معه لا عنيفاً فهو صديق بمعنى معين. ولكن هذا يكفي، بعد بضعة أيام ستفكرين بطريقتي. اذهبي إلى غرفتك وستحضر لك يونتي العشاء، ولا أريدك هنا حين عودته.

* * *

10

ملجأ تحت شجرة هرمة

مكتبة
t.me/soramnqraa

تتبع ستيفن خطواته إلى الكوخ الذي زاره منذ ساعة أو ساعتين، ماراً تحت أكثر الأشجار غزارة على مشارف قرية أندلستو، وكانت قطع من ضوء القمر تتسابق إلى الانعكاس على رأسه وظهره. وعندما وصل الجسر، ودخل بوابة الحديقة شاهد خيالاً يقترب من الجهة المقابلة إنه والده، كانت يده مغطّاة بضمادة، وكان يتفقد الحديقة تحت ضوء القمر، وخصوصاً نبات اللفت، تحضيراً لإغلاق باب البيت عندما ظهر ستيفن. فقد حيّاه بتعابير وجهه المعتادة، قائلاً: «أهلاً ستيفن، من المفروض أن نكون في الفراش منذ عشر دقائق، أعتقد أنك جئت لتعرف ما حصل معي، يا بني؟ لقد قال الطبيب بعد عدة معاينات إن الإصابة طفيفة، وقد كان من الممكن اعتبارها إصابة خطيرة لو كان السيد سميث رجلاً مهماً».
دخل الرجلان البيت.

جون سميث رجل ذو بشرة بنية كالخريف، وملابس بيضاء كالشتاء، وكان نموذج العامل الحِرَفيّ الماهر في القرية، بشكل عام

وبكل ميكانيكية الريف إلا أنه يتفرد بكونه عاملاً نموذجياً، وهذا النموذج المستنزف على أحجار الشاطئ ، يستحق أن يكون في المدن الكبيرة.

وللدقة، فهو لم يكن عامل بناء عادي ، ما كان يميزه عن عُمّال المدن الكبرى هو عدم الاختصاص، فهو لم يكن يتوانى عن العمل بالطوب إذا ما كان هو المطلوب في ذاك اليوم، أو يقوم بوضع القرميد أو الطوب للأسطح قبل الشتاء، ولم يكن هناك من يوازيه أو يتفوق عليه. وقد حدث في عمق الشتاء وفي أثناء الصقيع وعندما تمنع البرودةُ المجرفةَ عن العمل، مرة أو مرتين حدث أنه عمل على رص الحجارة من التطاير والطين من التكاثف. وقد عمل في التحطيب وقص الأشجار بالإضافة إلى ممارسة الزراعة في قطعة أرضه سنوات عديدة مما مكنه من الاعتماد عليها في الأيام الصعبة.

من الممكن أن رجلنا لم يكن ذا اختصاص محدد كزملائه في المدينة، بل كان كالأحمق صانع المسامير الذي صنع المسمار كاملاً. كان نموذج العامل الذي يحتقره آدم سميث ويقدره ماكولي.

كانت قوته البدنية واضحة للعيان، ولحيته المعقودة تشبه لحية هرقل، وأكمام قميصه مرفوعة إلى الأعلى، ومعطفه مفتوح، والتباين في اللون بين القماش الأبيض، واليد المحمرة، كالفرق في اللون بين بياض البيضة ومحاحها، هذا كله كان واضحاً تحت ضوء الشموع.

دخلت السيدة سميث ما أن سمعتهما من الشرفة، كانت سيدة تحس بوقارها بعقلك وليس بعينك، وهي امرأة استعادت حيويتها في خريف عمرها، ولكن ملامحها توحي أنها امرأة عندها وجهة نظر تجاه العالم برمته.

استعيدت تفاصيل الحادث، وكانت قريبة من رواية مارتن كانستر، وأضيفت إليها ردة فعل الجيران والقرويين وأهل المنطقة، إلى أن أدار ستيفن الحديث إلى جهة أخرى.

قال بهدوء: «لقد باتوا يعرفون كل شيء بشأني الآن، يا أمي».

أضاف الشاب: «إني ألوم نفسي كثيراً، ما كان يجدر بي إخفاء الأمر».

قالت السيدة سميث، وقد حررت عقلها من الفكرة السابقة: «لا داعي إلى لَوْم نفسك يا ولدي، فالناس في بداية تعارفهم لا يخبر بعضهم بعضاً بتفاصيل حياتهم».

قال الأب: «إنك بالتأكيد لم تقم بأي خطأ».

- كان عليَّ أن أخبرهم في وقت أبكر، وأنا هنا في هذه الزيارة لأمور لا تعرفونها، وقد تكون صفقة مربحة.

قالت السيدة سميث وهي تتأمل ستيفن: «لأمور لا أعرفها...!» فاحمرّ ستيفن خجلاً.

أضافت السيدة سميث: «إنها فتاة جميلة جداً، وراقية، وذكية أيضاً، وإنها مناسبة لك تماماً، ولماذا -وليرحمني ربي- تريد أن تتزوج الآن؟؟».

قال ستيفن وقد تجعدت جبهته: «تجري الرياح بما لا تشتهي السفن أحياناً».

قال ستيفن متوجهاً بالحديث إلى أمه: «يا للسخافة، كيف لي أن أناقش إن كانت مناسبة أو غير مناسبة، وكأنَّ هناك مجالاً للشك،

فزواجي منها سيكون نعمة كبيرة، وهو ذو فوائد عظيمة سواء كانت اجتماعية أم عملية، سيطول نواحي عديدة في حياتي. وهذا نعمة من الله، إنها بعيدة عن متناولي وأعلى مني اجتماعياً وعائلتها لا تريد فتىً قروياً فقيراً مثلي».

- إذا كانوا لا يريدونك بينهم، فأتمنى لهم الموت وأن أرى جُثَثَهم، ولنذهب إلى عائلات تريدنا بينهم.

- ولكني لن أتمكن من اللحاق بالمسافة التي ستسمح لهم بقبولي بينهم، وقد أُحِسّ بالفرق بين أناس من طبقتها.

قالت أمه: «أي تخاريف أخرى ستفكر فيها أيضاً تعال إلى هنا، إنها ليست أعلى منك اجتماعياً، وأنت لست بأقل منها. وانظرْ كم أنا حريصة على مكانتي وعدم المساس بها، فأنا لم أتوقف أكثر من دقيقة للتحدث مع العاملين، ولم أقم بدعوة أحد لا علاقة لنا بهم إلى الاحتفال بعيد الميلاد، وكثيراً ما أتحدث إلى الطبقة الراقية التي تأتي إلى بيت سيدتي دون أن أستخدم لقب سيدتي أو سيدي ويقبلون بهذا كالخراف».

- ولكنك جاملت القسيس يا أمي، وكم تمنيت لو أنك لم تفعلي.

- ولكن هذا كان قبل أن يناديني باسمي المجرد، وإلا لحصل على القليل من المجاملة.

وأضافت بانفعال: «ما بالك تهاجمني يا ستيفن، وكأنني عدوّك. ماذا كان بإمكاني أن أفعل لأتخلص منه، وهو يتبجح طوال الوقت بعظمته، وبماذا حدث له عندما كان شاباً، في الكلية، ولم أكن

أرى سوى لسانه وهو يدخل فمه ويخرج منه كفوطة الممسحة القذرة في الملبنة، أليس كذلك يا جون؟».

أجاب الزوج: «تقريباً بنفس الحجم».

وأضافت الأم: «إن كل امرأة تتزوج في هذه الأيام، تتوقع أن يكون حموها ذا منزلة اجتماعية أقلّ من والدها، فالرجال قد تقدموا والنساء ما زلن ثابتات في أماكنهن، فكل رجل تقابله أعلى منزلة من والده، وأنت كذلك فقد رفعت منزلتنا، وأصبحت موازياً لها».

- إنها تعتقد هذا أيضاً.

- إنها تظهر تعقلها وأنا أعرف أنها كانت تحوم حولك.

- تحوم حولي! يا الله وماذا بعد؟

- بالفعل لا أعرف سبب استعجالك، ليتك تنتظر بضع سنين لترتقي في السلم الاجتماعي، وتتزوّج أفضل من ابنة المفلس هذا.

قال ستيفن بقليل من الصبر: «في الحقيقة يا أمي، أنت لا تعلمين شيئاً بشأن هذا الأمر، فأنا لن أرتقي في السلم الاجتماعي، لأني لا أريد ذلك مهما انتظرت حتى بعد مئة عام. أما قولك إنها تحوم حولي فأنا لم أحب هذه الملاحظة بشأنها، فهذا يعني أنها امرأة ماكرة، وأن الرجل يستحق أن تمكر المرأة لأجله، وهذا غير ملحوظ في هذه الحالة، أليس كذلك يا أبي؟؟».

أجاب الأب بصوت كصوت الثعلب المصاب بالزكام ولا يستطيع أن يشتمّ أي رائحة: «أعتقد أنني لم أفهم الموضوع جيداً لإبداء رأيي؟».

– لا أعتقد أنك أخذت الوقت الكافي لتعرفها حق المعرفة، نظراً إلى الفترة القصيرة التي تعارفتما فيها. وأنا ما زلت مصرة على أنك ما زلت صغيراً، وما زال الوقت مبكراً للزواج، وأن عليك الانتظار خمس سنين لتقوم بهذه الخطوة، وأنا متأكدة أنها ستنتظرك، كن واثقاً بهذا. ونظراً لأنها تعيش في هذا المكان المنعزل فعليها أن تكون شاكرة لربها، لأنك لاحظتها، فلو لم تُظهِر اهتمامك بها فمن المحتمل أن تموت عانساً كبيرة السن.

قال ستيفن بصوت منخفض: «هذا كله هراء».

أضافت الأم بصوت خفيض: «إنها كائن لطيف، لا يمكننا أن نقول كلمة ضدها، أراها في بعض الأحيان معتدة بنفسها كالحصان، وأعجب فيها لهذا، فهي سيدة صغيرة كاملة. ولكن الناس لا يمنعون أنفسهم من التفكير، لو أنها تعلمت في المدرسة كيف تعمل الأرقام بدل الرسائل لكان أجدى لجيبها فهي تمر حالياً بأسوأ الأوقات».

قال ستيفن مع ابتسامة خفيفة: «مهلاً مهلاً يا أمي».

قالت الأم متنهدة: «إنني أعرف الكثير فأنا أقرأ الصحف دائماً، وأعرف أن الرجال يرتقون اجتماعياً بطريق الزواج، فرجال الدين والكهنة من طبقتها، يتزوجون بنات الإقطاعيين، والإقطاعيون يتزوجون بنات اللوردات، واللوردات يتزوجون بنات الدوقات، والدوقات يتزوجون بنات الملكات، كل طبقة تتزوج من الطبقة الأعلى اجتماعياً. والرجال الأقلّ مرتبة، لا يتزوجون من نفس طبقتهم وقد يتزوّجون».

ستيفن: «ولكنك قلت سابقاً يا أمي...» ولكنه لم يكمل لأنه أدرك أنه غير قادر على إقناعها.

الأم: «ماذا قلت سابقا؟» وهي تحضر فمها لهجوم كاسح.

نَدِم ستيفن لأنه فتح الموضوع ولكنه عرف ألّا مجال للتراجع فقال: «ولكنك قلت قبل قليل إنها ليست أفضل مني اجتماعياً».

- هذا هو الكلام، هذا هو ابني بلحمه ودمه، وليس ذاك الذي يعترض على كل ما تقوله أمه، فأنت بهذا تشبه أباك، الذي ينحاز إلى الجميع سواي، وأنا أتحدث وأناقش وأتعب، كل هذا لمصلحتك، وأنت تقف لي بالمرصاد. نعم إنك من طبقتها، لا تكن مشاكساً، ولكن ماذا ستكون ردة فعل أهلها عند الزواج من خارج طبقتها الاجتماعية.

أخلد ستيفن إلى الصمت، وكان كأنه يقلد والده، ولم يكن يسمع سوى دقات الساعة الخضراء المعلقة على الجدار.

أضافت السيدة سميث بطريقة فلسفية: «كان من الصعب العثور على أزواج في أيامي، فكيف في هذه الأيام».

أُقفِل النقاش، ودّع ستيفن والديه، ودّع أمه بحرارة قليلة فهو لم يكن على وفاق دائم معها. وقال: «قد أغادر إلى لندن».

- ألم تأتِ لتمضية الأسبوع؟ أليست عطلتك شهراً؟ سيقومون بتمزيقك.

- لا أبداً قد أبقى فترة أطول، وقد أغادر، إذا غادرت فمن الأفضل ألّا تخبروا أحداً بأنّ هذه الزيارة كانت لأجلها. في أي وقت تمر العربة صباحاً من قرية أندلستو؟

- السابعة صباحاً.

وغادر، وهو مستغرق في الأفكار، هل سيوافق الكاهن على الخطبة. إنه يتمنى أن تتم خطبته. وعند التفكير في حبيبته ألفريدا، فهو يتمنى أن يبقى فترة أطول، هل من الممنوع عليه أن يفكر بهذه الطريقة. وعزم على الذهاب فوراً، بدا هذا الخيار مناسباً إلى شاب مفعم بالأمل.

عاد إلى الأبرشية خلال الحقول كما جاء، محاطاً بأصوات جداول المياه الموسيقية، وأشعةُ القمر المتواضعة تنير الطريق بضوء ضئيل، وعبق الندى يملأ المكان، كان وقتاً مناسباً للتأمل بسلام. لم يكن ستيفن بفيلسوف إلى درجة كافية ليستفيد من الظروف، إن دستوره يتكون من أمور بسيطة. كان واحداً من القلائل الذين يشبهون الحضارات في ربيعها وكان كأنه ينمو بغزار أمّة تشيخ، وتضمحل فرديتها، وينتشر التعليم. دماغه عنده قدرات تقبلية، ليس عنده إبداع أو ابتكار، يكتسب أيّ نوع من المعلومات التي يراها حوله بسرعة وسهولة، عنده القدرة على التكيف الحاضر عند النساء أكثر من الرجال، له قدرة الحرباء على تغيير لونه حسب الطبقة الاجتماعية التي يجد نفسه فيها. لم تكن عنده أفكار خلاقة، وأحياناً نادرة تكون عنده فكرة نتيجة التدريب الجيد ولكنه لم يكن يستطيع إخراجها بشكل منظم ومتسق.

لم يسكنه سوى القلق العميق الذي يضرب حتى النخاع. ومع هذا فالمراقب الموضوعي كان يستطيع أن يرى أن تعلقه بألفريدا غير ناضج، وبعيد عن سخافة الزواج. دخل ستيفن البيت عند الساعة العاشرة وكانت ألفريدا في انتظاره.

جلس مع والدها في المكتبة، فور وصوله وقبل أن تتمكن من رؤيته وبهذا يكون قد حقق حلمه باجتماع خاص.

في أثناء جلوس ستيفن مع والدها أصابها صداع شديد، ولم يكن بإمكانها أن تفعل شيئاً سوى الذهاب إلى غرفتها، فجلست في العتمة تعاني من الصداع، وتركت الباب مفتوحاً لتسمع كل الأصوات الصادرة من الطابق السفلي، ولم تكن تسمع سوى دقات قلبها، وكانت الخادمة قد أوت إلى فراشها.

وفجأة سمعت الرجلين يتوجهان من المكتبة إلى غرفة الطعام، حيث كان الطعام بانتظارهما منذ ما يزيد عن الساعة، وتناولا الطعام دون أي ملاحظات. وبدا واضحاً التوتر والطريقة الرسمية التي تنبئ بأمر سلبي بينهما.

صعد ستيفن إلى غرفته وتبعه أبوها، غيَّرت ثيابها وجلست على السرير نصف عارية، وبقيت في صمت بعض الوقت.

مر ما يقارب الساعة على جلستها تلك، وما أن نهضت لإغلاق الباب حتى شاهدت ضوءاً خافتاً، لم يكن من غرفة والدها إذ كان بابها مغلقاً، ويغط في نوم عميق وشخيره يملأ البيت، كان من غرفة ستيفن، وسمعت بعض الأصوات الصادرة من غرفته أيضاً، كصوت إغلاق صندوق، وقعقعة قفل صندوق القبعة ثم صوت أحزمة تشد وصوت مفتاح آخر، مما يعني أنه يجهز حقيبة السفر. بيد مرتعشة فتحت باب غرفتها، يجتاحها شعور بالدمار، فهذا ستيفن حبيبها الشاب الوسيم سيرحل، وقد لا تراه مرّة ثانية، إلا بالسر وبالحزن.

لم تعد تطيق الانتظار إلى الصباح لتعرف ما حصل، لبست رداء نومها، وأحكمته حول جسدها وطرقت باب غرفته بخفة، وهمست «ستيفن»، فَتَحَ الباب.

قالت: «هل هناك أمل؟».

أجابها بهمس مضطرب وعينان مغرورقتان بالدموع: «لقد قال إنه غير مستعد لأمر مستحيل كهذا. وسأغادر في الصباح الباكر وكان عليّ أن أودعك من قبل».

- ولكنه لم يقل إن عليك الذهاب؟ لم يقل هذا؟

- ليس بالحرف، ولكن عليّ أن أغادر.

- لا تذهب. لا تذهب! لنتحدث قليلاً، هيا بنا ننزل إلى المكتبة، هنا سيسمعنا.

سبقته إلى الدرج تحمل شمعة بيدها وبدت بثياب نومها ذات طول ونحافة غير طبيعية، لم تتوقف لتفكر في تبعات لقاء منتصف الليل في هذه الظروف.. اعتقدت أن مأساة حياتها قد بدأت، وأن وجودها بات مهدداً، فتحت باب غرفة المكتبة برفق ودخل كلاهما، عندما وضعت الشمعة على الطاولة احتواها بذراعيه ومسح دموعها بمنديله وقبّل جفونها.

- لقد انتهى يا ستيفن، الحب السعيد انتهى، وانتهى معه نور الشمس.

- سأكوِّن ثروة، وأعود من أجلك، وأتزوجك، هذا ما سيكون.

- يجب ألا يعرف أبي عن هذا، أبداً أبداً. فأنت لا تعرفه، فإما أن يكون متسامحاً وليِّناً في أمر ما أو متعصباً ومتحفظاً في أمر آخر. ويكون النقاش بدون فائدة في كلا الحالتين.

- لا أريد أن أفكر فيه بهذه الطريقة، إذا عدت بصفة رجل ذي مركز مرموق بعد مدة من الزمن، فسيقبل بي إنه ليس رجلاً شريراً.

- لا، إنه ليس رجلاً شريراً. ولكنك قلت بعد فترة، وكأنَّ الوقت قصير!، قد يكون قصيراً لك في حياة الصخب والانشغال التي تعيشها، ولكنه سيكون طويلاً جداً بالنسبة إليّ. كل صيف بسنة! الخريف سنة، والشتاء سنة. وقد تنساني.

- أنساكِ، هذا مستحيل.

وهنا ثارت مخاوف ستيفن وقال: «أنت قد يقنعونك بالتخلّي عني، عندما تخبو الذكريات ويخفت الحنين، تذكري أن حبنا يجب أن يكبر بالسر، لن تكون هناك زيارات وستتعرض لصعوبات، وستعاندنا الظروف دائماً».

قالت وهي مجروحة من كلماته الأخيرة: «إن هناك العديد من الفتيات الجميلات حيث تعيش، إني أعرف هذا، وقد يأخذنك مني»، وانهمرت دموعها لمجرد التفكير في عدم وفائه وخيانته: «هذا ليس ذنبك»، قالت وهي تنظر إلى الشمعة: «قد تعتقد أن عائلتي لا تريدك، وتظن أنهم أثروا فيّ مما يولد فراغاً في قلبك قد تحتله امرأة أخرى».

- لا يمكن، مستحيل، أرجوك لا تتحدثي بكل هذه السلبية.

- إن هذا ما سيحدث، ستنظر إليهن بعدم اهتمام في البداية، ثم ستنظر إليهن باهتمام، وبعدها ستقول، إنهنّ يعرفن كل شيء عن حياة المدينة والمجالس، والحفلات، والإتيكيت أما المسكينة ألفريدا، فمع كل الضجيج والمشاكل التي أقيمت حول علاقتنا، فهي لا تعرف شيئاً سوى البيت الصغير، والتلال، والبحر البعيد. وستهتم بهنّ، وتحبهنّ وتتركني عمداً بكل قسوة، لأنني بسيطة وسخيفة، وهنّ ذكيات ويكرهْنني، وأنا أيضاً أكرههنّ، نعم إنني أكرههنّ.

كان لكلماتها وقع شديد عليه، فهي لا تثق به واعتراه شعور بالأسى، الناتج عن خصوصية الوضع.

هل يوافق السيد سوانكورت على خطبة قد تمتد عشر سنوات، لا مانع عندهم من الانتظار فهذا سيكون خطوة أولى في حديقة كيوبيد، إنهم لم يبدؤوا بعد ومن المؤكد أن السيد ستيفن سيرفض هذا الأمر جملةً وتفصيلاً.

قال ستيفن بحزن لاستحالة تحقيق ارتباطهم: «أتمنى أن نتزوج الآن!».

أجابت وكأنها في حلم جميل: «وأنا أيضاً وهذا ما سيسعد قلب المحبين».

- سنتزوج بالسر.

- نعم إن هذا أفضل، وبهذا فلن يقف شيء في طريق سعادتنا، فلنتزوج الآن ولا داعي إلى الانتظار حتى تتحسن الظروف.

- بالضبط، لنتزوج ونعيش كما نحن الآن، وبهذا نمنع أيّ شخص من أن يفرقني عنك يا حبيبتي.

- أو عنك يا حبيبي، من الممكن أن تحدث ظروف تضطر المرأة إلى الزواج على الرغم منها. ولكن لا قوة في العالم مهما كانت تفرض على المرأة المتزوجة أن تتزوج مرة أخرى.

إن فكرة الزواج السري كانت بالنسبة إليهما نظرية عاطفية للسيطرة على لحظة اليأس. بعد ملاحظة ستيفن الأخيرة، لمح في ذهنيهما اعتقاد ماكر وهو أن الزواج السريع قد يكون شيئاً رائعاً، وأن جمالية هذا العمل على الرغم من جراءته ووقاحته ونتائجه غير المعروفة، قد تكون أفضل لكليهما من الحياة التي قد يعيشها أحدهما وحده تحت أي ظرف.

تكلم الفتى أولاً وقد تهدج صوته من الانفعال: «كم سنكون أقوياء يا ألفريدا ونحن نعيش مساراتنا المنفصلة كما قبل، دون الخوف من الانفصال تحت أي ظرف. فكري في هذا؟».

من المؤكد أن حب الفتاة لستيفن قد ازداد وتعمق بمعارضة والدها له، وكان من الممكن أن يكون أقل حرارة ووهجاً، بعشرات المرات لو أنه تُرِكَ دون تدخلات. ولكن الظروف كانت السبب الرئيسي في تطور حبها الأول، حب المراهقة لشاب وسيم ذي ملامح صبيانية، حب صبياني جذوره ضاربة في السذاجة، ومغذّى بالعزلة والغربة، في عالم متوحش بري لا يتحمس لأي أمر. إن كل علامات الدمار كانت واضحة وحاضرة، وأهمها اليأس، وهو مكوِّن أساسي ومثالي، في مزيج المشاعر هذا، تحت مسمى الحب إلى حد الدمار.

- سنخبر والدي سريعاً. أليس كذلك؟

- لا داعي لأن يعرف أحد آخر، سيقتنع عندئذٍ أنه لا يمكن العبث بالقلوب. وأن الحب في حال تشجيعه سينمو، وفي حال إهماله سيذوي.

- هل تعتقد يا ستيفن أن الزواج دون موافقة الأهل من الممكن تبريره؟ فكما ترى كان والدي داعماً للفكرة وفجأة سحب دعمه.

- نعم، فنحن من البداية لم نتصرف ضد إرادة والدك، أتذكرين كم كان لطيفاً معي، فقبل ست ساعات، كان يحبني ويمدحني، ولم يعترض أبداً على جلوسي معك وحدنا.

- أعتقد أنه سيحبك الآن حال معرفته أنك لي، وسيساعدك.

وانفجرت مرة أخرى حال تذكرها رحيله: «ستيفن، لا أحتمل رحيلك هكذا، إنه لأمر بغيض، كل أمنياتي وآمالي قد اغتيلت هكذا بكل بساطة».

قال ستيفن بحماس وحرارة: «لن أكون مثار شك لك، وأنت لن تكوني سبب بؤسي. سنكون زوجاً وزوجة قبل أن نفترق وقتاً طويلاً!».

خبأت رأسها في كتفه وهمست: «هل أنت متأكد؟».

- لم أحب أن أتقدم إليك في الحال، ولكن بدا لي، بدا لي الآن، كأنني أحاول اللحاق بك، فأنت أفضل مني اجتماعياً في هذا العالم.

- وما الفائدة ليتني لم أكن كذلك، قد كنا شيئاً ما في الماضي أما الآن فنحن لا شيء.

اقترح ستيفن الخطط المحتملة بتردد، وراجعتها ألفريدا بأنفاس سريعة، وعيون محمرة ولامعة، وكانت الساعة قد قاربت الثانية عندما توصلا إلى اتفاق.

طلبت منه أن يتركها، وأعطته الضوء الأخضر للذهاب إلى غرفته، وغادر على أن يلتقيا في الصباح. وبعد أن أغلق بابه، سمعها تدخل غرفتها بكل هدوء.

* * *

11

نهاية الرحلات في لقاء المحبين

استلقى ستيفن يراقب نجم الدب الأكبر، من النافذة ذات الستائر المتوازية الأضلاع المملة. لم يغمض لأي منهما جفن تلك الليلة.

في الصباح الباكر، بعد أربع ساعات من اللحظات المسروقة التي قضاها مع ألفريدا وفي نفس الوقت الذي استيقظ فيه أول الخدم، هبط ستيفن السلالم وحقيبة سفره بيده. كان يريد أن يرى السيد سوانكورت، ولكن ما حصل مساء أمس من الرفض القاطع، جعل اللقاء لا طعم له. ترك ملاحظة في غرفته، تقول إنه لم يشعر بالراحة في البيت، وذلك لأن السيد سوانكورت قد رفض بشكل مفاجئ الأمر الذي كان يشجعه من قبل. ولكنه يرجو أن يأتي وقت تعود فيه مشاعر البهجة والسرور.

كان أحد الصباحات الباردة التي تفتقر إلى الشمس. كان في غرفة الطعام بقايا طعام الإفطار مما يعني أن هناك من استيقظ قبله وتناول إفطاره.

ودّع ستيفن الخادمة، وأخبرته أن السيد سوانكورت قد استيقظ باكراً وتناول إفطاره، وخرج إلى مكان لا تعلمه. تناول ستيفن فنجان قهوة، وغادر بيت حبيبته متجهاً إلى الحقول، كان الوقت مبكراً جداً حتى إنك تشم رائحة الظلام تفوح من الأماكن. كان الممر الذي يقود إلى الطريق العام في منطقة لا تبعد أكثر من عشرة ياردات عن بيت القسيس، وصل ستيفن إلى التقاطع ووقف ساكناً. لم يكن بالإمكان سماع شيء سوى صوت البحر من بعيد. نظر إلى ساعته، وجلس على البوابة بانتظار وصول العربة. وفي أثناء جلوسه سمع صوت عجلات عربتين من اتجاهين مختلفين، وقد ميز العربة القادمة عن يمينه بأنها عربته فقد كان صوت سائق العربة يشجع خيولها صعود الجبل، وقرقعة الصوت في يديه يجلجل في هواء الصباح الصامت. أما صوت العجلات الأخرى فقد كان صادراً من الطريق الذي قطعه تواً، وعندما دقق النظر لاحظ حركة على مشارف بيت المزرعة القديمة القريبة من بيت القسيس وبعد ذلك تركت العربة بوابة البيت الرئيسية وأصبحت في مجال الرؤية، كانت عربة سفر بسيطة، محملة بكمية قليلة من الحقائب، ومن الواضح أنها حقائب سيدة، وصلت التقاطع، قبل عربة ستيفن بأربع دقائق ومرّت من أمامه مباشرة.

استطاع ستيفن أن يرى في داخل العربة امرأة متقدمة في السن، تصحبها أخرى شابة من الواضح أنها خادمتها. واتجهوا إلى منطقة ستارت لايت، وهي منطقة مائية صغيرة، تبعد ستين ميلاً شمالاً.

سمع صوت صرير بوابة المزرعة، وعندما دقق النظر وجد أن شخصاً آخر قد غادر العربة، واتجه إلى بيت القسيس، وكم تمنى أن

يتجه إلى نفس المكان، كان الرجل طويلاً، وهيئته تشبه هيئة السيد سوانكورت، فتح الباب ودلف إلى الداخل، من المؤكد أنه السيد سوانكورت. فبدلاً من البقاء في فراشه، قرر أن يرى جيرانه الجدد في هذه الرحلة الصباحية. لا بد أنه مهتم كثيراً بهذه الجارة وإلا ما قام بهذه الرحلة.

وصلت عربة النقل، وسلّم ستيفن حقيبته إلى الحوذي، وصعد، وهو يسأل السائق ليكبان عن المرأة في العربة.

- إنها السيدة ترويتون، أرملة غنية، إنها المالك للأراضي المتبقية من المنطقة التي لا يملكها لورد لوكسليان، إنها هنا منذ فترة قصيرة وقد آلت إليها بفعل القانون. إن المالك السابق كان رجلاً غامضاً سيئاً، لم يكن يتواجد إلا في شهر أيلول (سبتمبر) على ما أعتقد.

تابعت العربة طريقها، وزحف ستيفن إلى الداخل وسرعان ما غاب في أفكاره. ثلاث ساعات ونصف الساعة من صعود الجبال وهبوط المنحدرات، أوصلتهم إلى بلدة سانتلونس، حيث السوق ومحطة سكة الحديد، بالقرب من أندلستو، إنه المكان الذي انطلق منه سميث منذ عام. كان الحوذي فان حريصاً على أن يصل في الوقت المحدد لمغادرة قطار الصباح الباكر، الذي ركبه ستيفن، بعد ساعتين أو ثلاث من صعود صخور ميتامورفك مروراً بغابات البلوط الغنية الخضراء الممتدة خلال الوديان والمنحدرات المبهجة، التي تتلألأ بمياه الجداول الصغيرة. إن عدد سكان هذه المدينة بلايموث يزيد عن مائة وخمسين ألف شخص.

مرّ بعض الوقت، ترك حقيبته في غرفة المعاطف، وانطلق إلى شارع بدفورد إلى أقرب كنيسة مشياً على الأقدام، وهنا تجول ستيفن بين أحجار القبور المتنوعة، ونظر إلى شباك مذبح الكنيسة، وهو يمنِّي نفسه بأمر من الممكن حدوثه بعد شهر من الآن.

ابتعد قليلاً ووقف يشاهد امتداد البحر الرائع ونتوءات الأرض العظيمة بحيادية تامة، وما زال يرى بمنظوره الداخلي الأحداث التي تمناها في الكنيسة البعيدة الأصوات الكثيرة، ومصدات الأمواج، والمنارة البعيدة، والسفن البخارية السوداء، والسفن الشراعية، والقوارب التي تطفو بثبات أو التي تنزلق بحركة متسقة. كانت الصور أقرب إلى الحقيقة منها إلى الأحلام. عاد إلى الواقع واتجه إلى محطة سكة الحديد، وأخذ تذكرته ودخل إلى قطار لندن.

كان نهاراً شاقاً في بيت أندلستو، فلا الأب أو البنت ذكر رحيل ستيفن. إن طريقة السيد سوانكورت بالتعامل معها كانت شعوراً بالرقة المفعمة بالندم، التي كانت بادية للعيان ممزوجة بعدم المغفرة والظلم على أحداث سابقة. إن النساء بالمعنى السلبي، أكثر هدوءاً من الرجال في المواقف الحرجة، ومن المحتمل أن حالة ألفريدا، وما يعتري مستقبلها من غموض والخطط التي تحضّرها لنفسها، قد أعطتها القدرة على سؤال والدها، بصوت منخفض إمكانية السماح لها بعطلة مبكرة للذهاب إلى سانتلونس ومن ثم إلى بلايموث.

لم تذهب إلى بلايموث وحدها إلا مرة واحدة، وقد كانت رحلة شاقة، ولكونها فتاة ريفية، تجيد ركوب الخيل، فقد امتطت مهرتها، وقطعت المسافة الشاقة، التي تبلغ حوالي ستين ميلاً أو سبعين

ما بين بيتهم وبين سانتلونس دون مرافق. وقد كان عليها إيجاد مأوى للحصان، ومن ثم ركوب القطار وإكمال بقية الرحلة، وعادت بنفس الطريقة مساء. ولم يكن بالإمكان معاودة الكرَّة دون مرافق.

إن ألفريدا لا تشعر بالحرج أبداً من مهارتها في ركوب الخيل، بل تعتبره أمراً طبيعياً تماماً، فظروفها الشخصية من الوحدة والحياة المقيَّدة كان يحتم عليها كثيراً التحرك وحدها في المنطقة. أما السيد سوانكورت فلم يكن سعيداً بهذه المهارة، فكانت كثيرة التجول بين التلال كابنة فلاح فقير، ولكنه تغاضى عن الأمر بسبب عدم مقدرته على توفير مرافق لها، وكعادته في النأي بالنفس عن الأمور الشائكة، فقد أصبح ركوبها للخيل عادة، وأصبح في وعي القرويين أن ركوب السيدة للخيل دون مرافق هو العُرْف، وكانت هي مثالهم، ومن تركب بمساعدة مرافق يكون ذلك مخالفاً للعرف وللإتيكيت. وما كانت تقوم به بعض السيدات الزائرات من اعتمادهن على المرافق هو المخالف للأعراف.

- لا أفضِّل ذهابك إلى بلايموث وحدك، وخصوصاً ذهابك إلى سانتلونس على ظهر الخيل، لماذا لا تذهبي بالعربة ويسوقها الرجل؟

- ليس من الجيد أن يكون الإنسان متسامحاً إلى هذه الدرجة!

إن رفقة وارم لم تكن لتؤثر على خطتها ولكنها كانت تريد السفر وحدها.

- متى تريدين المغادرة؟

- قريباً.

- حسناً سأفكر في الأمر.

ولم تمض بضعة أيام حتى أعادت طلبها بالذهاب، فقد وصلتها رسالة من ستيفن حسب الاتفاق السابق بينهما، يحدد لها الوقت الذي سيقابلها فيه في بلايموث. وقد تصادف هذا مع عودة والدها من رحلته إلى ستارتلايت وكان مزاجه جيداً، وروحه مرحة على غير العادة، وقد كانت فرصة جيدة، فقد أحس والدها أن لا بأس بتقديم بعض التنازلات الصغيرة وخصوصاً بعد طرد ستيفن وتحطيم ما أسمته حبّها الأول.

- إنني سأغادر البيت الخميس القادم، في الواقع الليلة التي تسبق الخميس، فبإمكانك أن تختاري نفس اليوم للذهاب إلى بلايموث وتختاري ما تشائين من وسيلة للذهاب، ولكني لا أفضل أن تتجولي وحدك على ظهر الخيل، ولكن اذهبي إذا شئت.

الخميس القادم إنه نفس الوقت الذي اختاره ستيفن في الرسالة، أي بعد خمسة عشر يوماً، من مغادرة ستيفن لأندلستو، إن هذه الجزئية من الزمن (خمسة عشر يوماً) اكتسبت خصوصية رائعة لارتباطها بقانون الزواج الإنكليزي.

نظرت إلى والدها بغرابة، وعندما أحس بنظراتها شعرت بالحرج، فما الذي كان يدور في خلده؟

لا بد أن هناك تسهيلات تقدمها لها قوة خارجية، حيث سيغادر السيد سوانكورت البيت في اليوم المحدد للقاء ستيفن، وهو الذي نادراً ما يسافر في رحلات طويلة، أو ينام خارج البيت إلا في أحايين قليلة تتعلق بقداس في أماكن بعيدة. حسناً إنها لن تستفسر

كثيراً ويبدو أنه هو أيضاً لن يستعلم عن رحلتها. في الواقع إن العلاقة بينهما تعاني من فتور منذ أن خرج ستيفن من البيت وباتت العلاقة مقتصرة على الاستعلام حول أمور البيت.

لم تكن ألفريدا مستريحة للموضوع ولكنها كانت تقنع نفسها أن والدها يجب أن يحيط أعماله بسرية شديدة، كسريَّتها التي أحاطت بها قرارها.

أمضت الليلة التي تسبق يوم الخميس بالمشي في البيت وحدها في الحديقة بين الأشجار، أزهارها بدت ذات ألوان باهتة، حيواناتها الأليفة كانت تنظر إليها ببرود وكأنها لم تكن قريبة منها يوماً، كانت تحس بكآبة شديدة، تحدق بالغروب، تحادث كبار السن رجالاً ونساءً، أنها المرة الأولى التي يكون لها عالم داخلي مختلف عن الخارجي، كم تمنت لو يحادثها والدها بدلاً من هذا الإهمال غير العادي، لو أنه حادثها بكلمة واحدة لخاطرت وأخبرته بكل شيء عن خططها مع ستيفن، مما سيحزنه كثيراً تخيلته واقفاً، يلمسها، عيناه مليئتان بالمشاعر الحزينة، وقد تخلى عن محاولاته اليائسة لأنها تخلت عن محاولتها ولم تستطع أن تكمل.

استلمت رسالة أخرى يوم الأربعاء، وقد تعمدت أن تجعل والدها يرى هذه الرسالة بغض النظر عن النتائج ولكن المخاطرة بفقدان حبيبها بهذا التصرف النزيه منعها من المضي قدماً في هذا.

انسلت إلى الخارج وذهبت لملاقاة ساعي البريد قبل وصوله بخمس دقائق، ووصلت تماماً عند الزاوية الحادة التي تخفيها عن البيت، سلَّمها الأولى وكان يوشك أن يسلِّمها الثانية ولكنها طلبت منه أن يوصلها إلى البيت بنفسه.

«ما الأمر يا آنسة، إنك تتصرفين كما كان يتصرف والدك منذ أسبوع». لم تعلق، فأكمل: «كان يلاقيني عند هذه الزاوية ويستلم الرسائل ذات نفس الخط ويأمرني بإرسال باقي الرسائل إلى البيت كالعادة». وذهب ساعي البريد في طريقه. ولم يتجاوزها بقليل حتى سمعت والدها يرحِّب بالرجل، لقد أنقذت رسالتَها في آخر دقيقتين ومارس والدها نفس العمل الذي قامت به منذ قليل محفوفاً بالشعور بالذنب.

إن معاملة الحياة الداخلية لفتاة عفوية وتلقائية بهذا الإهمال من الأب الذي يمثل لها كل الأهل، بل كل العالم كان سبب الصراع الداخلي الذي تعيشه.

أولاً الحب الذي يعتمل في داخلها وخوفها المميت من فراق من تحب، بالإضافة إلى قلة التجربة والخبرة والسذاجة التي تقود باندفاع وقوة أمنيات مسعورة لمنع هذا الفراق، وعدم المغفرة والمسامحة غير المهذبة التي تلتقي مع الأمل للانعتاق إلى أقصى حد. ثم السخط من سلطة الأب حيث التشجيع في البداية والرفض لاحقاً. ثم الإحساس البارد المقشعرّ والشعور بالذنب لعدم الطاعة والعصيان، المتوَّج بقوة خفية وجدانية عاجزة عن تحمل كسر إيمانها برجل كان من الأساس ومن البداية ثابتاً في حياتها وغير متغير. ثم أمل مبارك حيث إن عكسه قد يغير تقييمها. ثم إيمان ساطع بأن الأمور ستُحَلّ في وقت قريب ومن تلقاء نفسها.

وعلى الأرجح فإن النتائج السلبية والملاحظات التي حصلت صباحاً وقت الفطور دليل على ذلك.

كانت روح والدها المعنوية مرتفعة، وكان كعادته يبتسم لقصص لا يستطيع روايتها لبذاءتها، وقد نادى ألفريدا لتشاركه مشاهدة بعض القطط الصغيرة العمياء وهي تحاول النجاة من الغرق في مشهد طريف جداً. سألته عند ذلك بشكل مفاجئ:

- هَبْ أن السيد سميث جزء من العائلة، واكتشفتَ أنه ليس من أصل نبيل، فهل كنت ستشعر بالأسى؟

أجاب وهو يكمل تقشير البيض المسلوق: «هل تعنين بأنه جزء من العائلة بطريق المصاهرة؟».

إنّ تغيّر لون وجهه إلى الأحمر كان رداً على سؤالها قبل رده الشفهي حيث قال:

- كنت سأتعايش مع الوضع دون شك؟

- إذن، فلن تدخل في حالات اكتئاب يائسة ولكن قد تتكيف معه؟

إن من عادة ألفريدا منذ طفولتها استجلاء رأي والدها بطريق الأسئلة الافتراضية المبنية على ظروف غريبة. وقد فهم والدها أن سؤالها هذا ما هو إلا استمرار لطبيعة هذه الأسئلة. وأضاف: «إذا كان حليفنا مرتبطاً معنا بشكل قطعي فلا أعتقد أنني، أو أي رجل عاقل مهما كان سيتقبل الأمر، ولن يسمح له أن يسبب له كآبة يائسة، وأنت يا عزيزتي إياك أن تسمحي لأي أمر أن يسبب لك أي نوع من الأسى أو الكآبة».

أجابت وقد أضاء وجهها فجأة إضاءة أَبْهَجَتْه: «لا لن أفعل يا أبي». ولم يكن ليخطر ببال السيد سوانكورت أن هذه الإضاءة مصدرها الخطط المجنونة التي كانت تفكر فيها.

توجه مساءً وحيداً على غير العادة إلى ستارتلايت، وكانت ألفريدا توشك أن تبوح بكل ما يعتمل داخلها مرة أخرى.

سألته وهي تنظر إليه بشوق: «لماذا أنت ذاهب إلى ستارتلايت يا أبي؟».

قال بمرح: «سأخبرك غداً عندما أعود، وليس قبل ذلك يا ألفريدا، على المرء ألّا يفصح عما سيحصل لأنه لا يعلم إذا كان سيحدث أم لا. على كل حال فأنا أثق بك يا عزيزتي الرقيقة».

شعرت بالحرج وقالت: «وأنا سأخبرك بسبب زيارتي بلايموث عندما أعود».

غادر والدها وقد أثلجت ردوده صدرها وجعلت حملها أخفّ ومضت عازمة على المضيّ قُدُماً بخططها.

كان غروب عادي من أيام أيلول (سبتمبر)، حيث الغيوم الزرقاء الداكنة والسماء الأرجوانية، كانت هذه اللحظات تناديها لملاقاتها، خرجت إلى الحقول إلى مكان مرتفع وتسلقت الوسط، وأخذت تراقب الغروب، ولامت نفسها لأنها لم تنظر إلى الشرق حيث ستيفن، فأدارت نفسها ووقعت عيناها على الأرض تحتها، حيث امتد حقل أخضر. أحد هذه الحقول تعود ملكيتها إلى عائلة جليبي، والأخرى لبيت المزرعة. وبجانبه كان هناك ويمتد عشر ياردات طريق تنحدر بشكل مفاجئ عند نهايتيها. طريق تبدأ فجأة

وتنتهي فجأة وتقود إلى مكان لم تكن قد رأته من قبل، وبعد قليل تذكرت أنها قد رأت طريقاً تشبهها تماماً بالقرب من ثكنة الحارس. وكان والدها يستخدم هذه الطريق مراراً. جلست قليلاً تمعن النظر وأشاحت بوجهها ناحية المزرعة، وكان هناك طريق أخرى لثكنة الحارس، كانت بنفس الطول، تبدأ وتنتهي عكس الأخرى ولكنها أضيق وأقلّ وعورة، وهناك سببان لهذا، إما أن تكون إحداهما مطروقة بوزن أو حمل أقلّ أو مرّات أقل من الأخرى. وإن كان أحد محققي سكوتلنديارد هنا لأخذ الاحتمال الثاني. إن ما تراه عيناها كان يدور في زاوية صغيرة من عقلها، فجلّ تفكيرها كان في الغد الوشيك فقد كانت تفكر بمنطقيةِ ما ستفعله فإنّ كل إدراكها القطعي للأمور المختلط بالعاطفة مشغول إلى ما لا يتعدى تفكيرها بما يلي: «لنقل من ساعة إلى ساعة وثلاثة أرباع الساعة للوصول إلى سانتلونس، ثم نصف ساعة في فالكون لتغيير الفستان، ولنقل ساعتان بانتظار قطار بلايموث، وتبقى ساعة قبل الثانية عشرة، وهكذا يكون الوقت المطلوب لمغادرة أندلستو حوالي خمس ساعات قبل الثانية عشرة وعلى هذا فيجب أن أخرج الساعة السابعة».

لم يساور الخادمة أي شك في مغادرتها المبكرة، الروتين يتحكم بحياة الناس البسطاء الفقراء الذين يسكنون النواحي النائية البعيدة عن سكك الحديد. بعكس سكان المناطق المأهولة أصحاب الخبرة، هذا فيما يتعلق بالسفر.

إن السفر محفوف بالمخاطر النسبية، واقتصرت هذه المخاطر بالنسبة لألفريدا على المغادرة مبكراً.

لم تكن ألفريدا لتغادر البيت على ظهر فرسها إلا وتحضر معها شيئاً، إما شيئاً اشترته أو وجدته، إذا ذهبت إلى المدينة أو القرية فإنها تحضر كتباً، أما إذا ذهبت إلى التلال، والغابات أو الشاطئ فإنها تحضر طحالب رائعة، أو أغصاناً غريبة، أو مناديل تحتوي أصدافاً مبللة أو أعشاباً بحرية.

في إحدى المرات وكان الطقس موحلاً وكانت بانسي ترافقها في الطريق إلى قلعة بوتريل، كانت تحمل علبة تحت ذراعها وواحدة بحضنها وفجأة انزلقت العلبة وكان هناك ثلاثة أجزاء من الرواية تقبّل الطين وكمية من شلل الصوف تمتص الوحل، إحدى النساء ابتسمت للمنظر من شباك بيتها، ووقف الرجال يشاهدون المنظر. انفجر أحد الأولاد الذي كان يحمل خبز الزنجبيل ضاحكاً، أما هي، بسبب الغيظ، فقد تحولت زرقة عينيها إلى لون الياقوت ووجهها إلى لون القرمزي.

بعد هذه المغامرة السيئة تفتق ذهنها عن اختراع حزام حول السرج، حيث يمكن وضع أشياء كثيرة فيه، وفصلت فستاناً أسود بسيطاً وملابس تافهة ترتديها عند البوابة لركوب الخيل.

في أحد صباحات آخر الصيف، والشمس تغمرهم بأشعتها المشرقة، والجنادب تتطاير كالطيور، والأفعى تفح بصوت يشبه المحرك الصغير كانت ألفريدا تركب حصانها بانسي باسترخاء، وترتدي قبعتها الخارجة عن المألوف وتسير في طريقها حيث حبيبها.

وكانت ملامحها تشي بشعورها، فزئبقية الأيام وتغيراتها غير المتوقعة، كانت سبب حزنها وكآبتها.

حجبت الشمسَ غيمة سوداء كبيرة وغرقت ألفريدا بحالة من الحزن؛ أدارت السرج ونظرت وراءها وكانت الآن في العراء، وما زال بإمكانها رؤية البحر. نظرت إلى المنطقة بشوق، وفي ثورة المشاعر شعرت بأنه من السخف أن تغير وجهة حصانها إلى الجهة الأخرى.

وقالت بعد تفكير: «لو أنّ لي أماً لعُدتُ أدراجي». وبحركة سريعة تلك التي تجعل قلب المرأة يقفز من مكانه، أدارت رأس الحصان واندفعت إلى البيت بسرعة مسافة ميل. وعلى طول الخط وبحكم العادة المتأصلة في تقييم الأمور فإن العكس دائماً ما يتم اختياره. ولكن التوق إلى ستيفن ناداها، فأدارت وجهة حصانها وتابعت طريقها إلى سانتلونس مرة أخرى.

بدأت الأفكار السيئة تعصف بها. تركت رسن الحصان مسلمة نفسها له ليأخذها أينما شاء، سار الحصان مسافة ثلاث دقائق أو أربعاً ووصلت إلى طريق فرعي يقود إلى بركة ماء واندفعت المهرة إلى البركة لتشرب الماء. نظرت ألفريدا إلى ساعتها واكتشفت أنها إذا أرادت الذهاب إلى سانتلونس وأن تقوم بتغيير ثوبها في فالكون وتركب قطار بلايموث فإن عليها أن تتابع المسير، فإن الوقت الباقي هو ساعتان.

كانت مستعجلة وبدا لها أن المهرة لن تتوقف عن الشرب وأخيراً انتهت المهرة وصعدت التل وأكملت طريقها باتجاه سانتلونس.

إن هذه المهرة تتغذى على العشب وتعطيها ألفريدا الذرة بصفتها مادةً مقوية عند الذهاب إلى سانتلونس. وجدت المهرة نفسها في منتصف الطريق ففضلت الاستمرار حيث الذرة، وهذا ما لم تفهمه ألفريدا وظنت أن القدر والحب هو ما يحرك المهرة، مما دفع

عنها التردد. أسرعت المهرة عَدْوَها ورأت ألفريدا أمامها بيوت المدينة وأسطحها. وصلت ساحة فالكون وجاءت صاحبة الفندق السيدة «بكل» لملاقاتها، وهم عائلة معروفة في المنطقة، فهي قد سافرت مع والدها أكثر من مرة بهذه الكيفية. وبأقل من نصف ساعة غادرت ألفريدا مرتدية فستانها واتجهت إلى سكة الحديد، ولم تخبر السيدة «بكل» بنواياها حيث اعتقدت تلك أنها ذاهبة إلى التسوق.

بعد ساعة وأربعين دقيقة كانت بين ذراعي ستيفن في محطة بلايموث في غرفة الانتظار السرية المهجورة.

كان وجه ستيفن متعكراً، قالت له: «ما الأمر؟».

– لا نستطيع الزواج هنا هذا اليوم يا ألفي؛ كان يجب أن أعرف، لم يخطر ببالي أن الترخيص الذي معي لا يبيح زواجنا إلا في كنيستي في لندن وأنا حضرت البارحة فقط.

قالت بحزن: «ماذا سنفعل؟».

– هناك أمر واحد نستطيع القيام به يا عزيزتي.

– وما ذاك؟

– الذهاب إلى لندن، القطار سيتحرك، ونتزوج هناك غداً.

عامل المحطة أعلن قائلاً: «على ركاب قطار 11. 05 التوجه إلى مقاعدهم».

– هل تريدين الذهاب يا ألفريدا؟

– نعم سأذهب.

وبعد ثلاث دقائق كانا على متن القطار.

12

وداعاً، بكت ولوحت بيدها الزنبقية

تجمعت غيوم الصباح واتسعت، واختبأت الشمس خلفهما، وما أن جاء المساء حتى تساقطت الأمطار وكان لسقوطها على شباك عربة القطار صوت طلقات اصطياد البط.

إن الرحلة الطويلة من بلايموث إلى بادنغتون كانت كافية لأن تسمح لأي مشاعر جياشة بالفتور. ذهب حماس ألفريدا، وبقيت جالسة بنوع من الذهول فترة طويلة، وكان يثيرها صوت عجلات القطار عند دخول المحطة.

- هل هذه لندن؟

قال مؤكداً: «نعم يا عزيزتي». وكان مثلَها في مرحلة اللاشعور فلكليهما بدا الواقع مختلفاً تماماً عن الأحلام.

انسلّت من النافذة المبللة، بالقَدْر الذي أمكنها، ورأت المصابيح التي أضيئت توّاً، تلمع تحت قطرات الماء، وصفوف من أنابيب

المداخن المعدنية تطاول عنان السماء، انسحبت بمشقة من النافذة كالفكرة التي ستسبب الألم عندما تتبلور بالكلمات. ألفريدا لم تعرف أبداً ألم وخز الشر كعدم معرفة رفيق روبنسون كروزو البدائي معنى إطلاق النار والآن بدأت ترى أبعد قليلاً.

توقف القطار وترك ستيفن اليد الرقيقة التي كان ممسكاً بها طوال الطريق، وساعدها على النزول من القطار. إن عملية النزول من القطار على أرض غريبة كانت الكافية لإعادة التفكير وإنضاج قرارها النهائي.

نظرت إليه بعينين يملؤهما الأسى وقالت: «إنني تعيسة جداً، عليّ أن أعود إلى البيت، يجب، يجب. اعذر ترددي المزري. ولكني لا أحب هذا المكان، ولا أحب نفسي حتى إنني لا أحبك».

نظر ستيفن بحيرة وذهول ولم يتكلم.

- هل تسمح لي بالعودة إلى البيت، لن أتعبك بعناء مرافقتي، وافقْ فقط على عودتي، ولا تَكْرَهني لهذا، من المؤكد أنه من الأفضل أن أعود.

أجاب بطريقة انتقادية: «ولكننا لا نستطيع العودة الآن».

- عليّ أن أعود، سأعود.

- كيف؟ ومتى ستغادرين؟

- حالاً. هل نستطيع المغادرة حالاً؟

نظر الفتى بيأس وقال بحزن: «إذا كنت مضطرة إلى الذهاب، وأحسست يا عزيزتي أنه من الخطأ أن تبقي، فستفعلين، ستفعلين ما

تشائين، يا ألفريدا. ولكن هل تفضلين المغادرة الآن، على أن تبقي إلى الغد وتغادري بوصفك زوجتي؟»

قالت باكية: «نعم، إنني مستعدة لأي شيء المهم أن أغادر الآن، عليَّ أن أغادر».

أجاب بتجهم وغضب: «كان علينا أن نختار أحد الأمرين ألّا نبدأ أبداً، أو أن لا نغادر دون زواج. عليَّ ألّا أقول هذا ولكن عليك أن تفهمي أن عودتك هكذا دون زواج قد تقلل من قيمتك أمام الناس الذين قد يعرفون الموضوع»

– لا، لن يقلل، ولكن عليَّ أن أغادر الآن.

– عزيزتي ألفريدا، إن اللوم يقع عليَّ لإحضارك إلى هنا.

– على الإطلاق فأنا عليّ اللوم الأكبر.

– بكم؟ بشهر؟ هذا لا يهمّ الآن.

وسأل عامل المحطة مستوضحاً: «هل هناك قطار مغادر إلى بلايموث؟» ولكن العامل مضى دون أن يجيبه.

سألت ألفريدا عاملاً آخر: «هل هناك قطار إلى بلايموث هذه الليلة؟».

– نعم يا آنسة، الساعة 8. 10 وسيغادر بعد عشر دقائق، لقد جئت إلى المنصة الخطأ، إنه في الاتجاه الآخر، يتغير في بريستول إلى قطار البريد المسائي، خلال الدرج وتحت الخط.

نزلا الدرج ركضاً، وذهبت ألفريدا أولاً إلى مكتب الحجز، كان الموظف الواقف أمام الأبواب، يتأكد من تذاكر المسافرين.

أسرع المسافرون إلى دخول عرباتهم، صفارات، تلويح بالأعلام، صرخات نسائية، أزيز محركات بخارية، وها هم يعودون إلى بلايموث مرة أخرى.

التقطت ألفريدا أنفاسها وخاطبت ستيفن قائلة:

- لقد جئت أيضاً. لماذا فعلت ذلك؟

- لن أتركك حتى أطمئِن عليك في سانتلونس، لا تعتبرينني شخصاً سيئاً يا ألفريدا.

وعادا تحت جنح الظلام، من نفس الطريق الذي جاءا منه، ولكن الجو كان صافياً والنجوم ساطعة.

كان هناك مسافر أو اثنان يغطان في نوم عميق، وقد غفا ستيفن أحياناً، أما ألفريدا فكانت تعد الساعات ساعة وراء ساعة.

طلع الفجر وبطلوعه عرفا أنهما بقرب البحر، كانت الصخور الحمراء تحيط بالمكان، وبعيداً كان الأفق الأزرق الرمادي. أشرقت الشمس وأضاءت أشعتها وجهيهما القلقين، فبعد قليل يستيقظ العالم ويعود منشغلاً من جديد، خفف القطار سرعته ساعة لاح رصيف سانتلونس.

قالت وهي ترتجف بحزن: «إنني لم أحسب الأمور جيداً ولم أدرس عواقبها، إن حضوري هنا تأثيره سيئ فيّ، إذا رآني أحد، فهذا سيشينني ويكللني بالعار ويفضحني».

- ستكون فضيحة مزورة. وهذا لا يهم بأي حال، فأنا سأكون زوجك الآن أو غداً، ومن المؤكد فإنني سأثبت براءتك وطهارتك.

- ستيفن، لقد كنت في لندن أوشك أن أتزوجك، وهذا هو دفاعي الآمن، أرى الأمور الآن بمنظار مختلف عن البارحة. فرصتي الوحيدة الباقية هو ألّا يتم فضحي وهذا ما علينا أن نحارب لأجله الآن.

نزلا من القطار، وأرخت ألفريدا وشاحاً سميكاً على وجهها. كانت هناك امرأة ذات جفون حمراء ومقشرة وعينين متلألئتين تجلس على المقعد الخشبي داخل المكتب، ثبتت عينيها على ألفريدا ورشقتها بنظرات قوية غير قابلة للشك ولكنها غير واضحة المعنى، وإن كان فيها الكثير من الحقد والكراهية، وأحست ألفريدا بتيار من القشعريرة الباردة يسري في أوصالها، وكانت كمن يقرأ فصول رواية مليئة بالشر.

ارتعدت ألفريدا واتجهت إلى الطريق الآخر.

سأل ستيفن: «مَنْ هذه المرأة التي كانت تنظر إليك بقساوة؟».

السيدة جثواي، الأرملة ووالدة الشاب الذي جلسنا على قبره، في تلك الليلة. إنها عدوّي يا ستيفن، أرجو من الله أن يكون رحيماً بي، وألّا تكون قد عرفتني.

- لا تكوني يائسة، أنا متأكد أنها لم تتعرف علينا.

- أتمنى ذلك.

- والآن لنذهب لتناول الإفطار.

- لا. لا أستطيع الأكل يجب أن أعود إلى أندلستو.

وبدت وكأنها كبرت أكثر من عشر سنين.

- ولكنك لم تتناولي شيئاً منذ الأمس ما عدا فنجان الشاي في بريستول.

- لا أستطيع الأكل يا ستيفن.

- نبيذاً وبسكويتاً؟

- لا.

- ولا حتى قهوة أو شاي؟

- لا.

- كوباً من الماء؟

- أريد شيئاً يجعلني أكثر قوة ومفعمة بالطاقة في الوقت الراهن، الشيء الذي يأخذ القوة من الغد لنستخدمها الآن، ولا يترك منها للغد شيئاً، ولتنتهي الحياة غداً. طالما مكّنتني من الوصول إلى البيت. الآن، براندي هو ما أريده الآن... إن نظرات هذه المرأة أكلت قلبي.

- إنك جامحة، ومتوترة يا عزيزتي وإنك لتحزنينني. هل خمر البراندي ضروريّ؟

- نعم لو سمحت.

- ما الكمية؟

- لا أعلم فأنا لم أتناول في حياتي أكثر من ملعقة، كل الذي أعلمه أني أريده. ولا تحضره إلى فالكون.

تركها في الحقول وذهب إلى أقرب فندق وعاد يحمل قارورة صغيرة، وبعض الخبز والزبد، وقطعاً من بسكويت الويفر في كيس ورقي. أخذت ألفريدا رشفة أو رشفتين من البراندي.

قالت بغرابة: «إنه يذهب فوراً إلى عينيّ، إنه يذهب إليهما مباشرة وكأنَّ هناك طريقاً موصولاً بهما، لا أريده، ارمِه».

على أي حال كان بإمكانها أن تأكل وقد أكلت، وكان تركيزها الرئيسي كيف تخرج الحصان من إسطبلات فالكون دون إثارة الشكوك. منعت ستيفن من اصطحابها إلى البلدة. كانت تتصرف الآن بناءً على شخصيتها ودون أي مساعدة من أحد، فقد كان واضحاً أنها خرجت من عباءته وأن سيطرته عليها قد اضمحلت.

- يجب ألّا يراك أحد معي حتى هنا، حيث يعرفني كثير من الناس. لقد بدأنا بالسر كاللصوص وعلينا أن ننتهي بالسر كاللصوص. إلى أن أخبر والدي بنفسي؛ لأن معرفته بما حدث بهذه الطريقة ستكون كارثيّة.

أمْضَوْا الوقت بالمشي والحديث إلى أن بلغت الساعةُ التاسعة، وهو الوقت الذي اعتقدت ألفريدا أنه لا يثير الشكوك في فالكون، انتظر ستيفن عودتها من فالكون على الجسر مقابل الطريق المؤدي إلى أندلستو. فجلس يشاهد انعكاس الأضواء على ورق الشجر، والأطفال يلعبون مقابل المدرسة قبل بدء الدرس الصباحي، والحصادون في الحقول البعيدة. إن زواجه منها لم يتم بعد ولم ينعم بأمان الامتلاك بعد، وأكثر ما كان يحزنه هو الشعور بالفراق القريب.

بعد فترة من الزمن جاءت تعدو على مهرتها، وقد ذكّرته في ذلك الصباح الرومانسي الذي أمضياه في التلال، أن قدرة ألفريدا على الجروح تتجاوز قدرتها على الشفاء.

- ماذا قالوا في فالكون؟

- لا شيء، لا أحد كان فضولياً بشأني، لقد كانوا يعلمون أنني قضيت الليلة في بلايموث، مع السيدة «بكل»، وعليَّ أن أرتب أموري وأعيد حساباتي على هذا الأساس.

وحان فراق هذين الشّابين وذلك الفراق الذي بدا كالموت. سار ستيفن برفقتها مسافةَ ميل.

وقال بحزن: «أربع وعشرون ساعة قد مضت، ولم يتم ما جئنا من أجله».

- ولكنك تأكدت أنه سيتم.

- وكيف تأكدت؟

- ما زلت تسأل كيف! وهل تعتقد أنني أستطيع أن أتزوج رجلاً آخر غيرك بعد ما مررنا به؟ ألم أؤكد لك بما لا يدع مجالاً للشك أنه من المستحيل أن أكون لأحد سواك؟ لم تقف الكرامة في طريق حبي لك. لقد أسأت فهم تراجعي، وهذا ما لا أستطيع تفسيره. كان من الخطأ أن أذهب معك. وكان سيكون خطأ أكبر لو ذهبنا لأبعد من هذا. كن متأكداً من أنه حين يكون عندك بيت لي، بغض النظر عن مدى فقره وتواضعه، فتعال وطالب بي. وسأكون لك.

وأكملت بمرارة: «عندما يعلم والدي ما حدث اليوم فسيكون سعيداً بالتخلي عني».

أجاب ستيفن: «عند ذلك سنتزوج». وقد رأى بصيص أمل: «أتمنى أن يقبل حتى لو افترقنا. ولكنني سأبذل قصارى جهدي لأكون مستعداً لك كما خططنا من قبل».

لم ترد ألفريدا.

- إنك لا تبدين نفس المرأة التي كنتها بالأمس؟

- وأنا لست نفسها. عد أدراجك الآن.

وكبحت جماح المهرة للمغادرة وصاحت: «إنني أحس بالضعف يا ستيفن، لا أعرف بأي وجه سأقابله، هلا تأتي معي؟»

- هل تريدين مني المجيء؟

- لا. إن هذا لن ينفع، إنها حماقتي التي تجعلني أتفوه بهذا الكلام. ولكنه سيرسل لك ليستدعيك.

- أخبريه بأننا فعلنا هذا بداعي اليأس، أخبريه بأننا لا نريد أن يحابينا ولكننا نريد أن يتعامل معنا بالعدل إذا قال تزوّجا الآن فخير البرَ عاجله. وإذا رفض فعليه أن يعد بأن يزوجني إياك عندما أكون مستعداً لك ولائقاً بك، وهذا سيكون سريعاً، لا شيء عندي أقدمه مقابل كنزه للأسف، سوى كل حب، وحياة، وجهد رجلٍ محترم نزيه سيكون تحت تصرفك. هذا كل ما لديّ لأقوله، وأتركك لتقرري.

قالت مبتسمة: «وإذا جاءت الأخبار السيئة، فلتحمني شجرة البرتقال كما حمت العذراوات في زمن القديس جورج من أنفاس التنين السامة، سامحني لجرأتي وإني ذاهبة».

وودع الشابان أحدهما الآخر نصف وداع.

- يا زوجة المستقبل بحفظ الله إلى أن نلتقي قريباً.

- إلى اللقاء قريباً.

تابعت المهرة طريقها ولم تكلمه بعدها. وأحس بالموت البطيء، وهو يراها تختفي من بعيد.

كانت الدموع تتساقط من عينيها لفراقها الرجل الوحيد الذي لم تعرف غيره في حياتها. ما كان يبدو بالأمس واعداً وحلماً جميلاً اكتسب اليوم مفهوماً مأساوياً.

وحين رأت الصخور والبحر على مشارف أندلستو أحست بالراحة.

وعندما وصلت الحقل المجاور للبيت سمعت صوت بنتي وليام وارم كانتا تعلقان سجادة على الحبل، وطار إلى مسامع ألفريدا جملة ويني «متى تتوقعين حضورها؟».

- ليس قبل المساء إنها بأمان برفقة السيدة «بكل».

وصلت ألفريدا إلى الباب ولم تقرع الجرس أو تطرق الباب، ولم تجد من يأخذ مهرتها، قادتها إلى حديقة وأزالت السرج وأدخلتها الحظيرة وتسللت إلى الداخل ونظرت إلى غرف الطابق الأرضي فلم يكن والدها في البيت.

وفي غرفة الجلوس كانت هناك رسالة بخط يده معنونة لها أخذتها إلى غرفتها وقرأتها في أثناء تغيير ملابسها:

«عزيزتي ألفريدا،

بعد إعادة التفكير لن أعود اليوم، وأنا في وادجوب، سأكون في البيت غداً مساءً، وسأحضر معي صديقاً. تحياتي،

على استعجال».

أحست بالراحة بعد دخول الحمام، ولكن ما زالت تحس بالصداع، وعند خروجها من الغرفة قابلت خادمتها يونتي في أعلى الدرج.

- عزيزتي الآنسة ألفريدا لقد قلتُ إنها روحُك في البيت، لقد توقعنا عودتك أمس مساءً، فأنت لم تخبرينا بأنك ستبقين هناك.

- كنت أنوي أن أعود في نفس الليلة ولكن للأسف تغيرت الخطط. أعتقد أن أبي سيغضب.

- من الأفضل عدم إخباره يا آنسة.

- أخاف ذلك، يا يونتي، هلا أخبرته حال عودته؟

- أخبره وأعرضك للمشاكل!

- إنني أستحق هذا.

- لن أخبره بالتأكيد، إنه ليس بالأمر المهم، إنني أحدث نفسي، إن السيد أخذ عطلة وهو لم يكن جيداً مع الآنسة...».

- إنك تقلدينه، افعلي ما تريدين ولكن أحضري لي بعض الطعام.

تناولت طعامها وارتدت قبّعتها، وخرجت إلى الحديقة وفي البيت الصيفي جلست وأمالت رأسها على الزاوية ونامت.

بقيت نائمة هناك ثلاث ساعات ونصف الساعة، ثم استيقظت على صوت البوابة وعجلات تقترب من البيت وضوضاء تبدو من نفس المصدر الذي أيقظها. ثم سمعت صوت والدها ينادي وارم. مرّت ألفريدا في الممر باتجاه البيت خلف حزام من الشجيرات، وسمعت صوتاً يتحدث مع والدها، صوتاً غريباً ليس لأحد تعرفه. كان والدها والغريب يضحكان معاً، وكان هناك صريرُ حريرِ الملابس النسائية ودخل السيد سوانكورت وضيفه أو ضيوفه البيت ولم تعد تسمع شيئاً. وما أن بدأت بالتساؤل عن هؤلاء الضيوف حتى سمعت صوت خطوات والدها خلفها.

– ها أنت يا ألفريدا، أرجو أن تكوني بخير؟

اضطربت ولم تجب.

– تعالي إلى البيت الصيفي لحظةً.

– سأخبرك بهذا إنني أعدك.

دخلا البيت الصيفي ووقفا متكئين على الدرابزين الخشبي، قال والدها وهو يشعّ فرحاً وبهجة:

– احزري ماذا سأقول؟

وكان مشغولاً بنفسه، إلى درجة أنه لم يلاحظ تغيرات وجهها وتعابيره...

– لا أستطيع يا أبي.

- حاولي يا عزيزتي.

- فعلاً، لا أريد.

- إنك متعبة وتبدين منهكة! هل كانت الرحلة شاقة؟ حسناً سأخبركِ لماذا سافرت! لقد سافرت لأتزوج.

«تتزوج»، تلعثمت، وكادت تقول بعفوية: «وأنا أيضاً». وبعد لحظة اختفت كل استعداداتها للاعتراف كما تختفي الفقاعة.

- مَن تزوجتُ حسب اعتقادك؟ إنها السيدة ترويتن، المالكة الجديدة للنجوع، وبيت المزرعة القديم. وكانت قد استقرت بيننا حين ذهبت إلى ستارتلايت منذ بضعة أيام.

وخفض صوته إلى أن أصبح همساً.

- بالنسبة إلى زوجة أبيك فإنها ليست بالمرأة الجميلة التي تسترعي الانتباه، ولكنها حكيمة يمكن الاستماع إليها، إنها تكبرني بعشرين عاماً.

- يبدو أنكَ نسيتَ أنني أعرفها، لقد رأيتها هنا في إحدى المرات.

- نعم، من غير شك، بغض النظر عن شكلها، فإنها من أحسن النساء، إن تركتها ثلاثة آلاف وخمسمائة جنيه في السنة، بالإضافة إلى العقارات، وجزء من ميراثها آلَ إليها مهراً كما يقال.

- ثلاثة آلاف وخمسمائة في السنة!

- وقصر كبير في المدينة، ونسب أصيل ورفيع.

بصعوبة سمعت ألفريدا، ولم تقل شيئاً.

واستمرّ يقول بهدوء، وإعجاب:

- نعم يا ألفريدا إنها غنية بالمقارنة بنا، وببعض العلاقات والاتصالات ستقدمكِ قليلاً إلى العالم. وسنبدل بيتها بشارع بيكر بذاك بشارع كنسنغتون، وذلك لأجلك فالجميع يذهب هناك هذه الأيام. وفي أعياد الفصح سنذهب إلى المدينة ثلاثة أشهر، وسيكون عندي مساعد قسيس في تلك الأثناء. أنت تعلمين أنني لم أتزوجها بدافع الحب ولكنني تزوجتها فعلياً من أجلك أنت. ولم أرَ امرأة بثرائها تقبل بي وترمي نفسَها عليّ، والله وحده يعلم هذا. ولكنني أعتقد أن سبب ذلك يعود إلى عمرها وشكلها، فلم يرضَ بها أي رجل من المدينة. إن فتاة بجمالك، إذا أحسنتِ اللعب بأوراقها فقد تحصلين على أي شخص تريدينه زوجاً. ولكننا بالطبع، فسنحتاج إلى بعض وسائل المساعدة. وبهذا فلن يقف بينك وبين الحصول على زوجٍ إنسانٌ له لقب... إن الليدي لوكسليان لم تكن إلا ابنة حارس. هيا تعالي إنها في الداخل تنتظرك.

إن هذا أشبه بالمسرحية، أكمل القسيس في أثناء مسيره نحو البيت: «لقد كنت أتودد إليها عند هذا السياج، كنا نتمشى هنا كل ليلة، لا داعي إلى إخبارك بالتفاصيل الآن، ولكن بعد أن رأيتها في ستارلايت فقررنا أن نستقر».

قالت بلهجة أقرب إلى التأمل: «ولم تخبرني بشيء».

كانت مشاعرها بعيدة عن التأنيب. فقد أحست بالراحة والشكر.

وقد عزا والدها عدم تفاعلها الكافي مع الموضوع إلى خجلها، وعدم إدراكها.

- لست وحدي الملام كما تعلمين، فهناك سببان أو ثلاثة لهذه السرية، أولهما كان بسبب موت قريبة لها، مع أن هذا لا يتعلق بك.

وأكمل بلهجة قاسية: «لقد اختلطتِ بغباء مع قوم أدنى منا منزلة، عائلة سميث وكان هذا بنفس الوقت الذي بدأنا، أنا والسيدة تروتن يتقرب بعضنا من بعض. عندها تحفظتُ عن إخبار أحد حتى أنتِ، فكيف لي أن أعرف إلى أين وصلتْ علاقتك بهم وبابنهم؟ وما أدراني بأنك قد كنت تتناولين معهم الشاي كل يوم؟».

ابتلعت ألفريدا مشاعرها بأقصى ما تستطيع، وسألت بفتور:

- هل قبّلتَ السيدة تروتن على المرج قبل ثلاثة أسابيع؟

- في الواقع نعم وذلك لأبهجها.

وضحك لأنه كشف نفسه.

قال بعاطفة يتم تخصيصها عند تقديم العلاقات الجديدة: «تشارلوت أقدم إليك صغيرتي ألفريدا».

المسكينة ألفريدا لم تعلم ماذا عليها أن تعمل، وقفت متلقية دون حركة كل ما وصل إليها بطريق النظر أو السمع أو اللمس. تقدمت السيدة سوانكورت من ابنة زوجها وأمسكت بيدها ثم قبّلتها قائلة بمرح: «إنك لم تعتقدي في يوم ما، وأنا كذلك لم أعتقد عندما أرشدتِ تلك المرأة العجوز الغريبة منذ شهر أو شهرين، عند المستنبت وشرحتِ لها بطريقة جميلة، بشأن الأزهار، أنها ستكون هنا زوجة لأبيك..».

إن الأم الجديدة، هي تماماً كما وصفها السيد سوانكورت. فلم تكن جميلة الشكل، فقد كانت سمراء، بل شديدة السمرة، سمينة الجسم، مع شعر غزير نصفه أبيض ونصفه الآخر أسود. لم تكن امرأة لتحبها، ولكن كان هناك الكثير لتراه، وبدا من الواضح أنها لم تقم بعمل شيء لإخفاء عمرها فهي تبدو في الستينات. وكان هناك أمر ما متعلق بزوايا فمها، فقبل إبداء الملاحظة تتقلص هذه الزوايا برقة ليس للأمام أو للخلف. أما عند العصبية فليس إلى تحت أو إلى فوق وإنما باتجاه الفك، أما في حالة التصميم على أمر والعناد فتكون إلى الأعلى. هذا الجزء من وجهها فقط ما كان يعبر عن المرأة وما بداخلها، ولكنه يعبر بدون شك عن الفكاهة الذاتية والفكاهة الخارجية، التي تقوم بمعاينة الخصائص النفسية لغريبي الأطوار بالنسبة إلى الناس الآخرين.

ليس هذا كل ما يتعلق بالسيدة سوانكورت فقد كانت تمسك بيد ألفريدا وكانت أصابعها محشوة بالخواتم، إنّ هذا الصف من الخواتم لم يُلبس بداعي المباهاة فقد كانت مملّة وأقرب ما تكون إلى الأنتيك.

اليد اليمنى، الأول خاتم بيضاوي من العقيق على شكل رأس الشيطان، الثاني من اليشب الأخضر منقوش بالعروق الحمراء، الثالث من الذهب الخالص ويحمل رأس الجريفن، الرابع الماسة وحش البحر الأخضر تحيط بها ماسات صغيرات، الخامس، العقيق الأحمر لشكل ستاير الراقص، السادس ذو زوايا عليها رؤوس تنانين، السابع ماسات لامعة.

اليد اليسرى، الأول حجر العلجوم الأحمر المصفر، الثاني خاتم ثقيل من المينا الملونة، الثالث من العقيق الأزرق، الرابع ياقوتة حمراء محاطة بماسات، الخامس خاتم بنقش العذراء، السادس ذو نقوش مملّة.

لم ترتد أي شي آخر من الزينة، عدا كمية الأحجار والخواتم والمعادن المزّين بها خواتمها.

لقد أُعجبت ألفريدا بها في اللقاء الأول، منذ ما يقارب الشهرين. ولكن أن تعجب بامرأة في لقاء عابر مختلف تماماً عن أن تجدها فجأة زوجة أبيك. وكانت ألفريدا تحس الآن بأن عليها أن تقتل هذه العجوز المتصابية.

السيدة سوانكورت، كانت ذات معرفة واسعة، وقليلة الفعل، كما بدا واضحاً من زواجها. وسرعان ما خاضت السيدتان حديثاً، ففضَّل السيد سوانكورت أن يتركهما ليتعارفا أكثر. سألتها السيدة سوانكورت بعد أن أبدت بعض الملاحظات بشأن الزفاف:

- ما الأعمال التي تقومين بها هنا؟ لقد سمعت أنك تركبين الخيل.

- نعم، أركب الخيل ولكن ليس كثيراً، والدي لا يحب أن أذهب وحدي.

- يجب أن يكون هناك من يعتني بك.

- أكتب قليلاً، أقرأ قليلاً.

- عليك أن تكتبي رواية، فكتابة الرواية، هو الحل الأمثل وخصوصاً للأشخاص البعيدين عن الحياة العامة.

قالت، وهي تنظر بريبة إلى السيدة سوانكورت وتفكر هل ستستهزئ بهذا أيضاً:

– لقد قمت بكتابة رواية.

– حقاً، ما موضوعها يا عزيزتي؟

– موضوعها، ... إنها قصة رومانسية في العصور الوسطى.

– بما أنك لم تعيشي أيّاً من قصص الحاضر التي يعيشها الجميع، فاخترت عصراً، غير معروف لك أو للآخرين. هذا هو إذن. لا.. لا لم أقصد هذا يا عزيزتي.

– حسناً، لقد أتيحت لي الفرصة لدراسة أدب العصور الوسطى وفنونه، في مكتبة بيت أندلستو وفي المتحف، وأعرف تاريخ كل حكاية وأحداثها، وقد أحببتها جميعاً، ومن هنا فقد قررت الكتابة حول هذه الفترة.

– متى ستظهر؟

– لا أعتقد أنها ستظهر.

– هذا هراء، يا عزيزتي. يجب أن تنشر، بجميع السبل، جميع السيدات يقمن بنشر أعمالهن، ولا أعتقد أن جمع المال هو السبب وراء ذلك، ولكن ليُكِنَّ لها زوج المستقبل الاحترام الفكري. فهذه فكرة ممتازة، منا نحن السيدات.

– إنني أخشى ذلك لأن فيها مقداراً من الحزن واليأس، فهل جربت الكتابة من قبل؟

– لا، لقد كنت بعيدة عن هذه الأمور.

- والدي يقول إن كتابي لن يقبل بنشره أحد.

- هذا الكلام يحتاج إلى دليل، ولكني أعدك يا عزيزتي: في مثل هذا الوقت، في العام القادم سيتم نشر كتابك.

قالت ألفريدا بفرح وابتسامة، وعلى الرغم من جراحها وحزنها الداخلي:

- هل ستقومين بذلك حقاً؟ أعتقد أن العقل له المقام الأسمى للتطور في عالم الفكر، وإنسانة بسيطة مثلي فسرعان ما سيكون لها حضور.

- لا، ما أن تصلي هناك حتى تكوني كقطرة الماء بين قطع الكريستال. ووسطك الاجتماعي سيحمي بساطتك وعفويتك.

- هذا سيكون كافياً.

وفكّرت في ستيفن وتمنت أن تكسب المال بطريق نشر الرواية وتتزوج ستيفن وتعيش سعيدة، ثم قالت السيدة سوانكورت: «لقد كنت أنا ووالدك نفكر في العديد من الأمور فنحن سنذهب إلى لندن، ثم باريس، ولكن علينا أن ننتقل إلى بيت المزرعة أولاً، ونفكر في البقاء في توركي، في الوقت الحالي، فبدل أن نذهب لشهر العسل وحدنا قررنا القدوم هنا وأخذك معنا ثم المغادرة إلى (باث) لثلاثة أسابيع».

انفرجت أسارير ألفريدا بسرور بل بفرح ولكنها باتت مقتنعة أن زواج أبيها سيحدّ من العلاقة الخاصة التي تربطها به، فقد أصبح من المستحيل أن تخبره الآن برحلتها ومغامرتها الجامحة مع ستيفن.

ما زال يسكن قلبَها، غيابه أعاد له هالة التقديس التي فقدها خلال رحلتهما البائسة من لندن. إن التأجج والغليان سرعان ما يبرد عند لقائه بمسببه، خصوصاً إذا ما كانت الظروف سيئة. والتجربة الأخيرة مع ستيفن بكل نتائجها إلا أنها لم تكن قادرة على تلميعه في عينيها وجعله متلألئاً. إن اللطف والعطف الزائد الذي جعله يوافق على عودتها كانت خطيئته. فهي كانت تحب الرغبة الجامحة القوية في الرجل، في لندن كانت فرصته الوحيدة لاستعادة هيمنته وسلطته عليها بالعمل الذي كان أصغر سناً من القيام به، وذلك بأن يجرّها من رسغها ويتزوجها بالقوة، فالأعمال الحاسمة التي تتخذها العقول الخلاقة تكون قاتلة، ولكن القرارات الانتحارية فهي أكثر شاعرية في نظر المرأة.

على أي حال فإن العديد من التفاصيل المزعجة قد اختفت من الذاكرة وفَقَدَ ستيفن الكثير من ألقه ولمعانه.

* * *

13

جلس منتظراً المزيد من الحكمة

بعد مرور شهرين، إنها لندن في تشرين الأول (أكتوبر).

يمتاز فندق البدزان، بأن نزلاءه من الأغنياء المحترمين، في حين أن منطقته الخلفية، مزدحمة وفقيرة ومليئة بالأزقّة كأي مدينة أخرى في العالم.

من العواقب الأخلاقية لهذا الفندق أن النزلاء يستطيعون أن يشاهدوا من نوافذه الخلفية العادات الإنسانية الحقيقية، أما العاقبة الأخرى فهي سماع الأصوات المزعجة العالية، كصوت خطوات ترنح سِكّير وصدى سقوطه على الأرض، أو صراخ زوجة تُضْرَب.

في إحدى أمسيات تشرين الأوّل (أكتوبر) الرائعة، وبتتبّعنا ستيفن إلى هذا المكان، فقد كان هناك متسول يجلس على كرسي تحت شجرة جميز وبيده علبة حديدية، وكان معطفه معلقاً بين الأغصان كمدخنة. وكان هذا السواد وأغصان الشجر يزيد بشاعة الشجرة التي تأخذ شكلاً رائعاً ومغايراً تماماً في الربيع حيث الأزهار المتفتحة

والأوراق اليانعة، وخلف الدرابزين كنت ترى حديقة من زهور الأضاليا والأقحوان الرائعة، ورجل يكنس الأرض.

اختار ستيفن أحد الأبواب وصعد درجاً خشبياً واسعاً، له أعمدة خشبية تشبه من ناحية معمارية بيت المزرعة في الريف، وصل إلى غرفة في الطابق الأول معلقاً على بابها لافتة سوداء مكتوب عليها: «السيد هنري نايت - محام في المحاكم العليا» قرع ستيفن الباب.

جاءه صوت من بعيد: «تفضل».

كان هناك غرفة جلوس صغيرة، مقسمة من الشقة الداخلية بقنطرة خشبية بعرض ثلاث ياردات، ويتدلى منها ستائر خضراء داكنة. كان على الجدران مقالات ولوحات معلقة بشكل فوضوي مثل ألواح التسقيف في حديقة البناء. كان يمكن رؤية الكتب التي لا يمكن سرقتها لضخامتها، بعضها على الطاولة الثقيلة المصنوعة من خشب البلوط في إحدى الزوايا، والبعض الآخر على الأرض، بين الصور المختلطة بالمعاطف القديمة، والقبعات والمظلات، والعكازات.

أزاح ستيفن الستائر عن رجل يكتب وكأن حياته تعتمد على ما كان يكتبه وهي فعلاً كانت كذلك. كان رجلاً في الثلاثين يرتدي معطفاً مرقطاً، وهو ذو لحية مجعدة وشارب هش، تمتد خطوط اللحية النهائية إلى الفم الذي تخفيه وتخفى معه تعابير اللامبالاة المزمنة.

قال نايت وهو ينظر إلى الأعلى ماداً يده: «لقد عرفت، إنه أنت يا عزيزي».

كان بالإمكان الآن رؤية عينيه وفمه وكانت ملامحه جيدة إلى درجة أنه بدا أصغر سناً. لم يكن بالفم التجاعيد المرئية على رجال في

مثل عمره. العينان متوقدتان، عميقتان بالخبرة التي اكتسبتاها من سنوات القراءة الشاقة.

لم ينهض الرجل، ونظر إلى رزنامة خلفه، وأعاد النظر في رسالته وأشار إلى ستيفن بالجلوس.

- أنا سعيد بقدومك، لقد عدت إلى المدينة بالأمس فقط، أرجوك ألّا تتحدث عشر دقائق، فإنّ عليّ إنهاء هذه المقالة للطباعة المتأخرة، وبعد ذلك فأنا تحت تصرفك.

جلس ستيفن حيث بدا معتاداً على استقبال كهذا، واستمر قلم نايت، صعوداً وهبوطاً، كأنه قارب في بحر عباب.

يقول شيشرون، الشاعر الروماني: «إن المكتبة روح البيت»، هنا البيت كله روح، مجموعات على الأرض، كان نصف الجدران مغطى برفوف الكتب العادية، والكتب الفريدة والنصف الآخر بأقواس وطاولات جانبية ممتلئة بالتماثيل والميداليات، والصفائح المعدنية ذات الأصول المختلفة، التي أحضرها صاحبها في أثناء رحلاته وتجواله في إيطاليا وفرنسا.

تدخل الغرفةَ أشعةُ الشمس المسائية فقط من النافذة القائمة في الزاوية، وتحت النافذة حوض سمك. مملّة معظم ساعات النهار، ما عدا هذه الدقائق المسائية القليلة، حيث يغمره ضياء ودفء جميل وتمدّ حيوانات المرجان يديها لتحضن الشمس وتكسب الأعشاب شفافية عالية، وتلمع الأصداف بالأصفر الذهبي، ويكتسب هذا المجتمع الأليفُ سعادةً لا يمكن وصفها بالكلمات.

وبعد عشر دقائق، ألقى نايت قلمه، وقرع الجرس ليأخذ الفتى الرسائل إلى البريد، وعند إغلاقه الباب قال براحة: «الحمد لله، لقد أنهيت، والآن يا ستيفن اقترب وأخبرني ماذا كنت تفعل طوال هذا الوقت، هل حافظت على دروسك في اليونانية؟»

- لا.

- وكيف ذلك؟

- لم يكن عندي الوقت الكافي.

-إن هذا كلام فارغ.

- لقد مرّ بي الكثير وقمت بالكثير.

أدار نايت نفسه إلى ستيفن وقال: «حقاً دعني أرى وجهك!» نظر إليه بتمعن مما جعل وجه ستيفن يحمرّ خجلاً.

وقال متحزراً: «لقد وقعت في الحب».

- في الحقيقة...

- هيّا، أخبرني بالتفاصيل.

وعندما لاحظ أن ستيفن يشعر بالضيق غيّر لهجته قائلاً: «ستيفن أيها الفتى العزيز، إنك تعرفني جيداً لفترة طويلة، وتعلم أنك إذا أحببت أن تخبرني بالتفاصيل فإنني مستمع جيد، وإذا لم تُرِدْ أن تخبرني فإنني آخر شخص في العالم قد يضغط عليك للقيام بذلك».

- سأخبرك بهذا القدر، لقد وقعت في الحب، وأنوي الزواج.

بدت ملامح الشؤم على وجه نايت حين تفوه ستيفن بهذه الكلمات.

صاح ستيفن بانفعال حين رأى ما أصاب وجه نايت من تغير: «لا تحكم عليّ قبل أن تسمع التفاصيل».

- أنا لا أحكم، ولكن هل تعرف والدتك بهذا؟

- ليس بشكل واضح.

- ووالدك؟

- لا. ولكنني سأخبرك. إن الشاب...

- حسناً، أعتقد أنني أفهم تركيبة العقل البشري، اذهب إلى حبيبتك.

- إن منزلتها الاجتماعية أعلى مني، ووالدها لا يرضيه وضعي الحالي.

- ليست بالحالة الجديدة!

- والآن أريد نصيحتك بالتالي: لقد حدث أمر ما في بيتها يجعله من المستحيل عليّ أن أعاود طلبها من أبيها، لذا فقد قررنا أن نلجأ إلى الصمت وتأجيل الموضوع حالياً. في نفس الوقت فإن مهندساً معمارياً يعمل في الهند أرسل رسالة للسيد هيوبي يسأله إذا كان بالإمكان أن يجد له مساعداً شاباً مستعداً للذهاب إلى بومباي للمساعدة على أعمال الرسم الهندسي. والراتب الذي يعرضه هو 335 روبية للشهر، أي ما يعادل 35 جنيهاً إسترلينياً. وقد عرض

عليّ السيد هيوبي الموضوع، وقد كنت عند الدكتور (راي)، الذي شجعني على الموافقة.

- والآن هل تريد أن تذهب؟ أنت تريد أن تقول: إنه طريق من الممكن أن يوصلك إلى السيدة الصغيرة.

- نعم لقد كنت أفكر في الذهاب، وجمع بعض النقود. وعندما أعود أتقدم إلى خطبتها مرة أخرى، إن عقد العمل مدته سنة.

- وهل ستنتظرك طوال هذه الفترة؟

- نعم، إلى الأبد، وإلى آخر يوم في عمرها.

- ومن أين لك أن تعلم هذا؟

- من أين لي أن أعلم؟؟ من غير ريب، هي ستنتظرني أنا متأكد.

مالَ نايت في كرسيّه وقال: «يا عزيزي ستيفن إن معرفتي بهذه الفتاة مقتصرة على ما رواه قلبك، ولكنني لا أعرفها معرفة شخصية حقيقية. وكل ما أريد التحقق منه هو أن خطتك للذهاب إلى الهند مبنية على إيمانك المطلق بإخلاصها؟»

- نعم، لم أكن لأذهب لولاها.

- لقد وضعتَني في موقف محرج، فإذا أعطيتك رأيي الحقيقي، فمن الممكن أن أجرح مشاعرك. وإذا لم أفعل هذا فإنني لا أعطي الأمور التقييم الصحيح، وتذكر، أنني لا أعرف الكثير بأمور النساء. ولكنك قد كونت صلة معهن، ومع هذا فأنت تخبرني القليل بشأنهن. وأنا أتمنى أن تستمر بالتقدم، حتى أخبرك أنا بأمورهن أكثر.

جفل ستيفن حين قال نايت: «أنا لم تكن لي بهنّ أي صلة من بعيد أو قريب» ، أكمل: «حيث لم أجد أي امرأة جديرة بهذا، ولم أخطب أو أتزوج مطلقاً».

قال ستيفن بلهجة جريحة: «ولكن إذا سمحت لي بهذا القول: فإنك تكتب كما لو أنك خطبت مئات المرات».

- نعم، قد يكون كذلك، ولكن يا عزيزي فإن أولئك الذين يعرفون نصف الأشياء هم من يكتبون عنها، وأما من يعرفونها معرفة تامة فلا يتكبدون عناء الكتابة. إن جلّ معرفتي عن الرجال أو النساء، هي عموميات، فأنا أتجول ونادراً ما أرفع عينيّ وأتفحص معترك الحياة الإنسانية الممتدة أمامي، فأنا كما الغراب في الأفق ليس أكثر.

توقف نايت كما لو أنه سقط من قطار الأفكار، ونظر ستيفن بشغف رائع إلى معلمه الذي كان صاحب عقل كبير قد يبتلع في وجبة واحدة كل ما يحويه عقله. كان هناك تعاطف واضح، ولكن لم يكن هناك صداقة فكرية بين ستيفن ونايت، حيث يرى نايتُ في ستيفنَ ذاك الولد الصغير السعيد، ذا الوجنتين الكرزيتين، والذي يعيره الكثير من الاهتمام، ولا يزيح عينيه عنه، وهو قد ساعده على التعلم وقراءة الكتب، حتى نمت بينهما صلة أبوّة ورعاية وهذه أكثر نضجاً من الصداقة. ومع أن ستيفن ليس الشخص الذي يختاره نايت صديقاً له، إلا أنه بطريقة ما كان صديقه، والظروف كانت مسؤولة عن هذا. فكم عدد الأشخاص الذين نستطيع أن نقول إننا اخترناهم أصدقاءً، والذين يجسّدون المحصلة النهائية للصفات التي نحب، والمبادئ التي نحمل، ويبغضون كل ما نكره؟ فالصديق هو شخص نتعرف عليه بالمعاشرة، واكتساب الثقة، بل الحب.

قال ستيفن بعد فترة من الصمت: «ما رأيك فيها؟».

قال نايت: «إن رأيي فيها مبني استناداً إلى كلامك فيها. كالشعراء الرومانيّين الذين لا نعرف منهم إلا أنهم عاشوا في فترة ما. ولكني ما زلت أعتقد أنها لن تتمسك بك ثلاث سنين مغترباً في الهند».

صرخ ستيفن بيأس: «ولكنها ستفعل. إنها فتاة رقيقة ونزيهة، ولا تجد امرأة مثلها ربطت نفسها برجل كما ربطت نفسها بي، فهل يعقل أن تتزوج رجلاً آخر؟».

سأل نايت بفضول: «كيف ربطت نفسها بك؟».

لم يجب ستيفن. فقد نظر نايت إلى حبه نظرة شك ولهذا السبب فهو لن يخبره بكل التفاصيل التي كان يريد إخباره بها.

- حسناً لا تقل، ولكن أنت من بدأ بالسؤال الحتميّ عن الحب.

أضاف ستيفن: «سأخبرك بأمر آخر، هل تذكر ما أخبرتني إياه يوماً بشأن المرأة التي تتلقى القُبْلة؟ فنحن بدل أن نكون مأخوذين بسحرها وروعتها بدأنا بالتفكير في أنها قد ألحقت بنا العار، وهذا التخبط هو ما أعطاها ذلك السحر».

- يبدو أن ذلك صحيح.

يحدث، في أحيان كثيرة، أن يتذكر التلميذ كلام المعلم، أكثر من أن يتذكره المعلم نفسه.

قال ستيفن بلهجة المنتصر: «هذه طباعها، كانت في حالة من التقلب حتى هي نفسها لم تكن تعرف ما تفعل».

- جيد، جيد، فكل ما عليّ قوله هو أنك إذا كنت ترى في ذهابك إلى بومباي في الهند فرصة جيدة فلا أجد ما يمنع من ذلك، دون أن تكلف نفسك عناء خلق أسباب لذلك؛ فلا أحد يعرف مبررات قرارات شخص ما أو ما تعنيه أفعاله حقيقةً إلا هو نفسه.

- سأكتب الملاحظة هنا، إذا كنت لا تمانع. نعم سأذهب إلى بومباي. لا تخبر أحداً. إن هذا هو الحل الأفضل. سأرسل رسالة غداً.

- أما الآن فاذهب واجلس بجانب النافذة، وانظر إلى العرض البشري، فأنا سأتناول الطعام في الخارج هذه الليلة، وسأرتدي ملابسي هنا من هذه الحقيبة، إنني أُحضِر أشيائي وأضعها فيها حتى لا أتكبد عناء العودة إلى منزلي في ريتشموند والعودة مرّة ثانية.

توجه نايت إلى منتصف الغرفة وفتح حقيبته، وانسحب ستيفن إلى زاوية الغرفة، وانسحبت أشعة الشمس، وساد الغرفة وجوم الغروب والغسق، وملأ المكانَ نوع آخر من الضوء.

وكانت نافذة غرفة نايت الخلفية ذات إطلالة على زقاق ممتد. من الممكن أن ترى حشوداً ومعظمها من النساء تموج بنشاط وبخطوات إلى الأعلى وإلى الأسفل. أضيئت مصابيح الكاز في دكاكين اللحامين، وأضاءت قطع اللحم الملطخة ببقع برتقالية وقرمزية، كما في لوحات تونر الملونة الجانحة الأخيرة، وكانت الأصوات بضجيجها المرتفع والمنخفض وبجميع اللهجات تعلو في هذه الغابة البشرية.

بعد مرور عشر دقائق جاء نايت إلى النافذة، وقال وهو يزرّر معطفه ويرفس بدلته الصباحية باتجاه الزاوية «سأستدعي عربة». استعد ستيفن للمغادرة. نظر إلى الغرفة بشوق العاشق المستعدّ لقضاء عمره كله فيها ولكنه أحس بأنه أطال البقاء وأن عليه الرحيل. راح نظره إلى كومة من الصحف، والمجلات، ومجلد جديد ضخم باللونين الأحمر والأخضر.

قال نايت بتنهد وهو ينظر إلى نفس الاتجاه: «يجب العمل سريعاً، على ما أعتقد من أجل نقد بعض ما في هذه الصحف والمجلات من مقالات وقصص. لا داعي إلى العجلة يا ستيفن، بإمكانك البقاء بعض الوقت، سنخرج معاً بعد أن أنتهي من استعداداتي».

جلس ستيفن بجانب الكنبة، وبدأ يقلِّب الأوراق، ووجد بين الكتب رواية ذات مجلد تحت عنوان: «بلاط قلعة كليون» لآرنست فيلد.

قال ستيفن، وهو يحمل رواية ألفريدا محاولاً أن يبدي عدم اهتمامه: «هل عليك أن تراجع وتنقد هذه؟».

- أي واحدة؟ آه هذه! نعم قد أقوم بذلك، مع أنني لا أقوم بهذا النوع الخفيف من النقد. ولكن هذه من الممكن نقدها.

- ماذا تعني؟

لم يحب نايت أبداً أن يسأله أحد ماذا يعني: «أعني إن معظم الكتب التي تُنشر تكون جيدة جداً ليتم نقدها أو سيئة جداً لتثير النقد».

- وهذا الكتاب كيف يستفزّك: بجودته أو بسوئه؟

- بسوئه. يبدو أن من كتبته فتاة مراهقة.

لم ينبس ستيفن ببنت شفة، ولم يتكلم فيها بأي كلمة حيث نذرتْ نفسها له.

إن نايت قاسي النقد ونزيه في الحكم ولا يمكن أن يجامل في هذا الموضوع صديقاً متواضعاً مثل ستيفن.

أنهى نايت استعداده وأغلق الغاز، وأغلق الباب خلفه ونزلا معاً إلى الشارع.

* * *

14

سنمرح بما أننا في شهر أيار (مايو)

مرّ إلى الآن ثلاثة أرباع السنة منذ الأحداث الماضية، ونحن نستمتع بأزهار الصيف في السنة التالية.

يعمل ستيفن في الهند في مكتب في بومباي ويذهب أحياناً إلى الريف لمهمات خاصة، ويتساءل لِمَ الناس الذين سبقوه يتذمرون من تأثير الطقس فيهم. لم يحظ أي شاب ببداية جيدة مثله، كان ظرف استثنائي من الازدهار والتطور في تلك الأيام في بومباي منذ بضع سنوات، وهو قد جاء في تلك الفترة، كان البناء والهندسة المعمارية في أوجها، وتطورت التطلعات بوتيرة متسارعة، ففي كل يوم كان هناك نجاح.

لم تخبر ألفريدا والدها قط بهروبها مع ستيفن مدة 24 ساعة. ولم يصل إلى مسامعه حسب معلوماتها أخبار بهذا الموضوع، إن هذا السر كان يسبب لها الحزن والأسى مدة قصيرة من الزمن، وسفرُ ستيفن كان عاملاً إضافياً في هذا الأسى. ولكن ألفريدا تتمتع

بخاصية التخلص من المتاعب بعد فترة محددة من الوقت الذي كانت فيه طبيعتها البطيئة تتشرب رويداً رويداً، فقد بلعت كلّ المعاناة وعادت لتشع من جديد. كانت قادرة على استبدال الحزن بأمل كما تغير السحلية جلدها.

وحدث أمران كانا عاملين ممتازين لتشتيت ذهنها، الأول هو نشر الرواية ومتابعة الملاحظات عنها في الصحف، والتي كانت إلى حد الآن قصيرة بشكل ملحوظ. والآخر كان النزوح من بيت الأسقفية إلى بيت السيدة سوانكورت القديم والأكثر ملاءَمة. لم يرحب السيد سوانكورت بالفكرة في البداية، وهي أن يتم زراعته في تربة أنثوية، ولكن تم التوصل إلى اتفاق بأن تبقى السيدتان في بيت توركي وأن يبقى القسيس ما بين البيتين.

وسّعت السيدة سوانكورت مدارك ألفريدا وقادت أفكارها بشكل متعمد نحو الاتجاه الأرستقراطي، وبدأت تسامح والدها بصفقة الزواج، بمعنى آخر فقد خدمته سنواته الثلاث والأربعون ووجهه الوسيم بطريقة جيدة في هذا الموضوع فقد رحلوا إلى المدينة، بعد أن أصبح بيت كينزنجتون جاهزاً، وأصبحوا الآن في البلدة. لقد تم زرع سياج الشجيرات العالية كالعادة، صُفَّت الكراسي، وتم تهذيب العشب وقصّه. والطرقات بدت كأنّها تعرضت لعواصف رعدية، أُحضِرت العربات والخيول وكانت الرحلة والطريق مبهجتين ساعةً من الزمن.

كانت الساعة السادسة في منتصف إحدى الأمسيات الصيفية، وكانت عائلة سوانكورت في إحدى العربات في سيل العربات في الشارع العام.

إنّ السيدة سوانكورت امرأة متحدثة ذات بصيرة ثاقبة، حيث صوتها الموسيقي المنخفض يشكل الجمالية الوحيدة التي تملكها، قالت موجهة حديثها إلى ألفريدا التي كانت معجبة بالسيدة: «إنك ستجدين الآن، أن عدم وجود أصدقاء لنا سيعطينا، ويعطي الجميع مثلنا، قوة غير عادية لقراءة ملامح جميع الناس هنا. وأنا مستمعة جيدة في هذه الأماكن، لا أسمع ما يقوله الناس بشأن أنفسهم ولكن ما تقوله ملامحهم. والإيجابية في هذا الموضوع أنه مهما كانت اللغة التي يتكلمون بها فإن ملامحهم تنطق لغة واحدة، وقد أكون اكتسبت خبرة جيدة في هذا الموضوع حيث إنني كنت المرأة البشعة، الوحيدة فترة طويلة من الزمن ولم يكن هناك من يزودني بالأخبار. وهذا أمر لا يمكن اعتباره غريباً فهي موهبة من الله، فهناك مثلاً كثير من الناس الذين يستطيعون إخبارك بالوقت بدقة دون أن ينظروا إلى الساعة».

قال السيد سوانكورت: «نعم يستطيعون ذلك ويفعلونه بكل دقة، لقد كنت أعرف عُمّالاً ومزارعين في أندلستو، وقد كوّنوا نظاماً كاملاً من الملاحظات لهذه الغاية بالاستناد إلى الظلال، والغيوم، وحركة الأغنام والأبقار، وتغريد الطيور، وصياح الديوك، والكثير الكثير من الأصوات والمشاهد التي لا يلاحظ نشاطَها وحركتَها الناس الذين يحملون ساعات في جيوبهم؛ إنهم قادرون على إعطاء الوقت وتخمينه بدقة أكثر أو أقل بعشر دقائق. وهذا يذكرني بقصة بذيئة لا أقدر أن أرويها». وهز القسيس رأسه وضحك.

قالت السيدتان: «أخبرنا بها».

- لا أستطيع أن أخبركما.

قالت السيدة سوانكورت: «إن هذا غريب وسخيف».

- إنها عن رجل يمتلك مثل هذا النظام من الملاحظات، وقد استمر مدة سنتين يخدع مَن حوله بأنه يمتلك سرّاً بارومیتراً خاصاً، يستطيع من خلاله أن يتنبأ بالطقس، وقد كان في الواقع يعتمد على أصوات مؤخرته، ومزاج زوجته.

ضحكت ألفريدا.

قالت السيدة سوانكورت: «تماماً، بنفس الطريقة التي تعلم بها هؤلاء معرفة إشارات الطبيعة، فقد تعلمت أنا لغة أخرى تسمى لغة الجسد، كمعرفة الكذب من العيون، والازدراء من رأس الأنف، والغضب من وراء الشعر، والسخرية من الملبس، يمكن كشف الكثير من المشاعر خلال مراقبة طريقة المشي، والأرجحة بعصا المشي، وكيفية رفع القبعة، وطريقة رفع المظلة وفتحها إن قراءة هذه الأشياء بالنسبة إليّ كقراءة، أ، ب، ج».

ثم أضافت: «انظري مثلاً إلى الأم وبناتها هناك في العربة»، وأشارت بطرف عينها. «يبدو من ملامح إحداهن المرتبكة إذلال واقع عليها من حبيبها في بلدتها. إنك تجدين صعوبة في تصديق أن أعضاء المجتمع المخملي والراقي بإمكانهم أن يكونوا أصحاب غرائز بدائية سرية».

- وكيف ذلك؟

- إنّ وجوههم تحمل الكثير من مشاعرهم الواضحة.

قال السيد سوانكورت: «إنك يا شارلوت تقرئين الوجوه بدقة تشبه دقة السيد بَفّ في قراءته إيماءات اللورد بيرلي».

لم تستطع ألفريدا إلا أن تعجب بجمال النساء الريفيات، حيث إنها ورفيقاتها قد تعرضا لحروق طفيفة من الشمس على أيديهن، في أثناء جمع العليق في هذا الوقت من السنة.

وقالت متعجبة: «يا لهذه الورود والأوراق الجميلة التي يرتدينها كقبعات!».

أجابت السيدة سوانكورت: «نعم، حتى إن بعضها له ألوان ساطعة أكثر من الأزهار الحقيقية. انظري إلى تلك الوردة التي ترتديها المرأة في داخل العربة. كَرْمَة أنيقة نابتة من الجذع كتحسين للأشواك وكل هذا ينمو بشكل طبيعي فوق أذنيها. تنمو ببطء وأناة، فيمكن ملاحظة نفس درجة اللون الزهري في النبتة ولون وجنتيها من يد الطبيعة إلى عيني المشاهد العادي».

قالت ألفريدا بطيبتها المعهودة: «امدحيهنَّ ولو قليلاً، فإنهنَّ يستأهلنَ ذلك؟».

- إنني أفعل ذلك، انظري إلى الدوقة كيف تروح وتجيء في مقعدها كالموج، وتتمايل في عربتها ذات الأربع عجلات، تنظر حولها فقط عندما يتأرجح رأسها إلى الأمام بتكبر وخيلاء سلبيين، وهذا هو الذي يمنعها من التعاطي الحقيقي مع الأمور. انظري إلى شفاه تلك العائلة كأنها منحوتة بيد رسام، انظري إلى طريقة قبضات أيديهن المحتشمة في حمل المظلات، الإبهام الرقيق يمتد ملامساً المقبض العاجي، حيث يتناسب قماش المظلة الساتان مع البشرة التي تحمله. إن مراقبة هذه الأشياء بطريق الصدفة هو ما يزيد من جاذبيتها. وذاك الكتاب الأحمر الملقى على المقعد المقابل يخبر الكثير

عنهن. وأنا بصراحة معجبة بالأم وبناتها في الجهة المقابلة، أعني نظرتها غير المدركة، ونظرات الناس إلى الفتيات، وفوق هذا نظرة البنات أنفسهن، وتحديقهنّ إلى عيون الرجال دون أي تأثر وكأنهن يحدقن إلى أوراق الأشجار.

ثم لاطفت ألفريدا بقولها لها: «إن هناك إطراء لك يا عزيزتي».

قال السيد سوانكورت، بذهن شارد عن كل المشاهد السابقة: «أووف، يا لهذا الحرّ. إن ساعتي شديدة الحرارة إلى درجة أنني أخاف أن تلسعني إذا ما فتحتها لأرى الوقت. والعالم كله رائحته كالقبعة».

سألت السيدة الكبيرة: «كيف ينظر الرجال إليك يا ألفريدا، إنك ستقتلينني بهذا؟».

مكتبة
t.me/soramnqraa

- أقتلك؟

- كما يقتل الألماسُ العقيقَ يا عزيزتي.

قالت ألفريدا بطريقة فنية، وهي تظهر غبطتها بأنه قد تمت ملاحظتها من قبل البعض: «لقد رأيت العديد من السادة والسيدات ينظرون إليّ».

قالت زوجة أبيها بلهجة حادة زادت من بشاعتها: «عليك ألّا تقولي (سادة) هذه الأيام يا عزيزتي. لقد سلمنا كلمة (سادة) للطبقة الوسطى وما زال بالإمكان سماعها في حفلاتهم، على ما أعتقد. أما نحن فقد انتهينا من استخدامها».

- ماذا عليّ أن أقول إذن؟

- السيدات والرجال، دائماً.

في هذه اللحظة ظهرت عربة بين نهر العربات المتدفق من الاتجاه المعاكس، عربة يوحي منظرها بالغنى الفاحش، فالعجلات والحواشي، تم اختيارها من خيوط اللازورد الرقيقة، كانت ملابس الخدم معاطف زرقاء داكنة موشاة بخيوط فضية، والسراويل من الأحمر الهندي مما كان يشكل وحدة موضوعية. يسبقهم حصانان كستنائيان من الخيل التي تسير بحماس ونشاط مما يدل على صحتها وقوتها.

كان يجلس في العربة رجل يبدو أنه تاجر من الطبقة المخملية، وبجانبه تجلس سيدة بشرتها بلون الحليب المقشود، تنتمي إلى الطبقة العليا من النساء حيث تتميز هذه الطبقة بالمرض، وبأن متعتها الوحيدة هي أن تستمتع بالفراغ.

مقابلهما كانت فتاتان ترتديان قبعتين بيضاوتين ذواتي ريش أزرق.

عندما رأت المرأة ألفريدا ابتسمت، وانحنت محيية، ولمست مرفق زوجها الذي استدار وردَّ على ألفريدا تحيتها برفعه قبعته. أما الفتاتان فقد لوَّحَتا لها، وضَحِكَتا بفرح.

قالت السيدة سوانكورت، حيث كانت تجلس هي والقسيس في الاتجاه المعاكس، «من هذا؟ إنه اللورد لوكسليان. أليس كذلك؟».

قالت ألفريدا: «نعم، إنه الرجل الوحيد هنا، الذي أستطيع القول إنه أكثر وسامة من والدي».

قال سوانكورت: «شكراً يا عزيزتي».

- ولكن والدك أكبر سناً، وحين يتقدم به العمر، فلن يكون بنصف وسامة رجلنا هذا.

- شكراً لك أنت أيضاً، يا عزيزتي.

قالت ألفريدا متعجبة، وهي ما زالت تنظر إليهم: «كم تحبُّني هاتان الصغيرتان العزيزتان، حتى إن إحداهن تبكي لتأتي إليّ».

قالت السيدة سوانكورت، حيث رأت البارونة لوكسليان ترفع يدها لتمسك بإحدى الفتاتين: «إنه ينزلق عن ذراعها، إنه كثير الاتساع، كم أكره أن يرى الضوء المسافة بين السِّوار والرسغ! أليس عند النساء ذوق؟!».

فقالت ألفريدا موضّحة: «ليس الموضوع كذلك ولكن المسكينة تعاني من المرض ولا بد أن ذراعها نحفت كثيراً لهذا السبب».

اقتربت العربتان إحداهما من الأخرى، ممّا أتاح المجال لتحيات أكثر بين العائلتين. أوقف اللورد لوكسليان العربة وذهب إلى عائلة سوانكورت بضحكته الموسيقية، التي كانت ما يميزه بوصفه رجلاً، فقد أحبّته الناس لهذه الضحكة، متناسين أنه بلا موهبة، يتذكر الناس الأشخاص بسيماهم: فالسيد سوانكورت بأخلاقه، وستيفن سميث بوجهه الجميل، واللورد لوكسيليان بضحكته.

أدلى السيد سوانكورت بعض الملاحظات في حرارة الجوّ.

قال اللورد لوكسليان: «لقد كانت تهبّ علينا هبات شديدة الحرارة في أثناء سيرنا من النوافذ، وأحسسنا بالاختناق». ثم التفت إلى ألفريدا قائلاً: «إنني لم أرك أو أكلمك يا آنسة سوانكورت منذ أن

ظهرت للعلن، لم أكن أعرف وأنا في أندلستو عن الحفل وإلا لكنت أنا وكل معارفي في خدمتك. لماذا لم تخبرني يا سوانكورت؟».

أحست ألفريدا بالإطراء، فاحمرّ وجهها، وضحكت، وخجلت وصمتت. ثم تابع اللورد حديثه لألفريدا: «حسناً، وأعتقد أن صحيفة البرزنت، لم تكن عادلة معك. إن كتابة نقد جارح كهذا لرواية أنيقة، مثل بلاط قلعة كايلون يعتبر أمراً سخيفاً».

- ماذا؟ تم نقد روايتي في صحيفة البرزنت؟

- نعم، ألم تقرئيه؟ إنه منذ أربعة شهور أو خمسة.

- لا لم أره أبداً، كم هو مشين هذا التصرف من الناشرين. لقد وعدوني أن يرسلوا إليّ كل ما قد يُكتَب فيها.

- يبدو أنني زودتك بمعلومات غير جيدة دون قصد، وهذا لا يعتبر من اللياقة. أما فيما يتعلق بالناشرين فأعتقد أنهم اكتشفوا ألّا جدوى من إخبارك حتى لا يسببوا لك الألم.

- بالعكس، فأنا مسرورة جداً لأنك أخبرتني، وأنا متأكدة أنه خطأ محمود من قِبَلهم. هل النقد ضدي جارح كثيراً؟

- في الواقع لقد نسيت تفاصيله، فقد كان منذ فترة بعيدة، ولكنه كان حاداً وقاسياً.

- هل من الممكن أن نذهب إلى مكتب البرزنت ونأخذ نسخة يا أبي؟

- إذا كنت متشوقة إلى هذا فسنذهب أو نرسل في طلبها، ولكن سنؤجل ذلك إلى الغد.

قال اللورد لوكسليان وهو ينظر إلى ألفريدا ويحس بتأنيب ضمير: «في الحقيقة، أنا قد جئت مثل رسول من الصغيرتين، وكيت، إنهما ترجوانك أن تأتي إلى عربتهن بعض الوقت، وأنا سأذهب إلى بيكادلي، إن زوجتي ستبقى معهن، إنني أعرف أنهما فتاتان مدللتان، ولكني قد وعدتهن بأنك ستأتين إليهن».

وكم كانت فرحة الفتاتان ذواتي البشرة الحمراء والأعناق الطويلة، عند دخول ألفريدا العربة. ولقد أثار تصرفهنّ انتباه المارة بضحكهن من الأعماق دون أي حساب. طلب اللورد لوكسليان من الحوذي أن يتابع السير، ثم رفع قبعته، وابتسم ابتسامة ساحرة، ونظر طويلاً إلى ألفريدا. كانت نظرة إعجاب ذكورية واضحة وحقيقية دون أدنى شعور بالذنب بوصفه رجلاً متزوجاً بحضور زوجته وعائلته، ثم ذهب في نزهته.

ترجل السيد سوانكورت من العربة بنفس الوقت مع ألفريدا ليلقي التحية على أحد الأصدقاء، وبقيت زوجته في العربة وحدها.

في أثناء هذه الأحداث كان هناك رجل مختلف عن بقية الرجال، يقف خلف الكراسي ويتكئ على جذع شجرة، نظر إلى ألفريدا بهدوء وحرج. ثلاث نقاط يمكن للعين الخبيرة ملاحظتها في هذا الشخص، أولها تجعيدات واضحة في معطفه تبين أنه لم يكلف نفسه عناء الطلب من الخياط تصحيحها. ثانيها، اهتراء خفيف للمظلة ناجم عن كثرة اتكاء صاحبها عليها، واستخدامها كعصا، بدل أن تقبّل الأرض تقبيلاً كما يفعل الرجال المحترمون. أما الثالث والواضح بشدة فهو أن هذا رجل مفكر ويهتم بدماغه، وهو عميق ويمكن القول بحق إنه يشكل علامة فارقة بين جيله، ولو أن السيدة

سوانكورت لم تُترك وحيدة في العربة لما اقترب هذا الرجل ووقف بجانب باب العربة. أمعنت النظر به ربع دقيقة ثم مدّت إليه يدها ضاحكة: «هنري نايت من غير شك، أليس كذلك؟ ابن عمي الثاني، أو الثالث، أو الرابع. وبأي حال فأنتَ نسيبي».

- نعم، من العلاقات التي لم تنتهِ بعد، ولم أكن متأكداً أنه أنتِ من حيث كنتُ أقف.

- لم أرك منذ ذهابك إلى أكسفورد، كم من السنين مضت، أعتقد منذ زواجي الأول.

وسرعان ما تطرق الحديث إلى الأمور العائلية من زواج وطلاق وموت، والتي لم تكن في الواقع تهم نايت بأي حال من الأحوال. إلى أن سأل: «هل الفتاة التي انتقلت إلى العربة الأخرى هي ابنة زوجك؟».

- نعم، إنها ألفريدا لا بد أنك تعرفها.

- ومَن تلك المرأة المريضة الشاحبة المظهر والتي تبدو كأنها انعكاس نفسها في الماء.

- إنها الليدي لوكسليان، تربطها بزوجي قرابة بعيدة، ولكن لا حميمية في العلاقة. تعال لزيارتنا هذا الأسبوع يا هنري، إن العنوان هو 24 شيفرون سكوير، تعال هذا الأسبوع فنحن سنمكث في المدينة أسبوعاً أو أسبوعين على الأكثر.

- دعيني أرى، سأغادر إلى أكسفورد غداً مضطراً بضعة أيام، ويبدو أنني سأخسر رؤيتك في لندن هذه السنة.

- إذن تعال إلى أندلستو، فلِمَ لا تعود معنا؟

- أخشى إن جئت قبل آب (أغسطس)، أن أغادر مرة ثانية يوماً أو يومين، ولكني سأكون مسروراً بالبقاء معك في بداية ذلك الشهر. وأبقى مدة طويلة حيث قد قررت سابقاً الذهاب إلى الغرب هذا الصيف.

- حسناً إذن، تذكر أن هذا وعد، ألن تنتظر لترى السيد سوانكورت؟ هو لن يتأخر أكثر من عشر دقائق.

- اعذريني فأنا مضطر إلى المغادرة إلى غرفتي مرة أخرى هذا المساء، قبل أن أذهب إلى البيت. عليّ أن أكون هناك الآن، عندي موضوع متعلق بالصحافة وعليّ أن أكون في جريدة البرزنت. اشرحي له الموضوع لو سمحت، وداعاً.

- أعلمنا متى ستحضر.

- حسناً.

* * *

15

صوت متجول

مع أن الأحزان الشفافة والواضحة، لا تفقد سحرها بالمعرفة المجردة فإن الطريقة الملطفة والمسكنة تكون لبعض الأمور الهزلية السيئة. ومن ضمن الأمور المحيرة والمغيظة المشاكل النوعية، فهي كالجدول يكون ضحلاً، وفجأة تجده قد اتسع كثيراً.

في مساء ذات اليوم وبعد اللقاء الناجح في المتنزه، كان هذا الموضوع محور حديث ألفريدا والسيدة سوانكورت في غرفة الملابس. كانت ألفريدا قد استلمت رسالة غرامية من ستيفن في بومباي، وقد أعيد إرسالها من أندلستو، وليس هذا أهم ما في الموضوع، بل ما كانت تحمله الرسالة، حيث كان واثقاً بما سيكون في المستقبل، فقد عنون رسالته بثقة عالية بـ«زوجة المستقبل الحبيبة».

من الأرجح أنه ليس هناك طريقة أكثر سرعة، وحسماً، وتأكيداً في معرفة طباع الرجل إلا بالتجربة. لم يستعمل كلمة زوجة المستقبل في مراسلاته للمرأة التي كان يحبها من قبل.

لقد أخذت رسالتَه إلى غرفتها، قرأت منها قليلاً، وتركت الباقي إلى الغد حتى لا تفقد استمتاعها بها مرة واحدة، وعلى الرغم من هذا فلم تستطع أن تمنع نفسها من الاستمتاع بها أكثر، لذا فقد أخرجتها مرة أخرى، على الرغم من خوفها من استنفادها إلا أنها قرأتها بسرعة، وأعادتها إلى جيبها.

وما هذا أيضاً؟ جريدة لألفريدا، وقد كانت تغاضت عنها في إسراعها إلى فتح الرسالة، إنها العدد القديم من البرزنت، التي تحتوي مقالاً بشأن كتابها، وقد أُرسل إليها بالبريد كما طلبت.

قرأت ألفريدا المقال بتردد، تقلصت وانكمشت، وذهبت والجريدة بيدها إلى غرفة ملابس السيدة سوانكورت، للتخفيف من حدة حنقها وغيظها للتحامل ضدها.

كانت تنظر من النافذة ببؤس. قالت السيدة سوانكورت بعد تمحيص حذر: «لا تهتمي يا صغيرتي، لا أعتقد أن النقد بهذا السوء. بالإضافة إلى أن الجميع قد نسوه بعد هذا الوقت. أنا متأكدة أن الافتتاحية جيدة بشكل كافي لأي كتاب قد كُتِب من قبل. اسمعي، إن وقعها أفضل بل تبدو أفضل حين تقرئينها بصوت عالٍ، بدلاً من قراءتها بصمت.

«بلاط قلعة كليون قصة رومانسية من العصور الوسطى بقلم أرنست فيلد: أعتقد أننا كنا فترةً من الزمن نتهرب من التكرار الممل للتفاصيل المرهقة في الأدب الاجتماعي الحديث. تحليل الشخصيات غير الممتعة، أو العقدة غير الطبيعية. فإننا نأخذ هذا الكتاب بنوع من الغبطة. لقد تعرضنا للتسلية بأن هناك بعض التغيير الجديد الذي قد

يقرع زنزانة الحراس. السلاسل، الدروع، الوجنات المليئة بالندوب العميقة، إن العطاء المبكّر الذي كسى حلة الصفحات لم نسمع مثله منذ مدة طويلة».

ثم علَّقت السيدة سوانكورت فقالت: «أعتقد أن هذه بداية جيدة جداً وشيء يدعو إلى الفخر أن يصدر عن رجل لم تقع عينه عليك من قبل».

قالت ألفريدا بحالة يرثى لها: «آه ولكن استمري بالقراءة».

قالت السيدة سوانكورت: «إن الجزء القادم غير لطيف»، وتابعت القراءة: «بدلاً من هذا نجد أنفسنا بين يدي سيدة شابة، ما زالت على أبواب سنوات الرشد، لتقرر أو تحكم بهذه الأداة السخيفة. مع هذا فإنه من الجدير بالاهتمام أن يتم اقتباس عنوان من فكرة تتنكر لجنسها».

قالت ألفريدا بغضب: «أنا لست سخيفة، كان بإمكانه أن يقول أي شيء إلا هذا».

قالت السيدة سوانكورت: «لستِ كذلك بالتأكيد»، ثم تابعت السيدة القراءة: «(وأيدي السيدة الشابة، ... والتي فصولها مكرسة ببساطة للمباريات المستحيلة، والأبراج، والمغامرات والتي تشبه النسخ الواسعة في قصص السيد جي. بي. آر. جيمس، والجزء غير الحقيقي من إيفانبو، حيث الطعم المصطنع مما يؤدي إلى هروب أكثر الأسماك سذاجة).. والآن يا عزيزتي ألفريدا، لا أرى في هذا سبب للشكوى، فهو يثبت أنكِ كنت من الذكاء بحيث جعلتِه يتذكر السير جيمس، وهذا شيء عظيم».

- نعم، ولكن لا يفرحني كثيراً، أن أذكّره بمن يشاء.

حاولت ألفريدا أن تكون لهجتها ساخرة ولكن لم تكن تملك من القوة ما تملكه حمامة الغابة. سقطت الكلمات ببطء وبصوت خفيض من شفتيها الجميلتين العابستين.

وتابعت السيدة سوانكورت القراءة: «وهناك أمر آخر، من المؤكد أن كتابك جيد وكافي، ليكون سيئاً من الناحية الأدبية، ولا يقف وحده كئيباً دون أن يلفت انتباه أحد. إن هذا الاهتمام الحاضر بالرومانس التاريخي، من الممكن أن تتم مواصلة الكتابة فيه. من الضروري أن يجد القارئ نفسه تحت رحمة بعض المخلوقات الأسطورية. بالإضافة إلى أنّ الدفع باتجاه إعادة دراسة الأبحاث التاريخية، وإيقاظ الإيمان بالعصور الوسطى، سوف يقدم قدرة إبداعية، حيث المشاعر الرقيقة، المرهفة أكثر رفعة وسمواً وذلك بالقدرة على الاندماج بين الأحداث الجسيمة والمشاعر الإنسانية».

- إن هذه الإضافة الواسعة لا تعنيك يا ألفريدا، وقد كُتبت كحشو كلام. دعيني أرى متى يأتي على ذكرك مرة أخرى... ليس قبل النهاية، ها أنت أخيراً يقوم بتلميعك:

«وبالعودة إلى النص، موضوع هذه المقالة، فنحن بعيدون كل البُعد عن الحط من قدرات المؤلفة، فهي تملك قدرة فنية تمكنها من استخدام أسلوبها السردي الخاص بها بإبداع، والذي من الممكن أن نسميه همهمة المشاعر الرقيقة السطحية أو الساذجة، إنها الهدية الحقيقية لأولئك الذين تمثل لهم المشاركة الوجدانية الغذاء اليومي للأوقات الآمنة. هنا حيث الأمور الحياتية، واللمسات الطبيعية التي

تجعل الإنسان حقيقياً، والتي من الممكن أن تقدم دون ملاحظة المفارقات التاريخية الواضحة، وفوق هذا فالرواية تتسم بالمرح والفكاهة أحياناً، ومن العدل أن نذكر، أنه يجدر اعتبار الكاتب وتقديره من أجل هذه الجرعات، التي لا صلة لها تذكر بالقصة».

«حسناً، أعتقد أنه كان يقصد الهجاء، لا تفكري به بعد الآن يا عزيزتي، إنها السابعة»، وقرعت السيدة سوانكورت الجرس للخادمة لتحضر.

الهجوم أكثر حدة من السلام. إن رسالة ستيفن لا تعني لها سوى الوحدة، أما المراجعة النقدية لروايتها كانت سلبية. فالغريب مجهول الاسم، والشكل، والعمر المختزل بصوت جبار هو من غير شك يعتبر موضوعاً أكثر حداثة للسيدة التي كان يخاطبها. وعندما أخلدت إلى النوم تلك الليلة، فكانت تحب كاتب الرسالة وتفكر في كاتب المقالة.

* * *

16

ليتشكل الهوى ما شاء له أن يكون

بعد ثلاثة أسابيع كانت عائلة سوانكورت تجلس في غرفة استقبال بيت كراجز، بيت السيدة سوانكورت في أندلستو، يتحاورون ويقيِّمون فترة إقامتهم بالمدينة الشهرين الماضيين؛ بضجر واضح حتى من الناس المعدودين على أصابع اليد الذين تعرفوا عليهم.

إن قضاء ألفريدا فصلاً في لندن برفقة زوجة أبيها صاحبة الخبرة، كان له الأثر الواضح في توسيع مداركها، فعلاقتها بستيفن تقلّصت وأصبحت مشاعر ماضي صبياني. إن تطورنا الشخصي هو في الحقيقة نقصان مما تطورنا منه في الأساس من البراءة والطيبة والسذاجة.

كانت تجلس على كرسي منخفض، وتنظر إلى روايتها المرّة الأولى بكآبة منذ أن عرفت تعليقات جريدة البريزنت.

- أما زلتِ تفكرين في ذلك الناقد يا ألفريدا؟

- ليس فيه شخصياً، ولكن أفكر في رأيه، فبالنظر إلى الكتاب بعد هذا الوقت الطويل، تجد أن جزءاً منه قُيِّم بشكل عادل.

- لا، عليك ألّا ترفعي راية الاستسلام البيضاء الآن؛ فالكاتبة يجب أن تدافع عن نفسها دون الناس كافة. فكيف سيقاتل رجال منموث، إذا هرب منموث نفسه؟

- أنا لا أفعل ذلك، ولكني أقول إنه كان محقّاً في بعض الأشياء، ومخطئاً في البعض الآخر. وقد اتهمني ببعض الاتهامات، مما سبب لي الحزن، إنه فكر بدافعي بشكل سيئ. من المغيظ أن يتم إساءة فهمك أكثر من الإساءة إليك وأنا تمت إساءة فهمي. فكيف أستريح وهناك شخص ينام ملء جفونه صباحاً ومساءً، وهو قد ادعى أنني أقصد أشياء لم تكن لتخطر لي على بال.

- إنه لا يعرف اسمك، ولا أيّ شيء بشأنك، ومن المؤكد أنه قد نسي وجود الكتاب من الأساس.

- في الحقيقة وعن نفسي، فأحب أن أوضح له بعض الأمور.

قال القسيس الذي كان صامتاً فترة: «إن النقاد يقومون بالنقد، ولا تتم مراجعتهم أو مناقشتهم، لهذا فهم لا يتطورون أبداً».

قالت ألفريدا بفرح: «أبي، اكتب له».

- في الواقع، إنني سأكتب له كأنه أمامي.

- قم بذلك يا أبي. وأخبره أن الصَّبِيَّة التي قامت بكتابة الكتاب لم تنتحل شخصية رجل واسمه، ولكنها خافت أن يعتقد الناس بجرأتها إذا ما وضعت اسمها الحقيقي على الكتاب. ولم تكن تعني في كتابها ما قد فهمتَه ولكنها أرادت فقط تقديم التاريخ للشباب بطريقة لطيفة وحلوة، وبهذه الطريقة فإنهم يكتسبون معرفة ما حصل

في بلادهم قبل مئات السنين. وهذا يغريهم بالغوص أعمق في هذا الموضوع. أوه إن هناك الكثير ليقال، أتمنى أن أكتب هذا بنفسي!

قال السيد سوانكورت وهو يفكر بهزلية أن تنتقد ناقداً: «سأخبرك ماذا سنفعل، ستكتبين بوضوح وإسهاب ما الذي تعتقدين أنه أخطأ فيه، وأنا سأنسخه وأرسله باسمي وبتوقيعي».

قالت ألفريدا وهي تقفز: «نعم، في الحال، ومتى سترسله؟».

قال القسيس: «خلال يوم أو يومين، على ما أعتقد». ثم توقف القسيس قليلاً، وقال بطريقة كبار السن عند التخفيف من الحماس الذي غمرهم: «ولكني لا أعتقد أن الأمر يستحق هذا».

قالت ألفريدا بخيبة أمل شديدة: «يا أبي، لقد قلت إنك ستفعل، والآن تقول إنك لن تفعل، إن هذا ليس عدلاً».

- ولكن كيف سنرسله، إذا كنا لا نعرف لمن نرسله؟

قالت السيدة سوانكورت في محاولة إنقاذ لابنة زوجها: «إذا أردت أن ترسل شيئاً كهذا فمن السهولة أن تقوم بذلك، وذلك بمغلف معنون بالتالي: «إلى ناقد كتاب كورة قلعة كليون، لاهتمام السيد رئيس تحرير جريدة البرزنت».

- نعم أعتقد ذلك.

استفسرت السيدة سوانكورت قائلة: «لماذا لا تكتبي الرد بنفسك يا ألفريدا؟».

قالت بتردد: «قد أفعل، وأرسله تحت اسم مجهول، وبهذه الطريقة فأنا أعامله كما عاملني».

- أليس مِن وسيلة أخرى!

- ولكن، لا أريده أن يعرف اسمي الحقيقي، أعتقد أنني سأستخدم الحروف الأولى من اسمي فقط، فكلما قلَّت المعلومات بشأنك وكنت غامضاً، زاد الاهتمام بك.

- نعم، يمكنكِ القيام بذلك.

بدأت ألفريدا بالعمل هنا وهناك، وكان هذا هدفها الذي تسعى لتحقيقه خلال الخمسة عشر يوماً الماضية. كما يحدث مع العقول الحساسة والمنعزلة، حيث يسكنهم أمر ما تم تضخيمه ليملأ الفضاء. وقد اعتقدت أنها احتلت أو ستحتل عقل الناقد الغامض، فكانت تبذل جهداً شديداً ليلاً ونهاراً ليتجلى بوضوح كينونتها امرأة بمعزل عن كونها كاتبة، بغض النظر عن احتقاره لها، أو اعتبارها امرأة عادية لم تخض غمار النقد الأدبي من قبل. فقد أحست بالرضا لشعورها بأنه في حال واجهها في أي مكان فسيقوم بتغيير الطريق، وستقوم بإزعاجه بتصرفاتها القاسية، وأحست بالبغض تجاهه ولو قليلاً.

بعد أربعة أيام وصلت رسالة إلى الآنسة سوانكورت معنونة بخط غريب، قالت ألفريدا وقد غاص قلبها بين جنبيها: «هل من الممكن أن تكون من الرجل؟ هل هي محاضرة عن الوقاحة؟». ورسالة أخرى إلى السيدة سوانكورت، بنفس خط اليد. خافت أن تفتحها. «كيف من الممكن أن يعرف اسمي؟ لا، إنه أحد آخر».

قال والدها متجهماً: «هراء، أنتِ أرسلت أحرف اسمك الأولى، والدليل كان موجوداً، ولا أظن أنه يكبِّد نفسه عناء البحث عن هذا إلا إذا كان يتعامل معك بوحشية. أعتقد أنك كتبت بطريقة

قاسية، بدلاً من النقاش الأدبي الهادئ». وقد قال القسيس هذا الكلام ليمنع نفسه من نقد الرجل تحت هذه الظروف.

قالت ألفريدا: «حسناً، سأفتح الرسالة» ومزقت الظرف.

قالت السيدة سوانكورت وهي ترفع رأسها عن رسالتها: «لقد نسيت أن أخبركَ يا كريستوفر، عندما ذكرت لك أنني التقيت بأحد أقربائي وهو هاري نايت، فقد قمت بدعوته إلى هنا لقضاء ما شاء من الوقت، وهو الآن يستفسر عن الوقت المناسب لمجيئه في آب (أغسطس)».

- اكتبي له ليأتي بداية الشهر.

- يا إلهي، إن هذا ليس كل شيء، في الواقع إنه الناقد الذي نقد كتاب ألفريدا، كم هذا سخيف فيكون صحيحاً. لم تكن عندي أي فكرة عن عمله في جريدة البرزنت أو حتى كونه ناقداً ينتقد الروايات، كنت أعتقد أنه يكتب في جريدة كوارترليز، لقد وضعتِ نفسكِ في موقف صعب، ماذا يقول لك؟

وضعت ألفريدا رسالتها على الطاولة وقد اكتسى وجهها بحمرة قانية وقالت: «لا أعرف، إن الفكرة... إنه يعرف اسمي وكل ما يتعلق بي... لم يقل شيئاً بالتحديد، ولكنه قال:

(إلى السيدة المحترمة،

على الرغم من أن ملاحظاتي لك، والتي يبدو أنها كانت قاسية، إلّا أنّني مسرور لأنها كانت السبب في إرسال ردّك المبدع المثير للجدل. وللأسف فقد كتبتُ هذا النقد منذ وقت طويل، ولا

تساعدني ذاكرتي في قول كلمة واحدة للدفاع عن فكرتي. أعتقد أنه بقي شيء عليّ ذكره، ستجدين في رسالةٍ أرسلتها للسيدة سوانكورت، أننا لسنا غرباء، بالقدر الذي تخيلناه، ومن المحتمل أن أحظى بشرف مقابلتك سريعاً، عندما تتم الاستعدادات من قبلكم، تحياتي)»

- هذه قمة السخرية، أعرف أنها كذلك.

- آه، لا يا ألفريدا.

قال السيد سوانكورت وهو يخفي ضحكة مكتومة: «إنه يعتقد أنك خائفة».

- سيأتي ويراني، ويجد أن المؤلفة بقدر ما هي تافهة في خطابها، فهي وقحة في أخلاقها، كم أتمنى من كل قلبي، أنني لم أكتب له كلمة واحدة.

قالت السيدة سوانكورت وهي تضحك أيضاً بصوت خفيض: «لا تشغلي بالك، سيكون اللقاء عبارة عن مسرحية ساخرة، وأنا ووالدك المشاهدون. ولا أستطيع التغلب على فكرة تآمرنا جميعاً على السيد نايت».

وتذكر القسيس حال نطقها الاسم فهو صديق ستيفن سميث ومعلّمه، ولم يذكر أي ملاحظة متعلقة بهذا الموضوع، ولم يلمح لأي صلة قد تثير استعادته للخطأ غير المَرْضِيّ عنه المتعلق بوضع ستيفن الطبقي.

وهذا الموضوع وقد أدركته ألفريدا زاد الأمور تعقيداً أكثر مما تراءى لزوجة أبيها.

لم تحسّن معرفة السيد نايت صورتَه عندها، على الرغم من تشوقها إلى رؤيته منذ سنة، وذلك لتعلق ستيفن الشديد به واحترامه له، ولسوء حظ السيد نايت فإن هذا التشوق قد تراجع بالنسبة إليها ولم يعد ذا أهمية.

إن الحادثة، وما رافقها من أمور متعلقة بالسيد نايت، كانت كفيلة بجعل دماغ ألفريدا مشغولاً إلى الحد الأقصى بالسيد نايت. وكعادتها على التجول وحدها بين الأشجار عند مواجهتها معضلة فقد كانت مستمرة بتمزيق ورق الشجر دون أن تزيلها عن الشجرة. مشت وحدها بين شجرات الحور وهناك وقفت ساكنة تمزق ورقة شجر دون أن تزيلها عن غصنها وتتذكر ما قاله ستيفن في نايت، كم تمنت لو أنها استمعت إلى جميع ما قاله، ثم أزالت ورقة الشجر واحمرّت وجنتاها بناءً على تخيلها لكيفية اللقاء مع السيد نايت وما سينتج عنه من مواقف خصوصاً بعدما كتبت له بهذه القسوة.

أخذت ألفريدا: تفكر بعد ذلك في هذا الرجل هل هو طويل، أم قصير، أبيض أم أسمر، سَمِح أم نَكِد؟ كانت قد قررت أن تسأل السيدة سوانكورت، ولكنها تراجعت في اللحظة الأخيرة، خوفاً من الملاحظات التي قد تبديها السيدة لإغاظتها.

قالت ألفريدا: «إن هذا الناقد بالنسبة إليّ كالطاعون»، وأدارت وجهها جهة الهند وقالت في نفسها، «آه يا زوجي الصغير، ماذا تفعل الآن؟ أين أنت الآن شمالاً، أو جنوباً، أم خلف ذلك التلّ، بعيداً بعيداً».

17

ترحيبها كان عبارات غزلية

أعلنت السيدة نايت في أحد الأيام: «ها هو السيد نايت».

كانتا في منطقة قريبة من الأبرشية، تطلان على الوادي الذي تم وصفه سابقاً بأنه يقود إلى البحر وبعيداً قليلاً عن قلعة بوتريل. إن الجبل الصخري الذي تقفان عليه يبدو كأنّ له وجه رجل، وكانت النباتات التي تشبه السياج كأنها لحية هذا الرجل، وكان الناس يعتمدون عليها في منعهم من التدحرج من أعلى الجبل.

بعد أن تطاولت ومدت عنقها ودققت بصرها رأت ألفريدا الشخصَ المذكور، كان يمشي مسروراً في ممرّ أخضر صغير في قاع الوادي، بجانب الجدول، تتدلى من جانبه حقيبة مدرسية، وبيده عصا يتوكأ عليها، وعلى رأسه قبعة بنية اللون؛ كانت الحقيبة مستعملة وذات جلد مهترئ ومجعد. وقد فضّل أن يمشي الميلين المتبقيين تاركاً حقائبه ليتم إحضارها فيما بعد. ويسير خلفه ولد خبير بمسالك الطريق وقد طلب منه نايت أن يرشده إلى أندلستو. وبحسب قوانين الفيزياء حيث تجذب الأجسام الكبيرة الأجسام الصغيرة، فقد كان

الصبي قريباً من نايت، كالكلب الصغير قرب نعليه، يصفر في أثناء مشيه، وعيناه مثبتتان على حذاء نايت كلما رفع قدميه وأنزلهما. وعندما وصل إلى نقطة استطاع أن يميز ما يقوم به من مكانه بين الشجيرات، توقف نايت مخاطباً الصبي: «انظر هنا أيها الصبي». فتح الصبي فمه، وعينيه ولم يقل شيئاً.

- هاك ستة بنسات، على شرط وهو ألّا تقترب مسافة عشرين ياردة من نعليّ طوال الطريق إلى أعلى الوادي.

أخذ الولد الستة بنسات وهو لا يدري أنه كان يراقب قدمي الرجل، وتابع نايت طريقه وهو ملفوف بعباءة التأمل.

حدّثت ألفريدا نفسها: «صوت جميل ومزاج انعزالي».

قالت السيدة سوانكورت برقة: «والآن، علينا أن نعود قبل أن يلحظ المنحدرَ ويرانا». وذهبتا في طريق مختصر ودخلتا الحديقة من باب جانبي.

كان السيد سوانكورت قد ذهب إلى القرية بالعربة، وكانت ألفريدا تحس بالتوتر الشديد بسبب وصول الضيف. وعندما دخلت السيدة الكبيرة البيت، بقيت ألفريدا في الحديقة ووقفت لمشاهدة الأزهار القرمزية، تأخرت قليلاً عند حوض الورود. وفكرت ألّا فائدة من هذا، وبعد دقائق دخلت بجرأة إلى الغرفة من الباب الزجاجي. وسارت عبر المرّ ودخلت غرفة الاستقبال حيث لم تجد أحداً.

سمعت صوت حديثهما من نافذة الغرفة الأخرى المطلة على الحديقة، وكم كانت مندهشة حين سمعته يسأل أسئلة بطريقة تلميذ

عن الحديقة والأزهار، التي كانت على دراية بها منذ أعوام. حيث توقعت أن يكون حديثه أكثر عمقاً.

وبعد أن تحدث عدة دقائق، اعتبرت أن هناك نوعاً من المكر في كيفية تكوينه لجمله، والمناقضة تماماً لجملها وجمل ستيفن. حيث تمتاز تلك بالبساطة والعفوية.

كانا الآن يقتربان من البيت بعد جولة في الحديقة.

قالت السيدة سوانكورت: «لأن هذه لها لون حمرة الخدود، إن نبات شجيرات الدفلى ذات حجم ضخم ولكن لها حساسية أيدي السيدات الشابات، آه، ها هي ألفريدا».

بدت ألفريدا كالمذنبة. قدمته السيدة سوانكورت بطريقة نصف هزلية، ووضع نايت نفسه بعد دقيقتين بجانب السيدة الصغيرة.

اعترت ألفريدا مشاعرُ متضاربة، وابتسمت ابتسامة ترحيب متحفظة في محاولة للمحافظة على رباطة جأشها.

تركتهما السيدة سوانكورت معاً بعد لحظات لتبحث عن زوجها.

لم يبد أي نوع من التأثر على السيد نايت، وقال ببساطة: «أخيراً لقد التقينا يا آنسة سوانكورت، فقد أوشكنا أن نلتقي بلندن، ولكنك كنت قد غادرت قبل وصولي بخمس دقائق».

- نعم، لقد عرفت أنك قابلت السيدة سوانكورت حينذاك.

وقال بعدم اهتمام: «والآن لقاء ناقد الناقد وجهاً لوجه».

- إن علاقة القربى التي تربطك بالسيدة سوانكورت كانت مفاجأة بالنسبة إلينا.

بدأت ألفريدا الآن باستعادة نفسها ونظرت في عينيه.

- لقد كنت تواقة إلى أن تعرف المعنى الحقيقي من وراء كتابي، كنت تواقة جداً إلى ذلك.

- إنني أفهم قصدك تماماً، وأنا مسرور جداً لأن ملاحظاتي وصلت المكان اللازم فهي نادراً ما تصل.

أدخلت ألفريدا نفسها في حوار جانبي حيث كان مصرّاً على رأيه بأن الصداقة والتهذيب لا يتطلّبان أي تنازل فيما بينهما.

قالت بهمهمة: «لقد جعلتني غير مستريحة وآسفة لأنني كتبت لك هذه الأشياء».

- هذا هو الهدف من النقد النزيه. ولا داعي إلى أي أسف. وأن تكوني آسفة بعد تصرف صحيح، يسبب لك الأذى دون داع. هل ستقومين بكتابة رواية أخرى؟

- أكتب واحدة أخرى؟ ليتم شجبها وإدانتها كما فعلت يا سيد نايت.

- قد تكتبين بشكل أفضل في المرة القادمة، وأعتقد أنك ستفعلين، ولكني أنصحك أن تكتبي بشأن الوضع الراهن.

- شكراً لك، لكن لا يمكن أن أقوم بذلك مجدداً.

- قد تكونين على حق، إن الكتابة ليست هي أفضل ما قد يسمعه الشخص بشأن الفتاة الشابة.

- ما هو أفضل ما يمكن أن يسمعه؟

- أفضِّل ألّا أذكرها.

- أرجو أن تخبرني بالأسباب!

- حسناً، (وكان واضحاً أنه يغير المعنى) أعتقد أن أفضل ما يمكن أن تسمعه بشأن الفتاة الشابة هو أخبار الزواج.

قالت ألفريدا بتردد في محاولة للانسحاب من الحوار: «وماذا بعد زواجها؟». فقال نايت: «إذن لنأخذ الحديث إلى اتجاه بعيد عنها كما قال المهندس العبقري سميتون في المنارات التي يشيدها: إن أفضل ما قيل فيها كمديح، وعندما يخفت بريق الإبداع الذي صاحب تدشينها، ولكن يبقي الحديث فيها حياً».

قالت ألفريدا برقة وبتفكير عميق: «نعم، أرى هذا، ولكن الموضوع مختلف تماماً مع الرجال. لِمَ لا تكتب رواية يا سيد نايت؟».

- لأنني لا أستطيع كتابة رواية قد تثير اهتمام أحد.

- ولماذا؟

- لعدة أسباب، أولاً، إن كتابة الرواية الجيدة يتطلب إسقاطاً لأفكارك الحقيقية بعمق وحكمة.

- هل هذا ضروري حقاً؟ أنا متأكدة أنك تستطيع أن تتعلم القيام بذلك بالتدريب، فأنت رجل ذو خبرة في هذا المجال. ومن المؤكد فإنك ستصنع اسماً جيداً وتكون مشهوراً.

فأجابها نايت: «العديد من الناس يصنعون اسماً هذه الأيام، ولكن الأكثر تميزاً هو أن يبقى غامضاً».

- أخبرني بجدية، بعيداً (عن موضوعنا هذا) لم لا تكتب مجلداً، بدل هذه المقالات المنفردة؟

- بما أنك مسرورة بأن جعلتني أتحدث بشأن نفسي فسأخبرك بجدية.

كان نايت مستمتعاً بهذه الدروس الشفهية من صديقته الشابة أكثر من اهتمامه بمظهرها، «كما كنت قد ذكرت سابقاً فأنا ليست لدي الرغبة، وإذا كانت لدي الرغبة، فأنا لا أستطيع التركيز بفاعلية، إننا جميعاً نمتلك طاقة، أُعطيت لنا لنحقق بها أفضل ما يمكن، ولكن أين ذهبت هذه الطاقة يوماً وراء يوم، أسبوعاً وراء أسبوع، فصلاً وراء فصل. كما حصل معي في السنوات العشر الأخيرة فليس لديّ الآن طاقة كافية للتزود بالقدرة على كتابة كتاب في أي موضوع كان، ولكن هناك الثقة بالنفس والقدرة على الانتظار حيث النتائج السريعة أصبحت عادة. وهي قاتلة للأماني القوية المستقبلية..».

- نعم، أستوعب هذا، إذن أنت اخترتَ أن تكتب بشكل مجزأ.

- لا، أنا لم أختر أن أكتب هكذا بالمعنى الذي تقصدينه. إن اختيار مهنة شي ممكن حدوثه، ولكنه حدث معي بالصدفة، ولا يعني هذا أنني أعترض على الصدفة.

«ولماذا لا تعترض؟ أعني لماذا عليك أن تحس بهذا الهدوء تجاه الأشياء؟» سألت ألفريدا هذه الأسئلة وهي خائفة، ولكن فضولها في معرفة حقيقة السيد نايت الداخلية كانت أكبر.

لم يعارض نايت أبداً في أن يكون صريحاً معها، إذ إن نماذج هذا النوع من الرجال، أولئك الذين لا يملكون مشاعر، والمتحفظون

بحكم العادة قد يتخلون عن هذا في حال وجدوا مستمِعاً لا يحاول بأي طريقة أن يقوم باستغلالهم، أو منافستهم، أو إدانتهم. إن أكثر الرجال تحفظاً وحرصاً يصبحون منفتحين حتى إنهم يستمتعون بهذا الجانب الداخلي من صراحتهم.

فاسترسل نايت معها قائلاً:

- لماذا لا أعترض على الصدفة وذلك لأنك في البدايات، فإن تكون مقيد الخيارات أفضل من ألّا يكون لك خيارات.

- حسناً، هذا إذا كنت قد فهمتُ فعلاً ما تعني هذه العموميات.

- لم هذا، إن هذا أساس اعتباطيّ لعمل المرء، حيث لا يتغير بطول الفترة الزمنية، ويترك اهتمام الشخص حراً ليعدل عمله تلقائياً، ويصنع منه أفضل ما يمكن.

فقالت ألفريدا بخبث: «الضغط الجانبي يجبر المرء على الارتفاع كما قد يقال في هذه اللغة، وحيث لا حدودَ، كما في حالة الرجل الغني الذي يتمتع بشهية واسعة، ويريد أن يقوم بعمل ما، فمن الأفضل أن يحظى المرة بنزوة محددة من أن لا يحظى بشيء».

فأجاب بتأمل: «نعم أعتقد هذا».

قالت ألفريدا: «أعتقد أن هذا أفضل لطبيعة الرجل من ألّا يقوم بأي عمل».

فأجابها نايت: «إن الالتزام قضية محددة».

فقالت ألفريدا: «نعم، لقد كنت أعنى في حالة عدم الالتزام بأي سبب عدا حب الشهرة، لقد كنت أفكر كثيراً مؤخراً في أهمية تحقيق المرء لقليل من السعادة أو السلام الآن، والتي أعتقد أنها أفضل بكثير من الأشياء المتوقعة في المستقبل البعيد».

قال نايت: «هذا ما قلته الآن بالضبط. إن هذا هو المبدأ الذي يتبعه كل العابرين العاملين أمثالي».

فقالت ألفريدا بارتباك: «آسفة، لأنني اتّبعت الأسلوب الساخر. من غير شك هذا ما كنتَ تعنيه بمحاولتك الابتعاد عن الشهرة».

ثم قالت ألفريدا التي من مميزات عقلها سرعة الاقتناع فقالت: «إن في محاولة المرء أن يكون عظيماً هو تقليل لذاته. يجب أن يفكر الشخص كثيراً في قيمته، وأن يكون ذا ثقة عالية بالنفس، قبل أن يخطو أي خطوة».

فقال نايت رداً عليها: «ولكن من السابق لأوانه القول إن الأذى قد يحصل للرجل الذي يعطي نفسه قيمة كبيرة، ويكتشف أنه على خطأ، ومن السابق لأوانه أيضاً أن نستنتج أن الشخص الذي يبذل جهوداً كبيرة للنجاح يقوم بهذا بإحساس قوي بالمميزات التي يملكها، وقد يكتشف ضآلة النجاح أمام هذه المميزات، ويكون هذا بالذات هو الدافع لإذلاله».

إن طريقة تعامله معها استفزتها، فما أن اتفقت معه في الرأي، حتى اتخذ الرأي المعاكس. وقالت في نفسها: «لا يوجد شيء ممكن عمله مع رجل كهذا، فبالمحصلة هو ضيفنا».

ثم قال نايت مسترسلاً في الحديث بأفكاره أكثر من محاولته إشراكها في الحديث: «أعتقد أنك ستجدين في الحياة العملية، أنّ من غريزة الرجال أنهم يسعون إلى الاستمرار فتجدين أنهم، دون قصد، ما أن يبدأ الواحد منهم بعمل حتى يقول لنفسه: بما أنني قمت بهذا القدر، فسأحاول القيام بأكثر منه قليلاً. ويستمر بالعمل لمجرد أنه قد بدأ به».

لم تكن ألفريدا في هذا الوقت منتبهة لما يقول، ويبدو أنها قد انكفأت إلى داخلها، إنها طريقتها في خطف أي ملاحظة تعجبها من الحوار، فهي تبدأ في تحليلها غافلة تماماً عن كل ما يقول. وأحياناً ما كانت تقيم المتحدِّث، وبعد ذلك كان هناك وقت للرسم. كانت عيناها تنظران إليك، وإلى ما بعدك، وكأنك هناك، وإلى مستقبلك، وما بعد مستقبلك، لا تقرؤه ولكن تحدق به بطريقة غير واعية في حين أن عقلها ما يزال متمسكاً بأفكاره الرئيسية.

بهذه الطريقة كانت تنظر إلى نايت.

فجأة، أحست ألفريدا بنفسها وانزعجت لذلك بشكل مؤلم، فقالت ببساطة مذهلة:

- ما كانت نواياك تجاهي؟

- كنت أفكر كم أنت رجل ذكي!

ثم شعرتْ بعدم الراحة، لأنها أحست بعفوية كلامها، فوقفت واتجهت إلى النافذة، حين تناهى إلى سمعها صوت القسيس والسيدة سوانكورت تحت الشرفة، «هاهما» وخرجت، فتبعها نايت،

ثم اتكأت على حافة الشرفة بالقرب من الدرابزين، ونظرت ناحية الشمس إلى حيث كان والدها يسير.

لم يمنع نايت نفسه من النظر إليها. كانت الشمس بزاوية عشر درجات في الأفق، فغمرت أشعتُها الدافئة وجهها مما زاد من احمرار وجنتيها، وكانت خصلات شعرها تتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف فوق كتفيها كلما هبت نسمة، وكانت شرائط فستانها وشبره تتحرك عند هبوب نفس النسمة.

رحب السيد سوانكورت بنايت من مسافة ثلاثين ياردة. وبعد تجاذب أطراف الحديث بشأن العائلة وأصولها ونسبها وصلت حقائب السيد نايت، ودخلوا انتظاراً للعشاء، الذي تأخر عن موعده المعتاد ساعتين.

إن وصول السيد نايت كان حدثاً مهماً في حياة ألفريدا، وكانت تلك الليلة الأولى التي تخلد فيها إلى النوم دون أن تفكر في ستيفن.

* * *

18

سمع موسيقى بنطالها

إن هذه هي الأسابيع الأخيرة لبرج كنيسة أندلستو الغربية، فسيتم استبداله ببرج آخر من تصميم السيد هيوبي، المهندس الذي أرسل ستيفن في وقت سابق، وصلت الأعمدة والألواح الخشبية ساحة الكنيسة، غرزت قضبان الحديد في الصدع المَهيب الممتد من الأسفل إلى حائط برج الجرس وإلى الأساسات. أزيلت الأجراس، هَجَرَتْ طيور البوم مساكنها، استقر محطمو التماثيل بملابسهم البيضاء في القرية، الليلة السابقة، ليباشروا عملهم في تحطيم التماثيل.

في اليوم التالي لوصول السيد نايت، قرروا جميعاً: السيد والسيدة سوانكورت وألفريدا والسيد نايت صعود البرج للاستمتاع بمنظر البحر من الأعلى وذلك للمرة الأخيرة. صعد السيد سوانكورت الدرج وهو يلهث، وزوجته تصارع وتعاني أكثر منه ولكن بصمت، وما أن وصلوا القمة حتى ظهرت في اتجاههم غيمة داكنة اللون يبدو أنها محملة بالمطر، والبرق، والرعد قادمة من الشمال. اقترح كبيرا السن العودة وأنهما سيتعاملان مع الأمر كنوع من الرياضة.

قالت السيدة سوانكورت: «يا إلهي أتمنى لو لم آتي!».

قال القسيس: «نحن سنكون أبطأ منكما أنتما الاثنين، فلا تنزلا حتى نصل إلى القاع، وإلّا ستدوسانا بأرجلكم وتكسران أعناقنا في عتمة البرج. انتظرت ألفريدا ونايت، إلى أن يصبح الدرج خالياً، لم يكن نايت في مزاج للكلام هذا الصباح، بعكس ألفريدا التي كانت مستعدة للتحدث وقد اعتقدت أنه يعتبرها غير جديرة بحديثه.

وقف نايت يراقب الغيمة وأشاحت هي بوجهها إلى الاتجاه الآخر، وقد تذكرت ما قامت به من بطولة منذ سنة، حيث مشت على حافة الشرفة، والتي كانت دون حواجز، وذات سطح أملس بعرض قدمين حول جهات البرج الأربع. ودون أن تبدي أي إشارة إلى ما كانت تنوي عمله، فتقدمت نحو الحافة كما فعلت سابقاً وبدأت بالسير.

قالت السيدة سوانكورت: «لقد نزلنا، اتبعونا عندما تريدون».

استدار نايت ورأى ألفريدا التي بدأت دورتها، وقد احمرّ وجهه من الغضب والخوف عليها واتهمها بالطيش والاندفاع.

– لقد اعتقدت أنك أكثر اتزاناً من هذا.

احمرّ وجهها قليلاً واستمرت بالسير.

قال: «إنني أصرّ يا آنسة سوانكورت أن تنزلي».

– سأنزل خلال دقيقة، إنني بأمان لقد قمت بهذا مراراً.

إن وقع كلماته أفقدها القليل من تركيزها، فقد اشتبكت قدمها ببعض الأعشاب التي نمت في تجويف إحدى الصخور،

وكادت أن تفقد توازنها. هرع إليها نايت بفزع، وقفزت إلى الجزء الداخلي من الحافة وتدحرجت مسافة قدمين بعيداً عن الحائط.

قال نايت: «لم أقابل في حياتي امرأة تقوم بعمل بهذه الحماقة، يا إلهي عليك أن تخجلي من نفسك».

إن اقتراب شبح الموت منها جعلها تشعر بالغثيان، وشحبت شحوب الجثث، أغمي عليها في اللحظة التي أمسكها بها، وقد كان لكلماته وقع قويّ عليها... لم تغمض عيناها لأكثر من أربعين ثانية، فتحت عينيها وتذكرت الموقف تماماً، وتغيرت تقاسيم وجهه من الغضب إلى الشفقة، ولكن ملاحظته السابقة أخافتها، وحاولت أن تتحرر من بين ذراعيه.

- إذا كان بإمكانك الوقوف.

وتركها تذهب.

- في الواقع إنني لا أعرف هل أضحك من غرابتك، أم أؤنبكِ لغبائكِ.

قالت بعبارات غير مترابطة: «إنني خائفة فقط، ضعني على الأرض، ضعني على الأرض لو سمحتَ».

- ولكنك لا تستطيعين المشي.

- ولكنكَ لا تعرف إذا كنت أستطيع المشي أو لا، وكيف لك أن تعرف؟ إنني خائفة ليس إلّا.

ورفعت يدها إلى جبهتها، عند ذلك رأى نايت أنها تنزف من جرح في رسغها، ويبدو أنها قد شعرت به الآن للمرة الأولى،

وفقدت الوعي مرة أخرى دقيقة واحدة. ربط نايت منديله حول الجرح، وبدأت حبات المطر الثقيلة بالتساقط مما زاد الوضع تعقيداً. نظر نايت ورأى السيد سوانكورت يقترب من البيت والسيدة سوانكورت تتبعه كالبطة الثقيلة.

- بما أنك ضعيفة جداً فمن الأفضل أن تدعيني أحملك إلى الأسفل أو على الأقل بعيداً عن المطر.

ولكن إصرارها على عدم الحمل لم يمكنه من إسنادها لأكثر من بضع خطوات.

قال وهو يُجْلسها: «إن هذا غباء، غباء كبير».

قالت بصوت منخفض والدموع في عينيها حقاً: «أنا أقول إنك لن تحملني، وأنت تقول إن هذه حماقة».

- إنها كذلك.

- لا ليست كذلك.

- إنها حماقة على ما أعتقد، وهي سبب كل هذا.

- لا أوافق على هذا، وليس لك أن تغضب عليّ فأنا لا أستحق غضبك هذا.

- من غير ريب فأنت تستحقين هذا، إنك تستحقين عداوة الأميرات، كما قيل لإحداهن. والآن، هلّا وضعت يدك حول عنقي لأتمكن من حملك دون إيذائك.

- لا.. لا..

- عليك ذلك وإلا فسأجبرك.

- وكيف ذلك؟

- سأحرمك من فرصتك.

كادت ألفريدا أن تقع.

- لا تتقلبي عندما أحملك.

- لا أستطيع ذلك.

وأخيراً استسلمت للأمر.

غمغمت: «لا يهمني، لا يهمني».

أغمضت عيناها، حملها بين ذراعيه، وببطء وحذر دار بها دورة وراء دورة، وبرقةِ عناية الأم ولطفها تقدم إلى الجرح الذي بذراعها وفي أثناء هذا التطور في معالجة الجرح تغير لون وجهها من الشحوب إلى عزة النفس التي تُرجِمت بخلجات صغيرة وارتعادات متفرقة.

ظهرت على كل وجنة بقعة حمراء ما لبثت أن اتسعت، وتوقعت ألفريدا محاضرة مطولة في حماقتها، ولكن نايت لم يقل سوى: «عديني ألّا تسيري فوق حافة الشرفة مرة أخرى!!».

«ستتم إزالته قريباً، لذا نعم، أعد بهذا». وأكملت بعد دقائق بصوت خفيض وجاد:

- إنك على دراية من غير شك كما الجميع، بهذه الأحاسيس الغريبة التي تنتابنا أحياناً، بأن حياتنا مكررة.

أي أننا مررنا بهذه اللحظات من قبل، أو سنمر بها، لقد شعرتُ وأنا على البرج بأن وضعاً كهذا سيحدث معنا نحن الاثنين مرة أخرى!

- لا سمح الله، عديني بألّا تسيري مرة أخرى أبداً على أي سطح مرتفع!

- أعدك.

- هذا الشيء لم يحدث سابقاً نحن نعلم ذلك، ولكن لن يحدث مستقبلاً، سنعمل على ألّا يحدث. لذا لا تفكري بهذه الحماقات مجدداً.

لقد أمطرت السماء بشكل شديد، ولم يكن هناك برق، وانتهت العاصفة بسرعة.

- أمسكي ذراعي الآن؟

- لا، إن هذا غير ضروري.

- إن سبب هذه الانتكاسة الارتجاعية هو نعتها بالحمقاء مرة أخرى.

- هراء، ستمطر بشدة بعد قليل، وأنت لم تتعافي تماماً.

أخذ نايت يدها تحت ذراعه بشدة وبهدوء، ولم تكن لتستطيع أن تتحرر دون صراع. اقتيدت كالمِعزى الذاهبة إلى المسلخ، كانت خائفة من أن يكون غاضباً. وكم كانت مسرورة عندما رأت العربة قادمة لإحضارهما.

كان سقوطها عن السطح هو سبب إصابتها ولكن لم يتطرق أي منهما إلى أسباب هذا السقوط، لم تخرج ألفريدا طوال المساء ولكن عند العشاء ظهرت مشرقة كما هو حالها دائماً.

في المساء، وقد انشغل نايت بالحديث مع السيد والسيدة سوانكورت، إلّا أنه وجد نفسه يميل إلى الحديث مع ألفريدا. كانت تقف أمام حركة من حركات الشطرنج في إحدى المجلات.

- أتحبين الشطرنج يا آنسة سوانكورت؟

- نعم بالتأكيد، إنها لعبتي العلمية المفضلة، والتي تسبق أي لعبة أخرى. هل تلعب؟

- لقد لعبتُها من قبل، ولكن ليس مؤخراً.

قال القسيس: «قومي إلى تحدّيه يا ألفريدا، إنها تلعب بشكل جيد بالنسبة إلى فتاة».

قالت ألفريدا: «هل نلعب؟».

- من غير ريب، يسرني ذلك.

بدأت اللعبة، وكان السيد سوانكورت قد نسي أن هذا الموقف قد حدث مع ستيفن العام الماضي، ولكن ألفريدا لم تنسَ.

وضع نايت القلعة تحت ذراع أحد بيادق ألفريدا، في حركة تمتاز ببُعد نظر لا يغتفر، وهي التي تؤدي أحياناً إلى هزيمة الخصم. كانت هذه أول فرصة جيدة لها وقد أحست بالانتصار والقسوة.

قال نايت بهدوء ماكر: «يا جورج، فيم كنت أفكر»، ثم تجاهل كل ما يتعلق بالوضع.

قالت ألفريدا: «سنلعب حسب قوانين النادي، يا سيد نايت؟».

قال نايت: «نعم بالتأكيد».

وقد غض النظر مرة أو مرتين عن محاولتها إقناعه بأن ما تقوم به هو تخبط مطلق. وفوراً، فقد تناولت القلعة واستمرت اللعبة، وكانت تحلم بالفوز ولكنه فاز بتبديل بعض الأحجار، واستعاد وضعه. وبدأ يضغط عليها بشدة، زادت عصبية ألفريدا ووضعت ملكتها في متناول قلعته.

«يا لغبائي، لم أرَ قلعتك، لا يضع الملكة في هذا المكان متعمداً إلا غبي». قالت هذا بحماس وغير متأكدة من أن خصمها سيسمح لها بالتراجع عن هذه الحركة.

«من غير شك، لا أحد». ومدّ يده إلى الملكة.

- ليس جميلاً أن تستغل الوضع بهذه الطريقة.

- أعتقد أنك قلت، قوانين النادي.

وتجهّز للانقضاض على الملكة دون شفقة.

كانت توشك أن تتجهّم وتعبس، ولكنها خجلت أن يراها. وقفت الدموع في مقلتيها. لقد حاولت بجهد شديد وبذلت جهوداً جبارة، وفكرت وفكرت وفكرت حتى كاد دماغها يتفجر. إنها قسوة منه أن يعاملها بهذه الطريقة بعد كل هذا.

- أعتقد أنه كذلك.

- ما هو؟

- من القسوة أن تستغل غلطة بريئة، بهذه الطريقة.

- لقد خسرت قلعتي بغلطة أكثر براءة.

- نعم... ولكن...

على أي حال كان من الصعب الرد على حججه. «لا أستطيع أن أتحمل قوانين النادي الدموية للاعبين المحترفين، مثل ستانتون ومورفي، وكأن للأمر أهمية أن ترفع أصابعك أو لا ترفعها على أحد!».

ابتسم نايت بشفقة وأخلدا إلى الصمت.

قال نايت منهياً اللعبة: «مات الشاه».

- لعبة أخرى؟

- من كل قلبي.

بعد أربعين دقيقة أنهى نايت اللعبة مرة أخرى قائلاً: «مات الشاه».

قالت بإصرار: «لعبة أخرى».

قال نايت برقة: «سأعطيك حق الفوز».

- لا، شكراً.

ردت ألفريدا بطريقة تعمدت أن تكون مهذبة، ولكنها كانت في حقيقتها طريقة متعجرفة.

قال نايت ببرود: «مات الشاه».

إن الفرق كبير بين حالة ألفريدا العقلية الآن، وبين حالتها عندما تعمدت عمل الأخطاء ليتمكن ستيفن من الفوز.

حان وقت النوم وكان ذهنها مشتتاً إلى درجة أنه كاد يقفز من رأسها. ذهبت إلى غرفتها، وهي تعلم أنها قد هُزِمت مرة تلو مرة تلو مرة، في الوقت الذي كانت هي من طلب التحدّي وسعى إليه.

كانت تستمتع خلال السنتين الماضيتين، وبرأي الجميع، فإنها تمتلك عقل أبيها، الذي حدد عالمها بأكمله، وأنها لاعبة ممتازة؛ كان عذابها لا يُحتمَل؛ فقد كانت كالشخص الذي كان قضى عمره مؤمناً باعتقاد زائف، ثم اكتشف فجأة وبكل الطرق أنه على خطأ.

ليلتئذ، لم يغمض لها جفن، وتقلبت على غيمة من القلق، في حدود الساعة الثانية خطرت لها فكرة، نهضت بخفة، وأشعلت الضوء، وأحضرت من المكتبة كتاباً، عنوانه تدريب عملي على لعبة الشطرنج. وبدأت في قراءة كل تطبيق عملي على كل خدعة إلى أن أصبحت الساعة الخامسة، ثقلت عيناها، فأطفأت النور وأخلدت إلى النوم.

قالت السيدة سوانكورت في الصباح التالي على الإفطار: «إنك تبدين شاحبة يا ألفريدا، أليس كذلك يا ابن العم هاري؟».

من السهولة ملاحظة هذا وخصوصاً إذا كان متعلقاً بفتاة ذات صحة جيدة وقليلاً ما تمرض. توجهت الأنظار إلى ألفريدا بعد هذه الملاحظة، فقد بدت شاحبة فعلاً.

- هل أنا شاحبة حقاً؟ لم أنم ليلة البارحة، لم أستطع إخراج الفيلة والقلاع والمعارك والجنود من دماغي، على الرغم من المحاولات العديدة.

قالت السيدة سوانكورت: «إن لعب الشطرنج في المساء سيئ جداً. وخصوصاً لفتاة حساسة مثلك. مرة أخرى لا تلعبي الشطرنج في المساء قبل النوم».

قالت مقلدة السيدة سوانكورت: «سألعب في الصباح إذن يا ابن العم هاري!!».

- هل تشاركني في شيء؟

- في نصف مملكتي.

- حسناً، في لعبة شطرنج أخرى.

- متى؟

- الآن، ما أن ننتهي من الإفطار.

قال والدها: «من السخف أن تجعلي نفسك عبدة لهذه اللعبة».

- ولكني أريد هذا بشدة يا أبي، فأنا لم أشعر بطعم الراحة بعد هذه الهزيمة الشائنة، والسيد نايت يبدو أنه لا يمانع، فما الضير في هذا؟

قال نايت: «لنلعب بكل الطرق، إذا رغبتِ في هذا؟».

وما أن انتهى الإفطار حتى انسحب الخصمان بهدوء إلى المكتبة، وأغلقا الباب. كان لدى ألفريدا اعتقاد وهو أن خصمها لا يعاني من الضغوط النفسية التي تعيشها، حتى إنها شعرت وكأنّ نظرة من التسلية عبرت وجهه لإصرارها على اللعب مرة أخرى.

- لا بدّ أنك تعتقد أنني حمقاء، ولكن عليَّ المرَّة الأخيرة أن أبذل جهودي، وأرى إن كان بإمكاني هزيمتك.

- هذا شيء طبيعي جداً، ولكن ليست هذه طريقة المرأة في تقبل الهزيمة. حيث إنهن لا يأتين على ذكر الهزيمة أبداً.

- يبدو أنني مرة أخرى على خطأ.

- يبدو أن خطأك أفضل وأكثر بهجة من الصحيح الذي يدّعينه.

قالت وهي تنظر إليه بعدم ثقة: «لا أعرف حقاً إذا كنت تقصد هذا، أو تهزأ بي». وتابعت: «أعتقد أنك تعتبر أنه من الغرور لشخص مثلي أن يعتبر نفسه خصماً لك، ولكنني أقول لك إنه لا بأس ببعض الغرور».

- نعم، مع أن الغرور ليس فضيلة.

- نعم، في المعارك، إن شجاعة نيلسون كانت في غروره.

- بالفعل وكذلك كانت في موته.

- لا، لا، فحسب ما هو مذكور في كتب وليام شكسبير:

الخوف من القتل؟ هو أكثر ما قد يأتي من الحروب.
أن تقاتل وأن تموت، وهل يدمر الموت الموت.

جلسا، وبدأت المعركة، وحظيت ألفريدا بالحركة الأولى.

دقّ قلب ألفريدا بعنف منعها من البقاء ساكنة، وكانت تتمنى ألّا يسمعها ولكنه لاحظها عندما اهتزت لنبضها الأزهار الموضوعة في زهرية على الطاولة.

قال وهو ينظر إليها برقة: «أعتقد أن علينا أن نتوقف. فهذا كثير عليك، سنكتب على ورقةٍ مواقعَ الأحجار ونكمل في وقت آخر».

- لا، أرجوك لن أستريح حتى أعرف النتيجة فوراً، إنه دورك.

وبعد مرور عشر دقائق. وقفت فجأة وهي تغلي من الغضب:

- أعرف ما تحاول عمله، إنك تحاول أن تجعلني أفوز لترضيني.

قال نايت ببرود قاس: «لا أنكر أنني كنت أفعل ذلك».

- ولكن، أرجوك لا تفعل، فلن أقبل بهذا.

- حسناً.

- إن هذا لا ينفع، وأنا أصر على أن تعدني بألّا تقوم بعمل سخيف آخر كهذا، ففيه إهانة شديدة لي.

- حسناً يا سيدة، لن أقوم بعمل سخيف كهذا. وأنت لن تفوزي.

قالت بتفاخر: «إن هذا يحتاج إلى إثبات». واستمرت اللعبة. لم يسمع أي صوت سوى حركة الأحجار على رقعة الشطرنج. بعد عشر دقائق، أَسَرَ فارسها، أخذت فارسه، وبعد عشر دقائق أخرى أخذت بيدقه وكانت أفضليتها في هذا قليلة. بعد خمس دقائق أخذ الوزيرَ، استرجعت بعض القطع بتبديلها بفارسه، وتتجرأ بعد ثلاث دقائق وتأخذ الملكة، ويأخذ هو ملكتها. وبمرور عشر دقائق يأخذ بيدقاً، وبعد عشر أخرى يأخذ بيدقاً آخر. ويقول «مات الشاه».

يحمرّ وجهها وتلهّي نفسها بالقبض على وزيره وتشعر بالنصر، ويأخذ وزيرها فوراً وتشعر بالدهشة، بعد خمس دقائق أخرى تأخذ وزيرها، ويرد عليها بأن يأخذ فارسها الأخير. بعد دقيقتين يقول: «مات الشاه». إن دماغها الآن في حالة غليان. تغطي وجهها بيديها،

بعد دقيقتين، أخذ قلعتها وقال: «مات الشاه» مرة أخرى، إنها ترتعد الآن، فالمفاجأة التي جهزتها له كانت في مواجهة مفاجأة أشرس كان قد جهّزها لها.

قالت بعد خمس دقائق: «سيموت الشاه بعد حركتين».

- إذا استطعت ذلك!

قال نايت فرحاً بفوزه: «مات الشاه».

- يا إلهي، لقد أخطأت حساباتي، إن هذه قسوة. نهضت ألفريدا بغضب واستدارت دون أن تسمح له برؤية وجهها وهرعت إلى غرفتها، ورمت نفسها على سريرها، تنتحب بشدة.

سأل والدها وقت الغداء: «أين ألفريدا؟».

أصاخ نايت سمعه، فقد كان يتمنى أن يراها قبل هذا الوقت. كان الرد: «إنها ليست بخير يا سيدي».

نهضت السيدة سوانكورت، وتركت الغرفة متجهة إلى غرفة ألفريدا في الطابق العلوي.

كانت يونتي، خادمة ألفريدا ومدبرة المنزل، تقف على الباب.

قالت يونتي بهمس: «يبدو أنها نائمة. يا سيدتي».

فتحت السيدة سوانكورت الباب وكانت ألفريدا على سريرها بكل ملابسها ووجهها أحمر وحار وذراعاها إلى جانبها وكانت تتقلب كل دقيقة وتتمتم بكلمات تتعلق بالشطرنج.

أحضرت السيدة سوانكورت الطبيب الذي فحص نبضها، وكان سريعاً يقارب المائة والخمسين في الدقيقة. أزاحت الفتاة برقة إلى وضع أكثر راحة وعادت إلى الطابق الأول.

قالت السيدة سوانكورت: «إنها نائمة الآن، إنها لا تبدو بصحة جيدة. بماذا كنت تفكر يا ابن العم هاري، إن عقلها الرقيق لا يقوى على مقارعة عقلك العظيم. كان عليك أن تمنعها من اللعب مرة أخرى».

في الحقيقة إن خبرته الحقيقية بطبيعة النساء الشابات كانت بعيدة كثيراً عن خبرته العملية، التي أثبت بأنه لا يمتلكها.

قال نايت وهو يشعر بالأسى: «إنني حقاً آسف، ولكن من المؤكد أن السيدة الشابة تعرف ما هو الأفضل لها».

قالت السيدة سوانكورت: «ليحفظك الله، إن هذا بالتحديد الذي لا تعرفه، أليس كذلك يا كرستوفر؟ دائماً ما نقوم بتقويمها أنا ووالدها، كما تفعل مع ولد صغير، قد تقول هي حِكَماً في اللغة الفرنسية، ولكنها تتصرف كعصفور في البيت الزجاجي».

سنرسل في طلب الدكتور جرانسون. غادر رجل فوراً على جواد إلى قلعة بوتريل، وجاء الدكتور جرانسون في المساء. وأعلن عن اضطراب في جهازها العصبي، وأعطاها وصفات مهدئة، وأصدر أوامره بعدم لعبة للشطرنج أبداً بعد الآن..

في الصباح التالي كان نايت مستاءً من نفسه، كان ينتظرها على الإفطار بفارغ الصبر، جاءت خادمتان للصلاة. حضرت الخادمتان

بشكل متفرق، وكلما جاءت واحدة لم يكن ليستطيع أن يمنع نفسه من الالتفات على أمل أن تكون ألفريدا.

بدأ السيد سوانكورت الصلاة دونها، انسلّ أحد ما دون إحداث ضجة، رفع نايت رأسه فكانت خادمة المطبخ، كان نايت يمل من قراءة الصلوات. خرج وحيداً وأول مرة في حياته لم يجد في تأمله لسحر الطبيعة أي عزاء، رأى صديقته بالقرب من البيت، تعبر المنحدر الذي يقود إلى الطريق الذي كان يسير فيه. التقيا في زاوية الحقل. ما أن رأته حتى ابتهجت وخجلت.

كان نايت يحمل دفتر ملاحظاته في يده، وكان يوشك أن يدوِّن فيه بعض الملاحظات حين رآها، ترك تدوين الجملة التي كان في منتصفها، ورحَّب بها مستفسراً عن صحتها. قالت إن صحتها جيدة ولم تكن في يوم أفضل من الآن. إن صحتها متقلبة كأفعالها، كانت شفتاها حمراوين بلون الكرز دون صباغ، ويمتزج ببياض بشرتها، ووقفت كأنها آخر شخص في العالم قد تهده لعبة شطرنج، بسبب نظرتها العابرة لتلعب مرة أخرى.

«هل تدوِّن الملاحظات؟» سألت ليس لاهتمامها بالموضوع بقدر اهتمامها بإبعاد نفسها عن أفكاره.

«نعم إنني أحاول أن أجد مدخلاً سأكمله بعد إذنك»، ووقف بعدها ساكناً وبدأ يكتب. بقيت ألفريدا إلى جانبه برهةً، ثم تابعت طريقها.

عادت إليه وقالت: «عليّ أن أعرف جميع أسرار الكتاب».

- لا أعتقد أنك ستجدين فيه ما يثير اهتمامك.

- أعرف، ولكن أريد أن أراها.

- ثم، من غير شك فليس عندي ما أضيفه.

- ولكنّي أسأل أولاً: هل هو كتاب في الحقائق المتعلقة بالرحلات والأنفاق وما إلى ذلك، أو كتاب في الأفكار؟

- حسناً، في الحقيقة إنه ليس أيهما. إنه خربشات لمقالات ومواد غير متصلة أو مترابطة، وهي ليست بذات أهمية لأحد سواي.

- إنها تحتوي على ما أعتقد نواة أفكارك.

- نعم.

- إذا كانت بتلك الأهمية عندما تتطور وتصبح مقالات. فكيف يكون حالها وهي في هذا الشكل المختزل؟

- أرواح رقيقة نقية فوق مستوى الشبهات، قبل أن تنزل إلى مستوى فهم البشر وتصبح بالتأكيد «كلمات حارقة».

- إنها كالبالون قبل نفخه: ميتة، دون شكل لا تستطيعين قراءتها.

- هل بإمكاني قراءتها؟ لقد كتبت روايتي بنفس الطريقة، أقصد على دفعات، في الخارج. وأحب أن أعرف إذا كانت طريقتك في الدخول إلى الأفكار تشبه طريقتي.

- حقاً، إن هذا لطلب غير ملائم، ولا أعتقد أن بإمكاني أن أرفض الآن وقد سألت بهذه الطريقة الفورية، ولكن...

- هل تعتقد أنني قليلة التهذيب بسؤالي هذا؟ ولكن عندي ما يبرر فعلتي، وهو كتابتك في حضرتي. إذا ما قمت بإلقاء النظر على كتابك، لاختلف الوضع، ولكن أن تقف أمامي وتقول، اعذريني دون اعتبار إذا قمت بعذرك فعلاً، أم لم أفعل، وتستمر بالكتابة، وتقول لي إنها ليست حقائق خاصة وإنما أفكار عامة.

- حسناً، يا آنسة إذا أصررتِ على قراءتها فأنا لست مسؤولاً عن شيء وتتحمّلين أنتِ ما يترتب على ذلك من عواقب. وتذكري أنني حذرتك من الاقتراب من كتابي.

- وهل أعتبر هذا التحذير مثابة إذن لقراءة الكتاب؟

- نعم.

ترددت قليلاً، نظرت إلى يديه، وقالت ضاحكة: «عليّ أن أراه، ثم سحبته من يده».

عاد نايت إلى البيت وتركها واقفة في الطريق تقلب الصفحات، وما أن وصل إلى البوابة، حتى رآها تتحرك في اتجاهه، فوقف ينتظرها.

كانت ألفريدا تحمل الكتاب في أصابعها وقد أغلقته، وكان وجهها مليئاً بالغيظ. ناولته الكتاب بصَمْت ولم ترفع عينيها أكثر من مستوى يدها.

قالت بسرعة: «خذه، لا أريد قراءته».

قال نايت: «هل واجهت صعوبة في فهم معانيه؟».

- بقدر ما قرأت منه، ولكنني لم أهتمّ بالقراءة أكثر.

– لماذا يا آنسة سوانكورت؟

– لأنني لم أرغب في ذلك، هذا كل ما في الأمر.

– لقد حذرتك.

– نعم، ولكنني لم أعتقد أنك ستضعني هناك.

– إن اسمك غير مذكور في أي زاوية من زوايا الكتاب الأربعة.

– ليس بالاسم أعلم هذا.

– ولا بالشكل، ولا بأي طريقة يمكن لأي أحد أن يميزك بها.

صاحت ألفريدا: «إلا أنا»، وأخذت الكتاب من يده وفتحت الكتاب على الصفحة المؤرخة بـ 7 من آب (أغسطس) أي أول أمس، «ولكني لن أقرأه»، وأغلقت الكتاب مرة ثانية بامتعاض شديد: «ولماذا عليّ قراءته؟ ليس من حقي أن أطلع على كتابك، وهو يتحدث بشأني».

لم يتذكر نايت ما كتب، وفتح الكتاب ليرى وقرأ التالي:

«السابع من آب (أغسطس)، فتاة على أعتاب المراهقة، وقد بدأ وعيها الذاتي بالتبلور، بعد مرور فترة طفولتها البريئة.

في البداية كانت بسيطة، عفوية، شابة وبريئة. ولكن الشخص الدقيق الملاحظة يجد أن هذا الوعي قد نضج عن طريق المهارة التي اكتسبتها في الأسلوب والطريق إلى نجاحه، وهو أسلوب المواربة، وغالباً ما تبدأ بنوع من التصرفات التي يطلق عليها مصطلح

«الاستعراض»، وهذا الأسلوب يتم اكتسابه في كل حالة بناءً على الميل النفسي، والوضع الاجتماعي، ومكان السكن.

فتاة ريفية المولد ستضع بعض التناقضات الأخلاقية على الرجال الأوفياء أو على الحب.

جميلة ريفية، تتبني أكثر طرق التواصل مادية، أو تجعل الدم يتجمد في عروقك في محاولة إنقاذ حياتها. (ملاحظة، فوق برج أندلستو) إن السبب وراء هذه العروض هو الغرور البريء «انظر إليّ» هذا ما تقوله البدايات الأولية في المكر النسائي، دون أن تعكس فيما إذا كان أو لم يكن من صالحهن أن يُظهرن الكثير من دواخل أنفسهن».

قال نايت: «نعم، إني أتذكر الآن، أن هذه الملاحظات قد دوَّنتها بعد مناوراتك على برج الكنيسة». وتابع مشجعاً بعد أن رأى نظراتها الجريحة «ولكن عليك ألّا تفكري كثيراً في هذه الملاحظات العشوائية؛ مجرد فكرة عابرة مرت بخاطري، افترضت أنها ذات أهمية متكلفة لك، وذلك لأنها اكتسبت ديمومتها بتدوينها على الورق. إن جميع البشر يفكرون أفكاراً سلبية كهذه في من يحبونهم أكثر من أي شيء آخر في الدنيا، ولكن هذه الأفكار لم تكتب أو لم توثق على الورق، وهذا ما جعلها كأنها لم تكن أبداً».

- وأنا أجرؤ على القول إنكِ أنتِ نفسك تملكين العديد من الملاحظات السلبية بشأني. والتي ستكون أكثر سوءاً من هذه إذا ما كتبت. أتحداك أن تخبريني.

- أكثر أمر سيئ فيك؟

- نعم.

- هل عليّ أن أقول؟

- نعم.

- أعتقد أن كتفك في انحناء.

بدا نايت أكثر احمراراً.

- وأن هناك مساحة من الصلع فوق جبينك.

ضحك نايت ضحكة كان واضحاً فيها الشعور بالغيظ: «إنهما عيبان لا يمكن إصلاحهما، وإنهما في اعتقادي أكثر سوءاً في أعين النساء من الأفكار الذاتية».

قالت، بطريقة تكشف قلة خبرتها بالمواربة ومداراة حزنها وعدم غفرانها ملاحظته: «نعم إن هذا صحيح»، وأضافت، «لقد أشرت إليّ في البداية كما لو أنني فتاة صغيرة، هذا ما يفعله الجميع ولا أعرف السبب، إنني امرأة بالغة. كم تظن أنني أبلغ من العمر؟».

- كم عمركِ؟ سبعة عشر عاماً. إن جميع الفتيات في السابعة عشرة.

- أنت على خطأ أنا أقترب من التاسعة عشرة. أي نوع من النساء تفضل اللواتي يبدين أصغر أم اللواتي يبدين أكبر من أعمارهن الحقيقية؟

- أنا أفضل اللواتي يبدين أكبر.

- إذن، فهي ليست من النوع الذي يفضله.

- ولكنه من المعروف، أن الطبيعة كلما كانت أبطأ في التطور كلما كانت أغزر في الإنتاج، وأعني إن الشباب والفتيات الذين يصبحون رجالاً ونساء قبل أن يصلوا سن النضوج يشيخون ويفنون أسرع من أولئك الذين يبدون أصغر من عمرهم.

- نعم، إن هناك وجهة نظر في هذه الملاحظة، ولكن معذرة للإساءة، إن المرأة التي تبدو أقل نضجاً من عمرها قد لا يكون السبب بطئاً في التطور، ولكن ضعفاً في التطور فقد تكون قد استهلكت قدرتها على التطور.

خابت آمال ألفريدا، وكانوا قد وصلوا إلى داخل البيت، وكانت السيدة سوانكورت في غرفة الجلوس، وما أن أحست بجلبتهما حتى أخلت الغرفة لتفسح لهما المجال، فقد أحست بحدسها أن هناك شيئاً ما يدور بينهما.

توجه نايت إلى مكان المدفأة وأخذ يتفحص بعدم اهتمام لوحتين من العاج معلقتين فوق المدفأة، ثم قال: «على الرغم من أن تلك النساء الورديات اللون لهن ملامح بدائية، إلّا أنهنّ، دون جدال، ذوات رؤوس جميلة».

فقالت ألفريدا: «نعم، وهل هذا كل شيء؟».

- ليس كل شيء فهناك الكثير.

- أي لون تفضل؟

- هذا يعتمد على غزارة اللون، أكثر من اللون نفسه.

- الغزارة والوفرة متساويتان، هل بإمكاني أن أعرف اللون الذي تفضله؟

- الغامق.

- أعني لون شعر النساء.

كانت لحظة صمت، وتمنت أن يكون أساء فهمها.

- اللون نفسه الغامق.

كان مستحيلاً ألّا يميز أحد لون شعر ألفريدا، فقد كان متموجاً ولونه بني فاتح وكثيراً ما أثار انتباه الرجال العاديين، ولكن من الواضح أن نايت له مقاييس جمالية خاصة به مختلفة تماماً. أحست ألفريدا بالغيظ الشديد لصراحة رأيه. والأمر الذي أثار حنقها أكثر هو معارضته لها في كل شي. ولكن لدهشتها، فقد زاد احترامها له. وأخيراً كالمقامر القلق، فقد قامرت بكنزها الأخير: عيناها. «ما لون العينان الذي تفضله؟».

- بصراحة أم مجاملة؟

- بصراحة من غير شك، فأنا لا أسعى إلى أي مجاملة.

- أفضل البندقي.

لقد لعبت وخسرت مرة أخرى.

* * *

19

كان الحب في المستوى الآخر

لم يكن نايت ملماً بالمعرفة الخطابية البليغة المليئة بالمجاملة واللطف فيما يتعلق بإبداء الرأي في النساء. لذا فلم يتم إضافة أي جديد فيما يتعلق بالعينين، أو الشعر، أو التطور. وقد نما شعور ألفريدا بالضآلة، وتحول إلى فقدان الراحة، الذي كان واضحاً على محيّاها مما أدى إلى انزوائها إلى داخلها. استمر الحديث هادئاً بعد ذلك ولكنه كان منصباً على الحطّ من قدرها. ولم تمنع نفسها من التفكير في ستيفن كخط دفاع، ولم يكن ليبدي إعجابه بملامح مختلفة عن ملامحها إلا بكل الحب، وقد صارحها ستيفن بحبه، ولم يفعل نايت ذلك، وهذا لم يغير الأمور، وما زالت تحس بصغرها في عيني نايت. لقد أحبها ستيفن برغم الاختلاف بينهما، وهل من الممكن أن يحبها نايت على الرغم من صفاتها التي تختلف عن ما يحب في المرأة، إن هذه الأفكار جلبت لها سعادة كبيرة. لعل حب ستيفن لها كان حباً عاطفياً أعمى. وحب أي رجل لها قد يكون مشكوكاً فيه.

لم يَدُرْ بينهما أي حديث فيما تبقى من تلك الليلة، وعندما أخلدت ألفريدا إلى الفراش، دارت أفكارها حول نفس الموضوع، ورأت أنه من الوقاحة أن يتحدث بهذه الطريقة، ولكنه كان صادقاً بشكل جارح.

قالت بتنهد: «أنا لا شيء، إن الأشخاص الذين مثله جابوا العالم، ومن المؤكد أنهم لا يُعيرون أمثالي أي أهمية سواء من ناحية المظهر أم الفكر».

قد يكون الرجل الذي احتل عقل المرأة، هو في منتصف الطريق إلى قلبها، فالمسافة بين العقل والقلب قليلة جداً.

في مساء الأحد التالي قالت السيدة سوانكورت لنايت: «هل أنت حقاً مسافر هذا الأسبوع؟».

كانوا يتسلقون التل إلى الكنيسة حيث سيقام القداس ظهراً وهو وقت استثنائي، حيث من المعتاد أن يكون في المساء وذلك نتيجة لعملية هدم البرج.

أجاب نايت: «إنني أنوي أن أعبر كورك من بريستول، ومن ثم إلى دبلين».

- عد من نفس الطريق وأقضِ معنا وقت أطول قليلاً فنحن نادراً ما لاحظنا حضورك، وهذا يذكرني بقصة...

توقف القسيس فجأة، فقد نسي أن اليوم هو الأحد. إن الرياح التي هبت ورفعت تنانير زملائه ذكرته بقصة بذيئة ولكنه عاد وغيّر رأيه وغيّر القصة .

- إن القصة بشأن يهوذا الذي ذهب إلى بيت لحم، والذي تحدثت بأمره في يوم الأحد السابق فما الذي جناه من هذا؟ لو أنه بقي في المدينة لكان وفّر على نفسه الكثير من العناء.

قال نايت وهو يغض النظر عن تغيير القسيس لقصته: «ولكنه أضاع خمسة أيام في تلكئه».

- صحيح، إن ملاحظتي لا معنى لها.

قالت السيدة سوانكورت لتغير مجرى الحديث، وقد رأت علامات الخيبة على وجه ابنة زوجها بعد إعلان نايت عن مغادرته: «هل ستعود من نفس الطريق؟».

وَعَدَ نصف وَعْد بأنه سيعود في طريق العودة، إن ألفريدا لم تكن متأكدة من عودته. قام الخوري بصلاتين في كنيستين مختلفتين ذاك المساء، وباشر السيد سوانكورت قداس المساء كاملاً، وكان السيد نايت يقرأ له الدروس. تدفقت الشمس من النافذة الغربية، وغمرت كل المتعبدين بأشعة ذهبية، وغمرت نايت. كانت ألفريدا تعزف على البيانو، وقد كان عزفها حزيناً بقدر حزن ألفريدا وخيبتها، وقد استمر نايت بقراءة قصة إيليا، وصور المشاهد العظيمة، للرياح، والزلازل، والنار بصوت عميق مليء بعبق الماضي. ولم يحس بوجود ألفريدا ولكن وجوده ألهمها ووصلت في عزفها إلى أماكن لم يكن لها أن تصل إليها من قبل، والتي لم يكن عدم وجوده ليجعلها تصل إليها.

رفعت عينيها لتلتقط بواقي أشعة الشمس التي تحتضر، فوقعت عيناها على شكل امرأة في الجناح الغربي، لقد كانت الأرملة جثواي، والتي لم ترها ألفريدا منذ عودتها من لندن مع ستيفن، إن

هذه المرأة التعيسة تقضي وقتها بالتنقل بين كنيسة أندلستو، وكنيسة أخرى في قرية بالقرب من ساوثمبتون حيث قبر أمها وأبيها.

لم تحضر القداس هنا منذ وقت طويل، لذا فيبدو الآن أن هناك سبباً آخر لحضورها واختيارها لهذا المقعد، فمن النافذة كان يمكنها رؤية قبر ابنها بوضوح.

غمرت الأشعةُ وجهَ السيدة جيثواي، مالت باتجاه ألفريدا، ولم تمنعها قداسة المكان من رمي ألفريدا بنظرات قاسية وبغيضة ومريرة، وبدا الانزعاج واضحاً عليها.

كانت مشاعر ألفريدا تتراكم وتتصاعدا وهزة بسيطة كانت كفيلة بانفجارها: الشِّعْر، والغروب، والموسيقى، والتفكير بالمستقبل، وستيفن، والتوق إلى احترام ستيفن لها والذي كان يقود إلى توقها لحبه وعند القيام للمغادرة وكانت الشمس قد غابت خلف الأسطح وغطى الكنيسة ظل رقيق، فهي لم تستطع منع نفسها من التفكير في قصيدة كولريج «القبور الثلاثة» وتساءلت إذا ما كانت السيدة جيثواي تلعنها في داخلها فبكت عندئذ وكان قلبها قد انكسر.

غادروا الكنيسة عند مغيب الشمس، ولم يبق للناس شيء يعملونه سوى الذهاب إلى البيوت، عاد السيد والسيدة سوانكورت بالعربة، وفضَّل الشابان العودة سيراً على الأقدام، كما توقعت السيدة سوانكورت وهي التي اتخذت دور الخاطبة العجوز الماهرة.

- أحببت قراءتك يا سيد نايت، إنك تقرأ أفضل من والدي.

- سأمدح أي شخص يمدحني، وأنتِ عزفت بشكل رائع، ودون أخطاء.

- نعم، دون أخطاء.

- من المؤكد أنك سعيدة لأنك تقومين بدور فعال في القداس.

- إنني أتمنى أن أعزف بمشاعر أكثر، ولكن ليس عندي مجموعة مختارة من الموسيقى، أتمنى أن تكون عندي مكتبة موسيقية، مختارة بعناية وفيها القطع الموسيقية الأصلية والأصيلة.

- أنا سعيد لسماع هذه الأمنية منك، وأستغرب كيف لا يوجد حباً حقيقياً للموسيقى عند النساء، ولا يعتبرنها أداة بعينها. إن النساء الفارغات من الداخل، يتعاملن مع الموسيقى كأمر ثانوي ولم أقابل امرأة واحدة تحب الموسيقى كما يحبها الرجال.

- ما الخط الفاصل بين النساء الفارغات من الداخل، والنساء العميقات؟

- حسناً، أعني بالنساء الفارغات، هن اللواتي لا يسترعي انتباههن أي شيء حقيقي وثابت. وهذا ما يذكرني بحادثة، لقد كنت أعرف شاباً له صديقة يحبها كثيراً وقد اتفقا على الزواج، وقد كانت تحب الشِّعر كثيراً، وطالما تمنت أن يكون عندها دواوين شعر لشعراء مهمين؟ فأراد أن يهديها أحد هذه الدواوين، فأرسل يخيِّرها بين ديوانين لشاعرين مشهورين فردت عليه قائلة «إن زوجاً من الأقراط سيكون أفضل من كليهما. هذا ما أسميه فتاة فارغة لا تملك شيئاً في داخلها إلا الغرور، وأنت كذلك على ما أعتقد قد تسمّينها كذلك.

أجابت ألفريدا بعد جهد: «نعم».

قال بقسوة وقد لمح وجهها في أثناء حديثها، ولاحظ أن حماسها كان زائفاً:

- إنك يا آنسة سوانكورت لن تفضلي، تحت أي ظرف، حلية تافهة؟

- لا أعتقد أنني أفضل ذلك.

- حسناً، سأسألك سؤالاً، اختاري بين شيئين، مكتبة موسيقية ذات مستوى عالي ومختارة بعناية كالتي تمنيتِ أن تكون عندك، موضوعة في خزانة من خشب الجوز المغربي، ولها قفل ومفتاح، أو قرطين من أجمل الأقراط في واجهات شارع بوند؟

أجابت ألفريدا: «من غير ريب الموسيقى».

- هل أنت متأكدة تماماً؟

- من غير شك، هذا إذا تمكنت من شراء الأقراط فيما بعد.

نظر إليها وقال: «أوف أوف».

قالت وهي تضحك خائفة قليلاً: «اعذرني».

- لماذا لم تقولي من البداية، كأي امرأة صاحبة موقف، إنني سيئة بقدرها وسأختار الأقراط؟

قالت ألفريدا مع ابتسامة ضيق: «لا أعرف».

- كنت أعتقد أنك موسيقية مميزة.

- وأنا كذلك، ولكن الاختبار كان قاسياً ومؤلماً.

- لم أفهم.

- إن الموسيقى لا تقدم شيئاً جيداً حقيقياً أو...

- إن هناك شيئاً تريدين قوله يا آنسة سوانكورت، ما هو؟ ماذا؟ ...

- إنك لن تفهم، إنك لن تفهم قصدي أبداً.

- ما هو الشيء المميز في المجوهرات؟

- لا. لا. لا. إنني لم أعن ما فهمته، فأنا أحب الموسيقى كثيراً لكنني أحب...

قال بطريقة يغيظها بها: «الأقراط أكثر، وأحب أن أمتلك الأقراط. على أي حال كان عليك أن تتحلي بالشجاعة الأخلاقية، وأن تقولي من البداية، دون أن تحاولي أن تترفعي إلى درجة لا يمكنك الوصول إليها».

لم تكن ألفريدا تجيد الدفاع عن نفسها: «قصدي أني أحب الأقراط الآن، وذلك لأنني فقدت قرطيّ الجميلين جداً العام الماضي، ورفض والدي أن يشتري لي غيرهما أو يَدَعَني أشتري، وذلك لأنه قال إنني مهملة. والآن أتمنى أن أحصل على قرطين مثلهما، هذا ما كان قصدي بالتأكيد يا سيد نايت.

قال وهو يشعر بالندم لرؤيتها بهذه الحالة: «أعتقد أنني كنت قاسياً ووقحاً»، وأكمل: «لو تعرف النساء كم تشوّه هذه الأشياء منظرهن لما استعملنها أبداً».

- لقد كانا جميلين. وكانا يليقان بي تماماً.

- أرجو ألّا يكونا مثل هذه الأشياء الغريبة التي تحشو النساء بها آذانهن هذه الأيام، كضابط الضغط في المحركات البخارية (الزنبرك)، أو كفّتي الميزان، أو سلاسل ومشانق ذهبية، أو لوحات فنانين، والله أعلم ماذا أيضاً.

«لم يكن شيئاً يشبه ذلك، كان جميلاً جداً» وبحركة تواقة: «مثل هذا» ورسمت بمظلتها شكل أحد القرطين.

قال بطريقة جافة: «نعم إنه جميل جداً، وكيف أضعتِ هذين القرطين الثمينين؟»

«لقد أضعت واحداً، لا أحد يُضيع القرطين معاً في نفس الوقت»، قالت هذه الملاحظة وهي محرجة وتحرك أصابعها بعصبية؛ فهي تذكر أنها أضاعت قرطيها عندما كان ستيفن يحاول أن يقبلها المرة الأولى، وكان ارتباكها واضحاً. ولم يتلقَّ نايت أي إجابة على سؤاله.

لم يلاحظ نايت اضطرابها، فقال:

- نعم، لا يفقد الشخص القرطين في نفس الوقت.

قالت: «إني لا أعرف متى تكون جادّاً»، وحاولت إنقاذ نفسها قائلة: «قد أبدو مغرورة، ولكن أفعالي هي التي تتصف بالغرور، وليس قلبي. النساء السيئات هنّ من يتمكن الغرور من قلوبهن وليس من أفعالهن».

فقال نايت: «تمييز لبق، وأعتقد أن الاعتراض يكون على الجهتين». ثم أضاف: «هل الغرور خطيئة عرضية أو خطيئة بشرية؟ هل تعرفين ما هي الحياة؟ أخبريني. فأنا بعيد جداً عن معرفة ماهية

الحياة، إن مفهوم الحياة المجرد أوسع من أن نتمكنُ من إمساكه خلال الفترة التي نختبرها بها؛ إن غرام المرأة بالمجوهرات يجعل حياتها فاشلة».

ثم أردف قائلاً: «لا توجد حياة فاشلة بالكامل».

فقالت بنفاد صبر: «إنك تعلم ما أعني، على الرغم من أن كلماتي لم أخترها بعناية، وأنها مبتذلة، وأنا قد أستعمل كلمات بسيطة، ولكن هذا لا يعني أن أفكاري مبتذلة. إن حصيلتي من الكلمات قليلة، وهي عبارة عن عدد محدود من القوالب البالية التي تتسع كل أفكاري الجيدة والسيئة. إن شاعرية الأفكار ورقّتها تضيع مني في خشونة ابتذال الأشكال».

- جيد، إنني أوافق على هذا التوضيح المبتكر، أما فيما يتعلق بالحياة الفاشلة. فلا داعي إلى أن تتعبي نفسكِ. إن حياة أي شخص قد تكون رومانسية، أو غريبة أو ممتعة، سواء فشل أم نجح، إن ما يهم هو الفصل الأخير في القصة. فالرجل ذو القدرات الذي يحاول القيام بأعمال عظيمة، لا يستطيع أن يكمل بسبب حادث معين وليس بسبب أخطائه حتى تلك اللحظة، إن قصته فيها الكثير من قصة الرجل العظيم الذي قام بأعماله العظيمة.

كانا يسيران في الوقت ما بين غروب الشمس، وشروق القمر، وما أن غربت الشمس حتى أشرق القمر بدراً. وكان هناك خيال زوجين يمشيان بالاتجاه المعاكس وما زالا على مسافة.

قال نايت بعد فترة توقف: «إنني أعتبر نفسي إلى حدٍّ ما فاشل»، قال هذا بعد أن شاهد الخيالين يقتربان..

- أنتَ؟ كيف؟

- لا أعرف بالتحديد، ولكنني بطريقة ما أعتقد أنني أخطأت في اتخاذ بعض القرارات.

- حقاً، ولكن هذا ليس سبباً للحزن، ألست محقة؟

- جزئياً، ولكن أن تكون صاحب خبرة كبيرة، فإن هذا يكون تعزيةً لأولئك الذين دائماً ما يتخذون القرارات الخاطئة. وليس هناك أمر أكثر حقيقة من أن أولئك أصحاب القرارات الصائبة لا يعرفون، كأصحاب الخيارات السيئة، نصفَ طبيعة اختيار الخيارات الصحيحة وكيفية اختيارها. على كل حال فلا داعي إلى أن أنزع أمسيتكِ الصيفية بالاستمرار بهذا الموضوع.

- ولكنكَ لم تخبرني إلى الآن، إذا ما كنت تعتقد أنني مغرورة حقاً.

فقال وهو ينظر إلى وجهها بفضول: «إذا قلت نعم فإنني أسيئ إليك، وإذا قلت نعم فستعتقدين أنني لم أعن ذلك».

فأجابت بتنهيدة تدل على الضيق: «حسناً، هذا هو المقصود بالبحث عميقاً، ومن الذي سيكتشفه؟ أعتقد أنّ عليّ أن أتعامل معك كما أتعامل مع الإنجيل، وذلك بأن أبحث وأفهم كل ما أستطيعه، ومن القوة المتوفرة من هذا، أبتلع الباقي ككتلة واحدة استناداً إلى الإيمان البسيط. قل إنني تافهة إذا ما شئتَ ولكن عظمة الكون تتطلب الكثير من التواضع لكي تحيا فيه. وهذا العيب ليس مدعاة إلى الندم».

قال نايت بعدم اهتمام: «لا أستطيع القول فيما يتعلق بالنساء، ولكنه بدون شك سوء حظ للرجل أن يكون كذلك، أن يولد صاحب طبيعة نبيلة. الروح الراقية قد تجلب للإنسان التعب والشقاء، لذا فمن الأفضل لكِ التمسك بالغرور».

قالت بندم: «لا، لا، لم أعن هذا، فإذا كنت سافرتَ يا سيد نايت؟ فهل من الممكن أن ترسل لي بعض كتاباتك؟ فأنا أحب أن أعرف فيما إذا تكتب بنفس الطريقة التي تتحدث بها وأنت في مزاج جيد، ثم أريد أن أعرف أيهما حقيقة شخصيتك؟ المتصنع الذي كنتَه الظهيرة، أم الفيلسوف الجميل الذي كنتَه هذا المساء؟».

فقال نايت: «آه، أيهما، إنك تعلمين ذلك مثلي؟»

لمع نجم في السماء، قالت ألفريدا: «إنّ هناك نجماً مضيئاً فوقي تماماً. كل نجم مضيء هو فوق أحد ما في مكان ما».

- حقاً.

- نعم من غير ريب.

- أين ذلك النجم!

وأشارت بيدها.

- إن ذلك الذي شكله كالصقر الأبيض، هو فوق جزيرة فيردي.

- وذلك؟

- ينظر إلى منابع النيل.

- وذلك الذي يبدو وحيداً؟

- إنه ينظر إلى القطب الشمالي، وذلك القريب من الأرض فوق الهند هو قريب من رأس صديق لي شاب، وهو الذي ربما ينظر إلى نجم في سمائنا ويفكر به كعلامة على مكان حبيبته.

نظرت إليه ألفريدا بشك: هل كان يعنيها هي؟ لم ترَ ملامحه ولكن موقفه كان واضحاً إنه لا يعلم شيئاً من موضوعها ومن موضوع ستيفن.

فقالت بتردد: «النجم فوق رأسي: أو فوق رأس آخر في إنكلترا».

ثم تنفست براحة وقالت: «آه نعم، أرى ذلك».

قال نايت مسترسلاً: «إن صديقي هذا الذي في الهند والداه مواطنان في هذا البلد، أنا لا أعرفهما ولكن كانت بيني وبينه مراسلات منذ سنوات عديدة، واستمرت إلى الوقت الحاضر. ولسوء حظه أو لحسن حظه فقد وقع في الحب، وذهب إلى بومباي. ومنذ ذاك الوقت لم أسمع بشأنه إلا القليل». واستمر نايت بسرد القصة بطواعية، وكانت ألفريدا مبالية إلى الاستفادة من دروسه في النزاهة والصدق.

كان جسدها منهكاً، ولم تكن لها رغبة في الكلام، وأحسّت بالعتاب في كلمات نايت غير المقصودة، ولم تستطع لعدم إخلاصها أن تحدد السبب في إحساسها بالذنب.

* * *

20

حنين الابتعاد بين التلال

مكتبة
t.me/soramnqraa

أدار نايت ظهره إلى أبرشية أندلستو، وتابع طريقه إلى كورك. أحس بثقل على قلبه بعد غياب يوم واحد، فتابع طريقه إلى بحيرة كيلارني، وتجول بين غاباتها الرائعة وجزرها اللامتناهية، وتلالها المدهشة، واستمع إلى الأصداء الرومانسية لهذه البقعة الرهيبة. ولكنه لم يحسّ بالمجد، والحلم الذي عاشه في هذا المكان سابقاً.

لم يكن لحضور ألفريدا الأنثوي أي تأثير عميق فيه، ولم يدرك أن وجودها في فضائه قد أضاف إليها شيئاً حينذاك، ولكن الآن، بعد أن ابتعدت عنه فقد أصبح شارد الذهن، وأصبحت الكماليات ضرورات ووجد نفسه واقعاً في الحب.

أحب ستيفن ألفريدا بالنظر إليها، وأحبّها نايت بغضّ النظر إليها، لم يعرف كيف دخلت روحها إليه، من المؤكد أنه لم يشعر بمشاعر الحزن البديعة الطبيعية المرافقة لحالات الفراق. كان يشعر بالسرور وهو يتأمل ويدرس ألفريدا منذ ذاك الوقت. هل أحبها

عندما التقت عيونهما، حين أحست بالإعياء عند البرج؟ هل اعتقد أنها ضعيفة؟ هل أحبها عندما كانت تقف في المرج وتغمرها أشعة شمس المساء؟ لقد لاحظ جمال بشرتها وقتذاك ليس أكثر. هل كانت مجادلاتها وحديثها هو ما بَذَرَ البذرة؟ لقد اعتبر أن كلماتها مبتكرة وذكية بالنسبة إلى امرأة شابة. ولكنها غير جديرة بالملاحظة. هل للعب الشطرنج أي علاقة بهذا؟ بالتأكيد لا، فقد اعتبرها حينذاك طفلة مغرورة ذات كبرياء.

إن تجربة نايت دحضت كل فرضياته السابقة، فمن المفروض أن يكون الحبّ نتيجة نظرات عيون، ولمسات أصابع رقيقة، تلك التي تصبح كاللهيب لحظة اشتعالها.

احتلت ألفريدا ذاكرته، وقد بدا له أنه أحب روحها، واعتقد أنها تحررت لتصحبه في طريقه، لقد شلت تفكيره وتجبرت بعقله. وقد ارتعد من تأثير هذه المشاعر الجديدة في شخص مثله متزن ومعتاد على التحليل. ولكنه عاد واستسلم لمتعة التفكير فيها.

ويجب القول إن نايت أحب بطريقة فلسفية، أكثر منها رومانسية.

فكر بسلوكها ناحيته، ببساطتها التي تميل إلى الدلال. سأل نفسه هل كانت تغازله؟ ما من قوة قادرة على الشك بترجمة هذه النظرية. كان الأداء متقناً جداً ليكون حقيقياً. كان أداء دون تلك الأخطاء التي تعطيه أصالته.

إن الممثلين البارعين، أصحاب الخبرة التي تتجاوز العشرين عاماً على خشبة المسارح، لم يكونوا ليتقنوا حديثاً كهذا، ولو أن

إحداهن لعبت دور فتاة ساذجة كالدور الذي لعبته ألفريدا أمامه، لكان فيه بعض الأخطاء.

إن هناك عُزّاباً بطبيعتهم، وعُزّاباً بفعل الظروف. والعوانس أيضاً بلا شك مثلهم. إن نايت يُعَدُّ ضمن العزّاب بالطبيعة، فما الذي يحدث معه؟ كان من الصعب عليه أن ينظر إلى نظرياته المتعلقة بالحب، وأن يقرأها الآن بمنظور تجربته الجديدة، إنه تماماً كمن يبحث عن الفرق بين جملة يشعر بها أو جملة يقرؤها.

لقد كان يشعر بالرضا الشديد عن جزء من العلاقة وهو أن يكون الأول في قلب المرأة التي يحب. لقد كان هذا هو الشرط الأساسي الذي وضعه لنفسه في حال قرر الزواج يوماً ما، فعليه أن يكون متأكداً أن أحداً لم يسبقه إلى هذا القلب.

إنّ هذا شيء عادي لرجل في مثل عمر نايت، وقد يكون بالغَ بعض الشيء في عذريته.

عندما يقع الرجال في الحب في بداية حياتهم كأغرار، يصبح الحب مركز حياتهم. ومع مرور السنين تكون العلاقة نوعاً من المشاركة في المشاعر، أما عند الوصول إلى عمر نايت فالتفاهم هو أساس العلاقة، وقد يتخلى عن علاقته بحبيبته بكل سهولة، فالرجل بهذا العمر يحب بعقله وليس بقلبه.

استنتج نايت من طبيعة سلوكيات ألفريدا الساذجة، أنها غير مطلوبة في الحب أيضاً. وقال في نفسه: «لا أظن أن ألفريدا نظرت إلى رجل طوال عمرها سواي».

لم ينسَ كم كان قاسياً معها، حين فضلت الحُلِيّ على الثقافة. وقد عذرها حينذاك مئة مرة لأن من طبيعة المرأة أن تحب الحليّ والمجوهرات. وهكذا فبعد غياب أسبوع واحد وصل فيه إلى دبلن قرر العودة إلى أندلستو بذريعة دعوته إلى العودة مساء الأحد.

وبالأخذ بعين الاعتبار أن تجربته نظرية على الورق أكثر منها عملية، فكان الآن متحيّراً فيما إذا كان من اللائق أن يقدم للفتاة الشابة حلية ذهبية قبل أن يتقدم إلى خطبتها. ولكن قبل مغادرته دبلن بيوم بحث بشغف عن حلية ذات مستوى رفيع اعتقد أنها تليق بها واشتراها.

كان شعوراً غريباً ذاك الذي راوده حين دخل غرفته وفتح العلبة المخملية وأخرج قطعتي الذهب الرقيقتين وأخذ ينظر إليهما.

كل الأشياء كانت قديمة لهذا الرجل المنعزل المفكر صاحب الرسائل، لكن هذه كانت جديدة، لقد حملهما بيديه كطفل صغير، وخطر بباله خاطر على حين فجأة وهو عدم إعجابها بهما. مما أدى به إلى الإسراع إلى الخارج وتبديلهما، حمل قرطين آخرين وكانا معه إلى المساء، وبعد أن تفحصهما ما يزيد عن الخمسين مرة أحس بأن هذا الخيار أسوأ من السابق. لم يغمض له جفن حتى قرر أن يبدلهما أول شيء صباحاً.

ذهب إلى باب المتجر وكان خجلاً من الدخول مرة أخرى ومن التسبب بمزيد من المتاعب، فذهب إلى متجر آخر ورأى قرطين آخرين أغلى سعراً لأنه اعتقد أنهما سيعجبانها وسأل الصائغ إذا كان بإمكانه أن يأخذ القرطين السابقين بديلاً. فأخبره بأنهم لا يبدلون

قطعاً تم شراؤها من متاجر أخرى، فدفع النقود وغادر وبحوزته أربع أزواج من الأقراط. وكان يتساءل ماذا يفعل بالزوج الآخر وتمنى لو يضيعا أو تتم سرقتهما. لقد كان يحس بتأنيب الضمير بوصفه رجلاً عاقلاً عنده خلفية اقتصادية جيدة؛ فكان لا بد من بيعهما في مكان ما، وهذا ما قام به حيث باعهما في آخر النهار بأغنية بسيطة. كانت تملؤه مشاعر فارغة في أثناء تجواله في المدينة، في مهمته الاستثنائية الجديدة التي خسر بسببها بعض النقود، وشابَه شعورٌ خفيف بالرضا لأنه تخلص من جهله القديم المتعلق بالنساء والمجوهرات، وبأنه حصل في نهاية الأمر على قطعة مجوهرات جميلة، وقضى بقية اليوم يقيِّم حليّ كل النساء اللواتي شاهدهن بعين خبيرة.

في الصباح التالي لم يتوجه نايت إلى لندن كما كان مخططاً، ولكنه توجه إلى أندلستو ليلبّي دعوة السيد سوانكورت وزوجته إلى تكرار زيارتهم في طريق العودة.

أما فيما يتعلق بألفريدا فكل ما كانت تريده منذ البداية، هو رأي صديقها نايت، وكم تمنت أن تكون أكثر من مجرد صداقة، كان خوفها يمنعها من التمادي بالتفكير، فقد كانت تسعى لترضي أعلى رجلٍ قدراً من الذين عرفتهم، ولم يكن هناك شعور بعدم الإخلاص لستيفن سميث.

كانت رسائل ستيفن قليلة، وكان إخلاصها يتأرجح بعد الرسالة الأخيرة تأرجح بحّار يوشك أن يغرق، ولقد أقنعت نفسها بأنها مسرورة لأن ستيفن له حق مكتسب في الزواج منها بسبب فرارها معه.

وكانت تحدِّث نفسها دائماً وتقول: «لو لم ألتزم مع ستيفن، لوقعت في حب نايت». وهذا ما جعل الأسبوع الذي غاب فيه نايت، أسبوعاً كئيباً، لا طعم له، فلجأت إلى رسائل ستيفن القديمة تعيد قراءتها، وتدعو له في صلاتها بوصفها طريقة علاجية، محاولةً إسعاد نفسها، ولكنها في الحقيقة كانت تخدع نفسها فقط.

ازدادت نسبة الأمل في رسائل ستيفن، ففي إحدى الرسائل قال: إنه يُنهي عمله كل يوم بغاية السرور لأن هذا سيزيل حجراً آخر من الجدار الذي يفصل بينهما. ثم تخيل كم سيكونان زوجين رائعين، وسيدير الناس وجوههم إليهما إعجاباً، ويقولون يا لها من جائزة جميلة تلك التي حظي بها. لم تكن ألفريدا حزينة لمحاولة الهروب الجامحة مع ستيفن (ولكنها قالت أكثر من مرة إن هذا الموضوع يحزنها) بغض النظر عن رأي الجميع، فهو يعرف حق المعرفة طبيعة شخصيتها المتواضعة، إن العتاب الوحيد الذي تلقته منه، كان عتاباً رقيقاً في أثناء زيارتها إلى لندن، حين كانت رسالتها بلا حياة أو مشاعر ومن المؤكد أن هذا ناتج عن التفكير بأفكار أخرى سوى ستيفن.

إن عزم نايت على عودة إلى أندلستو كان ضعيفاً، ووعده بالعودة مرة أخرى كان أضعف، فهو لم يكن بالرجل الذي يوفي بمواعيده. فوجئ القسيس برجوعه بهذه السرعة، ولكن زوجته لم تفاجأ أبداً. وقد وجد نايت بعد إعلان وصوله أنهم قد خططوا للذهاب إلى سانت ليوناردز بضعة أيام في نهاية الشهر.

لم يتسنَّ له تقديم هديته التي بذل جهوداً كبيرة في إحضارها ليلة وصوله، وأخذ يتحين الفرصة لهذا. كان صباح اليوم التالي

مشمساً بعد أسبوع من الجو المكفهرّ، وقد وجدتها العائلة فرصة للذهاب إلى باروذ ستراند، وقرر نايت أن هذه قد تكون فرصته في تقديم هديته.

كانت الطريق محاطة بتلال خضراء مسيجة، كأنها حبال رصيف ميناء. ومن خلال الفجوات في هذه التلال كنت ترى البحر وترى على سطحه السفن الشراعية وكأنها نقط بيضاء. وكان الأفق الممتدّ كأنه خط فاصل بين تل وآخر، وأخيراً دخلوا طريقاً تحيط بها الصخور التي بلون الشوكولاتة. وكانت هناك عين ماء قد تفجرت من أحد الشقوق ويتدفق الماء باتجاه الأشجار الخضراء نحو الوادي. تسلقوا المرتفع الأخير. كانت زرقة المحيط تزداد كلما ازداد عمقاً، ويصبح لونه أبيض عند الشاطئ، ولم تكن لتسمع صوته من هذا البُعد، ولكنك كنت تراه يموج من بعيد.

توقفت العربة عند كوخ صغير، ورفع الحوذي المكباح خوفاً من انفلاتها، ونزولها إلى الشاطئ.

هنا وجد نايت فرصته عندما افترقوا عن الجميع فقال لها: «أنا لم أنس أمنيتك»، نظرت ألفريدا مستفهمة، فتح العلبة وأمسك بالقرطين وتابع: «لقد أحضرت لك هذا».

قالت ألفريدا بارتباك وقد احمرّ وجهها خجلاً: «أوه، يا سيد نايت، لم أتخيل هذا بعد الذي قلتَه، لقد كانت كلها افتراضات، شكراً لا أريدهما».

وقد لمعت فكرة برأسها، كان رفضها حاسماً، أكثر مما يتطلبه الموقف؛ فغداً، موعد رسالة ستيفن.

سألها نايت: «ألن تقبليهما؟».

قالت بجدية: «أفضِّل ألّا آخذهما، إنهما جميلان جداً، حتى إنهما أجمل من قرطيّ السابقين»، وتابعت وهي تنظر إليهما بشوق ورغبة تشبه نظرات حواء إلى التفاحة: «لا أريد أن آخذهما، أرجو أن تغفر لي ذلك يا سيد نايت».

قال نايت بعد توقف طويل لهذا الموقف غير المتوقع: «لا لن أغفر هذا».

ساد صمت عميق، وما زال نايت ممسكاً بالعلبة المفتوحة وينظر إلى القرطين اللامعين بطريقة يرثى لها، بعد رحلاته المكوكية في البحث عنهما وشرائهما، وقد شعر بأنه تم الاستخفاف بهديته.

قالت ضاحكة بطريقة فيها شيء من الرفض والتوسل: «أرجوك أن تغلق العلبة ولا تريني إياهما مرة أخرى».

- لماذا يا ألفي؟

- لا تناديني (ألفي) يا سيد نايت، لا أريد أن أراهما لأنني قد أضعف وآخذهما، يا لسخافتي لقولي ذلك، ولكن هناك سبب لعدم أخذي لهما.

حاولت أن يبدو رفضها قاطعاً، ولكن لم تفلح محاولتها.

- هل ستأخذينهما يوماً ما؟

- لا أريد ذلك.

- لماذا لا تريدين ذلك، يا ألفريدا سوانكورت؟

- لأنني لا أريد، لا أريد أن آخذهما.

- بما أنك أحببتهما، فرفضك أن تأخذيهما يتعلق بي شخصياً إذن.

- لا ليس كذلك.

- ماذا إذن، هل تميلين إليّ؟

قالت بعد أن تغير لونها من الخجل: أميل إليك؟ قليلاً؟ إنك تقول لي عبارات قاسية. فكيف لي أن أميل لك، إلا قليلاً؟

- أنت تعتقدين أنني شخص متحجر؟

- لا، أعني نعم، لا أعلم ما أنت، ... أعني... لنذهب لرؤية والدي.

فقال بطريقة، محاولاً إبعاد ذهنها عن حقيقة هديته وهي هدية حبيب: «لقد رأيت أن هذا من واجب اللياقة والكياسة».

أحست ألفريدا بالفراغ بعد هذه العبارة.

تابع نايت: «لقد كان حوارنا ذلك اليوم حامي الوطيس وقد أحسست أنني كنت قاسياً وغير عادل فهذه طريقتي في الاعتذار».

- حقاً!

- أحست بالأسى لهذه الإجابة، لقد كانت مخيبة للآمال بأن يكون هذا هو الدافع البارد وراء الهدية، التي قدّمها دون ابتسامة. لو عرفتْ أنها قدمتْ لهذه الأسباب لأخذتها دون تردد، ولكن خيالها سمح لها بأن تتخيل أنها هدية عاشق، وكان هذا بالنسبة إليها أكثر سوءاً من عدم وجود هدية.

جاءت السيدة سوانكورت في هذا الوقت لتختار بقعة يضعون عليها الشرشفَ وطاولة الطعام. وقد تم تأجيل الحديث بينهما إلى وقت آخر، لقد قرأ رفضها بأنه عزة نفس وخجل، وقرر أن يتحمل هذه البدايات. هل من الممكن أن هناك مَن أخبر نايت بأن هذا الرفض هو صراع بين الإخلاص وبين ولادة حب جديد. كان هناك نوع من الارتباك بينهما فيما تبقى من المساء، وخوفاً من المد انتقلوا إلى مكان أكثر ارتفاعاً، اقترب النهار من الانتهاء بهدوء وكسل كأي مساء آخر، وبينما هم يشاهدون المحيط من أعلى الجرف، إذ أتت موجة كبيرة، ضربت الشاطئ وسحبت الطاولة، وكل ما عليها من أشياء، وعادت الأمواج بعنف أقوى تضرب المنحدرات بمياه خضراء وزرقاء تاركة خلفها الكثير من الزبد الأبيض، واضطروا إلى الاحتماء في الكهوف القريبة، أسرجوا الأحصنة للعودة إلى البيت، وما أن وصلوا إلى أعلى نقطة، حتى انكشفت الشمس مرة أخرى وأرسلت أشعة المغيب على التلال المبتلة التي اجتازوها من قبل. وكان أثر عجلات عرباتهم على الأرض المبتلة كأنه أخاديد لامعة. وأرخى الليل سدوله.

كانت أمسية باردة بلا قمر. جلس نايت في العربة بالقرب من ألفريدا، فابتعدت ألفريدا قليلاً.

قال نايت هامساً: «أرجو أن تسمحي لي بالجلوس في مكاني».

قالت ألفريدا بنفس طريقته، لعله يميز أن هذا ردٌّ عليه: «نعم، إن هذا من واجب اللياقة والكياسة».

وأحس الطرفان بالتعادل، ووصلوا البيت.

كانت تجربة لطيفة بريئة، بالنسبة إلى نايت. نادراً ما تتكرر في حياة الرجل، وتبقى لها ذكرى خاصة عند النظر إليها فيما بعد. إنه واقع في الحب، وعنده قدرة على الاستمتاع بالأمور التافهة كطفل صغير. إنّ حركة الأمواج، ولون الصخور، وأي شيء آخر، كان كافياً لإثارة أفكار نايت. حتى الوعظ التافه الذي قدمه القسيس، وكلام ألفريدا في ضرورة الكياسة واللطافة؛ لقد استمع إليها نايت، وأخذ منها الأفكار بمتعة جعلته يعتقد أنها ذات أهمية.

ما أن دخلت ألفريدا غرفتها تلك الليلة حتى وجدت علبة على الطاولة، ولم تعرف كيف وصلت إلى هنا. أزالت ورق الهدايا الأبيض الذي يغلفها، ووجدت الهدية التي أحضرها نايت، والتي رفضتها من قبل.

ارتدت ألفريدا القرطين دقيقة واحدة، نظرت إلى نفسها في المرآة، فاحمرّت وجنتاها وخلعتهما مرة أخرى. لقد ملأ أحلامها، لم تر في حياتها شيئاً بهذا الجمال، من المؤكد أن أي امرأة نزيهة عليها أن ترفض قبول هدية كهذه.

إن موعد رسالة ستيفن في اليوم التالي، فتسللت خلسة لملاقاة ساعي البريد كما كانت تفعل دائماً مع أنها كانت تكره ما تقوم به، وما عادت تتمناها. ولكنها ذهبت.

كان هناك رسالتان:

إحداهما من بنك في سانت لونس حيث لها وديعة صغيرة، ومن المحتمل أن تكون بشأن الفوائد.

وضعت الرسالة في جيبها ودخلت إلى المنزل ومن ثم إلى غرفتها لتكون بعيدة عن الأعين وفتحت رسالة ستيفن وهي ترتعد، فماذا لديه ليقول لها؟

إن عليها الذهاب إلى بنك سانت لونس، ستجد أن هناك مبلغاً باسمها.

المبلغ هو مائتا جنيه.

لم يكن هناك شيك، أو وصل، أو أي ضمان، بل في الواقع كانت المعلومات كالتالي: إن هناك مبلغاً من المال باسمها في بنك سانت لونس. فتحت الرسالة الأخرى فوراً، فوجدت فيها وصل الإيداع من البنك بمبلغ مائتي جنيه إسترليني أضيفت ذاك اليوم إلى حسابها؛ ملاحظة ستيفن كانت صحيحة؛ وبعد ذلك تم التحويل.

«لقد وفرت هذا في سنة واحدة»، وتابع ستيفن في رسالته: «لا شي يجعلني أكثر سعادة وسروراً من أن أقدم إليك هذا المبلغ؟ إنني أملك الكثير لنفسي غير هذا. بإمكانك أن تطلبي من والدك أن يستثمره لك بدل أن يبقى مودعاً في البنك. إنه هدية صغيرة إليك من شخص هو أكثر من خطيب، وإنني أشعر يا ألفريدا أن تقدُّمي إلى خطبتك ما هو إلا حلم فتى صغير لا يستحق التقدير».

وتابع ستيفن: «هل تذكرين أول صباح يوم وصولي إلى بيتكم، حين قرأ والدك في الصلاة عن معجزة الشفاء من البرص. حيث (طلب المسيح من المريض أن يأخذ فراشه ويمشي)، إنني الآن أعرف المعنى الحقيقي لهذا القول، (فالحصيرة الصغيرة هي سرير الشرق)، فبالأمس رأيت أحد السكان المحليين يقوم بهذا العمل، لذا ذكرته.

ولكنك قارئة أفضل مني، ومن المؤكد أنك تعرفين هذا قبلي.. اشتريت لك بعض التماثيل الوثنية من باب حب الاستطلاع، ولكن بعد أن عرفت أنه قد تم التخلص منها في إنكلترا قمت برميها».

وختم رسالته بقوله: «إنّ هذا يذكرني بواقع حالنا، فنحن نُحضر كل ما يلزمنا من أدوات البناء من لندن، فلا نستطيع البدء ببناء أي مشروع كما في لندن، إلا بعد أن نُحضر الأعمدة، والبراغي، والحديد، والأقفال. يقول السيد مديرُنا: إن على أحد ما الذهاب إلى لندن والإشراف على شراء هذه المعدات في أسرع وقت ممكن، كم أتمنى أن أكون هذا الشخص».

أمامها كان إيصال الإيداع، وهدية نايت الثمينة، وأصابتها قشعريرة ثم احمرّت وجنتاها من حرارة الدم المتدفق من كثرة التفكير، لو أنها بتمزيقها للرسالة يتم سحب التجربة كاملة من ماضيها لقامت بذلك وضحّت بالنقود طواعية، لم تكن تعرف ما ستفعل. وخافت من وضع الهديتين إحداهما إلى جانب الأخرى فقد بَدَتا كخصمين عنيدين.

لم تظهر في اليوم التالي، وقد اتخذت قراراً وبدأت في تنفيذه، أعادت توضيب هدية السيد نايت بدموع الندم عند إغلاقها ووضعتها في غرفته على الطاولة. وكتبت رسالة إلى ستيفن تخبره فيها بأنها لا تعرف بالضبط مكانتها في ضوء إرسال النقود، وأعلنت عن استعدادها للوفاء بوعدها والزواج منه. ولكنها أجَّلت إرسال الرسالة، ولم تحس أبداً أنّ عليها القيام بذلك.

بعد بضعة أيام وصلت رسالة بشكل غير متوقع من الهند، رآها والدها ولم ينبس ببنت شفة، ممّا أثار تساؤل ألفريدا. كانت

الأخبار مفرحة فقد تم اختيار ستيفن كما تمنى ليكون المشرف على عملية شراء المعدات المطلوبة، وهذا الأمر يستغرق إجازة مدتها ثلاثة أشهر، وسيتقدم إلى خطبتها من أبيها في هذه الفترة، وأخذ يتصور حجم سعادتها بعودته إليها، وأخيراً أخبرها بأنه سيكتب إلى وكالة الشحن لترسل برقية إليها تُعلِمها بموعد وصوله.

كانت ألفريدا تتحرك وتمشي كأنها في حلم، وقد غضب نايت في البداية لرفضها المستمر لهديته، ولكنه لاحظ أنها تبدو شديدة الإعياء فخفف من غضبه تحسباً للمضاعفات.

توقف الآن عن التواجد في البيت، ولكنه جعل البيت مركزاً لنزهاته الأثرية والجيولوجية في المنطقة، كان يتمنى أن يرحل ولكنه لم يستطع، واستفاد من علاقة القربى للدخول والخروج على أمل تحقيق ما يصبو إليه.

- لا أرغب في البقاء هنا مرة أخرى إذا كان تواجدي يكدركِ، في البداية قلتِ إنني قاسٍ معك، والآن حين أصبحُ لطيفاً تكونين غير منصفة في التعامل معي.

- لا، لا، لا تقل هذا.

- إنني على استعداد للذهاب وعدم إزعاجك مرة أخرى.

لم تقل شيئاً، ولكن ملامح وجهها شجعته على الاستمرار، فقال نايت برقّة: «هل تريدين مني البقاء إذن؟».

قالت ألفريدا: «نعم»، وكان يتراوح في عقلها إخلاصها لحبها القديم وحقيقة الحب الجديد، ويبدو أن كفة الحب الجديد سترجح.

- إذن سأبقى فترة أطول.

- لا تغضب إذا كنت بعيدة بعض الشيء؟ قد يحدث أمر ما، وقد أخبرك بشيءٍ ما، يوماً ما.

قال نايت في نفسه: «مجرد خجل».

في الساعة الخامسة مساءً في اليوم التالي، وقبل عودة نايت من زيارته للشاطئ، كان هناك رجل يسير باتجاه البيت، كان موزّع البريد من كاميلتون وهي مدينة على بُعد بضعة أميال، في طريق سكة الحديد.

- برقية للآنسة سوانكورت، وعليها دفع ثلاثة بنسات أجرة يضاف إليها ستة بنسات أجرة موزع البريد الخاص.

أرسلت ألفريدا النقود، ووقّعت وصل الاستلام وفتحت الرسالة بيد مرتعشة، وقرأت:

«جونسون، ليفربول، إلى الآنسة سوانكورت، أندلستو، بالقرب من قلعة بوتريل، برقية من السفينة أماريليس: الساعة 4 متوقع وصول الركاب إلى كاننغ بايسن الساعة العاشرة غداً صباحاً».

ناداها والدها إلى المكتبة.

سأل بريبة: «من أرسل لك الرسالة يا ألفريدا».

- جونسون.

- مَن جونسون هذا بحق السماء؟

- لا أعرف.

- إذا كنتِ حضرتكِ لم تعرفي فمن يعرف إذن؟

- لم أسمع به إلا الآن.

- هذه قصة استثنائية، أليس كذلك؟

- لا أعرف.

- هيا، هيا، يا آنسة ماذا كان في البرقية.

- هل تريد فعلاً أن تعرف يا أبي؟

- نعم أود ذلك.

- تذكر أنني امرأة عاقلة بالغة الآن.

ثم قالت: «حسناً، وماذا بعد كوني امرأة ولست طفلة، فحتماً سيكون لديّ أسرار. وسيكون لك أسرار أنتَ أيضاً، هذا من حق النساء».

- لكن لا تخفيها عني، هيا تفضلي قولي.

- إذا وعدتني ألّا تضغط علي أكثر فأعدك أنني سأخبرك بكل شيء في غضون أسبوع؟

- وعد شرف؟

- نعم وعد شرف.

- عندي بعض الشكوك وأتمنى أن أكون مخطئاً، إن سلوكك لا يعجبني في الآونة الأخيرة.

- قلت، في نهاية الأسبوع يا أبي.

لم يجب والدها وتركت ألفريدا الغرفة. وبدأت تبحث عن ساعي البريد، وبعد ثلاثة أيام وصلت رسالة داخلية من ستيفن. لم يكن فيها الكثير، ولكنها كانت واضحة: سيصل ستيفن إلى بيت والديه بين الخامسة والسادسة مساء اليوم وسيسير عند الغسق إلى القرية المجاورة ليراها في مقبرة الكنيسة كما في الأيام السابقة، وقد لجأ إلى هذه الطريقة لأنه من غير اللائق أن يمر ببيتها في وقت متأخر مساءً. ولن يستطيع النوم دون أن يراها، وأنه يعدّ الثواني ليضمّها بين ذراعيه.

ما زالت ألفريدا عند رأيها وأن الشرف يحتم عليها لقاءَه، على الرغم من ميلها إلى تجنّب لقائه، وكان هذا يحمّلها شعوراً بالذنب، لذا فقد أنجزت واجباتها خلال النهار وقرأت قصائد وردزورث، وألزمت نفسها بالإرشادات، ومع ذلك فما زالت تحس بثقل الموضوع على صدرها، وبدأت تحس بالكآبة لأنها ستضحي بنفسها لرجل بسبب حب عذري وسيكون زوجها المحتمل الوحيد؛ ستقابله وستفعل كل ما بوسعها لتتزوجه، ولتمنع نفسها من التراجع فقد كتبت ملاحظة إلى منزل والديه لتحدد ساعة للمقابلة.

* * *

21

أوه أيها البحر، على حجارتك القاسية الرمادية

كان ستيفن يقول إنه سيأتي بالعربة إلى بريستول، ثم بالسفينة الشراعية إلى قلعة بوتريل، حتى يتجنب الرحلة الطويلة خلال الجبال من سانتلويس، فلم يكن يعلم بأن طريق القطار الحديد قد وصل كاميلتون.

خطرت لألفريدا فكرة في أثناء المساء، وهو أن بإمكانها أن ترى السفينة البخارية من أحد المنحدرات المحاذية للبحر قبل وصولها بساعات.

استجمعت قواها لتقوم بعمل فوق طاقتها، وهو الذهاب إلى أحد هذه المنحدرات ومراقبة السفينة التي ستحمل زوج المستقبل. كان مساءً غائماً، وكانت ألفريدا غالباً ما تغير خططها بسبب الجو. ومع هذا فقد أقنعت نفسها بأن الجو سيكون جيداً في الجانب الآخر.

صعدت التل خلف البيت، ووصلت إلى جدول صغير كان دليلها إلى الساحل، إنه أصغر من الجدول في الوادي الذي تسكنه،

ولكنه أكثر ارتفاعاً، كان على جانبيه غابات، أما في القاع حيث تجري المياه بعرض ثلاث ياردات فكانت الأرض كبساط أخضر. في الشتاء كانت المياه تغمر العشب، وفي الصيف كما هو الآن فتتحول إلى قناة.

أحست بأن هناك شخصاً يراقبها، أدارت رأسها فرأت نايت، كان قد جاء إلى الوادي من جانب التل، فلم تمنع نفسها من الشعور بقشعريرة من السرور.

- يا لهذه الوحدة التي أنتِ فيها.

- سأذهب إلى الشاطئ خلال تتبّع الجدول، وأعتقد أنه يصب في منطقة قريبة من هنا.

- لماذا تتعبين نفسك بهذا التلسكوب؟

- لأنظر إلى البحر.

- سأحمله عنك إلى نهاية الرحلة.

إنها على بُعد نصف ميل، وأخذه من يدها دون مقاومة. وأشار إلى مستوى من الطين الرمادي الفاصل عن الأفق. وكانت ألفريدا قد مسحت البحر بنظرها ولم تجد أثراً لأي سفينة.

سارا معاً، أحياناً متباعدَيْن وأحياناً متلاصقين حسب اتساع الطريق، بدءا بالصعود إلى الأعلى، وبعد ارتفاع معين لم يعد بإمكانهما رؤية الوادي وحل مكانه سماء وفضاء بلا حدود، وتحتهما كنت ترى المحيط الأطلسي ممتداً بلا نهاية. وهنا كانت نهاية الجدول الصغير حيث يصب في المحيط من أعلى جرف على شكل شلال ويسقط على المناطق المحيطة كالمطر فيُحيلها إلى حقول خضراء.

قال نايت وهو يتتبع عيني ألفريدا: «عمَّ تبحثين؟».

كانت تحدق إلى جسم أسود بعيد فوق صفحة الماء.

قالت: «هو قارب بخاري صيفي قادم من بريستول إلى قلعة بوتريل اسمه بَفِّن، انظر ها هو، أعطني التلسكوب لو سمحت!».

سحب نايت التلسكوب القديم والقوي، وأعطاه إلى ألفريدا، التي نظرت من خلاله إلى السفينة.

- لا أستطيع أن أحافظ عليه ثابتاً.

- ضعيه على كتفي.

- إنه مرتفع جداً.

- ضعيه تحت ذراعي.

- إنه منخفض جداً، بإمكانكَ النظر بدلاً مني.

- نعم إنه بَفِّن - قارب صغير، له دفة بارزة كمنقار الطير.

- هل بإمكانك أن ترى السطح.

- انتظري قليلاً، نعم بكل وضوح، أرى الركاب بملابسهم البيضاء فوق سطحه الأبيض، أحدهم أخذ شيئاً من الآخر، أعتقد أنه كوب، وهو يشير به في هذا الاتجاه، على ما أعتقد، نعم إنه كذلك، يبدو أن السماء بدأت تمطر فوقهم فقد ارتدوا معاطف المطر وفتحوا المظلات، لقد نزلوا إلى الأسفل، جميعهم ما عدا ذاك الذي استعار الكوب.

- إنه شاب نحيل وما زال يراقبنا.

شحبت ألفريدا فجأة وأخذت تحرك قدميها باضطراب.

أزاج نايت التلسكوب وقال: «أعتقد أن من الأفضل أن نعود، إن الغيمة التي مطرتهم لا بد أنها قادمة باتجاهنا، إنك تبدين مريضة، هل هناك شيء؟».

- هناك شيء في الجو يؤثر في وجهي.

أجاب نايت برقة: «إن هاتين الوجنتين الجميلتين شديدتا الحساسية. إن هذا الهواء يزيد من حمرتهما كما لم يكونا من قبل، مما يجعل المرء يفكر في أنه طفل الطبيعة المدلل».

عاد لون ألفريدا إليها مجدداً.

قال نايت: «ما زال هناك الكثير لنراه خلفنا».

أدارت ظهرها إلى القارب وإلى ستيفن سميث ورأت أمامها مرتفعات شاهقة، ووجه التل العمودي عن يمينها، وهو الذي لم يحجب المحيط الممتد بعيداً، بل شكّل ظهر الخلجان الصخرية الشاهقة.

إن التكوين الضخم للتل كان فيه شق عظيم يُظهر لب الصخور، وكان مكوناً من طبقات من الصخور السوداء الرمادية المالحة المرتفعة حيث لا تسمح لضوء الشمس باختراقها.

إن للمنحدرات حضوراً كما للأشخاص، وهذا لا يعتمد بالتأكيد على الحجم، فالجروف الصغيرة قد تؤثر فيك أكثر بكثير من الجروف الضخمة، فهذا يعتمد كما في الرجال على محيّاهم.

قالت ألفريدا: «لا أحتمل النظر إلى هذا الجرف، إن له حضوراً مهيباً، إنه يجعلني أرتعد، هيا، لنكملْ صعودنا».

- هل تجيدين الصعود؟ إذا كنت كذلك فسنصعد باتجاه حاجب الصخرة التي لها وجه الرجل..

- سوف أجرّب، لقد صعدت منحدرات تفوق هذه انحداراً.

كان هناك ممرّ عشبي في داخل الضفة شكّل حماية عفوية للمشاة إلى أعلى الجرف.

- أمسكي بيدي يا آنسة سوانكورت.

- أستطيع تدبر أمري وحدي بشكل أفضل شكراً لك.

عند وصولهما ربع المسافة، توقفت ألفريدا لالتقاط أنفاسها، ومد نايت يده إليها، أمسكت بها وواصلا الصعود إلى أن وصلا إلى الأعلى فجلسا للاستراحة.

قال نايت، وهو ينظر إلى المحيط: «يا الله، يا لهذا الارتفاع!».

نظرت ألفريدا إلى المحيط يساراً، واستطاعت أن ترى سطحه الواسع الذي كشفه الارتفاع الشاهق وهناك، في مجال الرؤية، رأت القارب البخاري بشكل جلي وكان قريباً من الشاطئ.

قال نايت: «على حافة الهاوية حيث لا يظهر إلا الفراغ. تضرب الرياح وجه الصخور بعنف، ثم تصعد إلى الأعلى كإعصار فوق رؤوسنا، وتتكور لتأخذ شكل قوس وتختفي خلفنا. في الواقع إنها كشلالات نياجرا ولكنه يسير بشكل عكسي صعوداً بدل هبوطاً، والهواء بدل الماء».

ثم قال: «والآن انظري هنا»، وقذف نايت بحجر إلى قاع الوادي ووسط شلال الهواء، وكم كانت دهشتها حين استدار الحجر وطار كعصفور خلف رأسيهما.

عبر قارب في نفس الوقت الشلالات التي تحتهما في القاع حيث المياه ساكنة.

قال نايت: «نحن في نفس الموقع المعاكس هنا، إذا ابتعدنا عن الجرف مسافة خمسين ياردة فسنجد نفسينا في مجرى رياح نشطة، وخلف الضفة تيار عكسي».

نهض نايت ومالَ ناحية الضفة، وأصبح رأسه فوقها، حتى انزلقت قبعته عن رأسه وكأنها جُذِبت إلى ناحية البحر.

«هذه هي الدوامة المعاكسة كما أخبرتك سابقاً». قال نايت هذا واختفى خلف القبعة.

انتظرت ألفريدا دقيقة ولم يظهر، ثم انتظرت دقيقة أخرى ولا أثر له.

تساقطت قطرات خفيفة من الأمطار ثم تبعها تساقط شديد للأمطار.

نهضت ونظرت من الضفة، فكان في الاتجاه الآخر، وعلى بُعد ثلاث ياردات أو أكثر أرض مستوية، ثم انحدار قصير حاد، ويليه حافة الهاوية.

كان نايت على المنحدر، قبعته فوق رأسه، ويحاول الصعود إلى الأرض المستوية، وهو متكئ على ركبتيه ومِرْفَقَيْه. بللت الأمطار سطح المنحدر وجعلت من الصعب الوقوف على الأرض التي كانت زلقة أصلاً.

- أجد صعوبة في الخروج.

سقط قلب ألفريدا وأحسته ثقيلاً كالرصاص.

صرخت بعنف: «هل تستطيع العودة؟».

حاول نايت جاهداً بضع دقائق وبدأت قطرات العرق تغطي وجهه.

أجاب نايت: «لا، لا أستطيع ذلك».

أبعدت ألفريدا عن رأسها الأفكار السيئة في أن نايت يرزح تحت خطر شديد، وقررت محاولة إنقاذه، تدلّت من حافة المنحدر الغادر ومدت يدها ناحيته وهي تحمل التلسكوب.

«لماذا فعلتِ هذا، إنك تعرضين نفسك للخطر». وتوثيقاً لكلامه بتعريض نفسها للخطر بمحاولة إنقاذه، فقد وجدا نفسيهما انزلقا لمنطقة أبعد ولكنّ قدمه وجدت متكأً في صخرة من الكوارتز وتماسك ووازَنَ نفسه، واستطاع أن يُثبِّتها بعد أن كان رأسها على بُعد قدم من حافة الهاوية، أسقطت التلسكوب فتدحرج وسقط واختفى بعيداً في الهاوية.

- تمسكي بي جيداً.

وضعت ذراعيها حول عنقه بشدة حيث بات مستحيلاً أن تقع.

- لا تجزعي، ما دمنا نحن فوق هذا الحاجز، فنحن بأمان، انتظري قليلاً حتى أفكر ما الذي علينا عمله للخروج من هنا.

نظر إلى القاع بعين متفحصة متمعنة. وخرج بالتالي: أن عليهم الصعود وإحكام أقدامهم على المنحدر كالآلة، وإلا وجدوا

أنفسهم في وسط دوامة الهواء. لذا وجب عليهم توفير طاقتهم وأنفاسهم، وأخذ يفكر وينظر، كأنه ينظر إلى وجه العدو.

إن قمة هذا المنحدر يتجاوز ارتفاعها كل المنحدرات المجاورة بمائة قدم فوق سطح البحر وقد يصل ارتفاعها إلى ما يزيد عن ستمائة وخمسين قدماً.

إنها أعلى من مرتفعات فلامبورغ بثلاث مرات، وأعلى من بيتشي هيد بمائة قدم، إن الجزء الشرقي أو الجنوبي لهذه المرتفعات ضعف ارتفاع سانتالدهيلم، وثلاثة أضعاف ليزرد، وضعف ارتفاع سانتبيز، إن هذا رأس شاهق الارتفاع في كارنيرفنشير، ويجب أن يتم التذكر بأن بعض هذه المناطق عمودي الانحدار إلى مستوى المد والجزر.

لا تشكل الأسوار العالية أي رأس، إنها جدران شاهقة في الخليج. والصخور الشاطئية أقل ارتفاعاً في الجوانب. وبالإضافة إلى كونها بارزة فإن الجزء الأفقي منها مقعّر الشكل. والبحر الذي يمتد إلى شمال أميركا، أكل الفجوة المتكوّنة وسط التلال. وسأطلق على هذه المنحدرات اسم المنحدر الذي بلا اسم.

وأضاف الظلام رعباً فوق رعب الارتفاع، ناهيك عن صفير الرياح الغربية، التي أخذت تهب في الغلاف الجوي وتزيد الخوف.

قال نايت يقطع الصمت بعد تفكيره وتأملاته: «إن قطعة الكوارتز التي تدعم قدمي هي على أنف المنحدر. إن ما عليكِ فعله هو التالي، أن تتسلقي جسدي حتى تصبح قدماك على كتفي، وعندها يكون بإمكانكِ التسلق للخروج من هنا».

- وماذا ستفعل أنت يا نايت؟

- سأنتظر إلى أن تأتي أنتِ بالمساعدة.

- كان عليّ أن أقوم بهذا منذ البداية.

- كنت أنزلق، ولم أكن لأصل إلى نقطة تمنعني من الانزلاق لولا وزنك، ولكن لنتوقف عن الكلام، وكوني شجاعة يا ألفريدا وتسلقي.

قالت ألفريدا وهي تستعد للتسلق: «هذه هي اللحظة التي كنت أنتظرها عندما كنت على البرج، وقد ظننتها لن تأتي».

قال نايت: «هذا ليس الوقت المناسب للحدس، اطردي كل هذه الأفكار».

- سأفعل.

- ضعي قدمك فوق يدي، والآن ضعي القدم الأخرى، حسناً تسلقي إلى كتفي.

وجدتْ رأسها فوق الأرض.

- هل تستطيعين التسلق إلى المنطقة المستوية؟

- لا أعتقد ذلك، ولكني سأحاول.

- ماذا ترين؟

- المنحدر.

- ماذا عليه؟

- الخلنج الأرجواني، وبعض الأعشاب.

- لا شي آخر، لا إنسان، ولا حيوان، أو أي كائن آخر؟

- لا أحد.

- حاولي أن تصعدي من هذه الطريق، هل ترين الحزمة الوردية فوق رأسك، أمسكيها جيداً بيدك، ولكن لا تتقي بها كثيراً، واضغطي على كتفي؛ أتوقع حينذاك أنك ستخرجين.

وعملت كما قال لها ووجدت نفسها في الخارج.

عادت لتنظر إليه، ولكن ولسوء الحظ فإن وزنها المضاف إلى وزنه حرك قطعة الكوارتز التي كان يستند إليها. فأمسك نايت بحُزَم الأعشاب بكلتا اليدين. إن قطعة الكوارتز التي كان يستند إليها أصبحت عديمة الفائدة الآن؛ فقد تدحرجت وسقطت بالفضاء خلف التلسكوب.

إحدى حُزَم الأعشاب خرجت من مكانها وبدا نايت ينزلق فأحس بالرعب، تأوهت ألفريدا بألم وغطت وجهها بيديها.

كانت النتوءات الخشنة بين طبقة العشب التي تغطي المنحدر وبين الصخرة العظيمة تشكل منحدراً أشد انزلاقاً من السابق. أخذ نايت يزحف إليها ببطء إنشاً وراء إنش. وتمسك بآخر عشبة وتعلق بها. كان بإمكانه إفلات يده ولكن لم يكن هناك سطح مستوٍ كافٍ ليدعمه.

على الرغم من هذا الإرهاق العقلي والجسدي فقد وجد الوقت ليشكر الله على أن ألفريدا سالمة.

استلقت على جانبها ونظرت إليه من فوق، وعندما رأت أنه ثابت في مكانه نهضت على قدميها.

قالت: «الآن سأذهب لأحضر النجدة. يا ليتني كنت بدلاً منك، لماذا بذلت جهدك لتخرجني». وعادت بسرعة لتحضر النجدة.

- كم يلزمك للذهاب إلى أندلستو والعودة؟

- ثلاثة أرباع الساعة.

- لا أعتقد أنني أستطيع الصمود لعشر دقائق، أليس هناك أحد في المنطقة؟

- لا، إلا إذا مرّ عابر طريق.

- قد لا يكون معه شيء ينقذني به، هل هناك أي عصا أو عمود أو أي شي على الأرض؟

- لا شيء، إلا من بعض الحشائش والأعشاب.

مضت دقيقة وربما أكثر وهما مستغرقان في تفكير صامت، وفجأة غادرها الأسى واختفت عن ناظريه.

أحس نايت عندها بعزلة شديدة.

* * *

22

طريق المرأة

مرتفعات هاجرد بشعة الارتفاعات

إن هذا الطوق من مرتفعات هاجرد، الممتدة من إكسمور إلى لاندز إند، يُعَدُّ أكثرها بشاعة. إن قمتها غير آمنة للتجارب العلمية بسبب التيارات الهوائية كما اكتشف نايت لاحقاً. ما زال نايت متمسكاً بالجرف بكل ما أوتي من قوة بانتظار ما تنوي ألفريدا القيام به بغض النظر عن ماهيته.

إنه ما زال في بداية تطوره، وفيه كائنات متحجرة من القرون الغابرة من أوراق أو حشرات، كانت المواجهة بينه وبين الماضي. إنه صراع الحياة الأزلي بين هذه المرتفعات الضاربة في القِدَم وكل أشكال الحياة التي تمثلت بهذه العشبة التي يتمسك بها. تساءل نايت عن معنى غياب ألفريدا السريع، ولكنه كان واثقاً بوجود طاقة أمل له في هذا الغياب. إن حياته تعتمد على قضيب أو حبل لإنقاذه، إن إيجاد هذا هنا يبدو مستحيلاً. إن هذه المناطق المهجورة نادراً ما يتواجد فيها بشر إلا من أجل جمع بعض الطيور النادرة.

عند مواجهته الأولى للموت لم يفكر نايت لا بالماضي ولا بالحاضر، فكر فقط في أن الطبيعة ستضع حداً لحياته.

إن هذا الجرف هو الوجه الداخلي للمرتفع الضخم الأسطواني الشكل، وتظلله السماء من الأعلى والبحر من الأسفل، بهذا فهو يغلق الكهوف إلى نصف دائرة تحته.

كان بإمكان نايت أن يرى الأسطح العمودية المنحنية لكل واحد منها. ألقى نظرة إلى الأسفل وشاهد حجم التهديد الذي ينتظره؛ القذارة كانت في كل مكان.

تتزامن أحياناً الأحداث المثيرة بعضها مع بعض مما يؤدي إلى توقف الدماغ عن الاستيعاب، فمقابل عيني نايت كان هناك عينان ميتتان من الحجارة تنظران إليه، إنهما لكائن متحجر، من القشريات يدعي تريلوبايتز، وكان يعيش منذ ملايين السنين، ويبدو أنه ونايت التقيا في كيفية الموت. فقد كان ماثلاً أمامه كائن كان حياً، واحتفظت الطبيعة بجسده كما كان سابقاً.

كان الكائن يمثل نوعاً بدائياً من الوجود الحيواني، ولم يحدث أن كان في هذه المناطق من قبل، ولم يُطلق عليه اسم. لم يكن الإنسان يعيش على الأرض حينذاك كانت عصور أولية ولكنها قاسية في نفس الوقت، قاسية برُفاتها التي ما زالت ماثلة.

إن نايت عالِم جيولوجيا، وبحكم العادة، وبما أنه رجل مفكر فإن عقله وجد الوقت للمقارنة بينه وبين هذا الكائن حيث لا مكان مناسب أكثر من هذا المنحدر لمثل هذه الخيالات.

عاد به الزمن إلى الوراء، ورأى نفسه في العصور الغابرة، في بداية الحياة الإنسانية على الأرض، حيث كان الإنسان البدائي المتوحش يرتدي ورق الأشجار، ويختبئ من الوحوش، ويحمل الهراوات الضخمة المصنّعة من الأشجار، والرماحَ الحادة المصنعة من الصخور لحماية نفسه كأشباح مكبث الملعونين. كانوا يعيشون في الغابات والكهوف وأكواخ الطين. وعاد به الزمن إلى عصر ما قبل الإنسان. عصر أشكال الحيوانات الضهمة مثل المستودون، وفرس النهر، والتابير، والظباء الضخمة والكسلان، وكل الكائنات ذات الأحجام العظيمة. عاد به الزمن إلى أبعد من هذا إلى عصر الطيور الضخمة والكائنات الخنزيرية بحجم الخيول، وأبعد قليلاً حيث التماسيح، والسحالي، والأغوانات، وأبعد قليلاً حيث كانت التنانين، وغيوم من الزواحف الطائرة، وأبعد قليلاً حيث كانت الأسماك إلى أن وصل إلى النباتات التي ما زالت ماثلة إلى الآن.

إن جميع هذه الصور مرت بخياله في أقل من نصف دقيقة، وأعاد التفكير في وجوده وهل سيموت؟

إن وجود ألفريدا في العالم دون أن يعلن عليها الحب، كان كالسياط التي تجلد نياط قلبه. كان يتأمل في حل، ولكن ماذا يمكن لهذه الفتاة أن تفعل؟ لم يجرؤ على التحرك قيد أنملة، هل كان الموت يتمدد باتجاهه؟ وبدا الموت هو الاحتمال الأقرب.

إنه ما يزال متشبثاً بالجرف.

إن الطبيعة في قساوتها أو كرمها الغامر لا تخضع لأي منطق أو قانون. في بعض الأحيان تكون ماكرة في حِيَلها وألاعيبها، وتبلغ الذروة عند ابتلاع ضحيتها.

إن طريقة التفكير هذه كانت سخيفة في نظر نايت، ويبدو أنه تبنى هذه النظرية على الرغم من سخفها. في البداية أوصله الانزلاق إلى الصخور، وتبعه عذابات جديدة، حيث هطلت الأمطار بغزارة شديدة.

ازداد شعوره بالاضطهاد بسبب الوضع السيئ الذي وجد نفسه فيه.

إن للأمطار هنا ترتيباً مختلفاً، فقد أمطرت إلى الأعلى بدل أن تمطر إلى الأسفل، حَمَل تيارُ الهواء قطرات المطر إلى أعلى الجرف، وضربت جسمه بعنف، فالتصقت بجسده كالإبر الباردة، كل قطرة ماء كانت تقطع جسده كالسيف. لم يحدث قطّ أن كان للمطر هذا الأثر من العذاب، لقد كان مبتلاً بالكامل ما عدا قبعته، وأعلى كتفيه. ناهيك عن شدة الرياح التي رفعت معطفه.

بدأت قواه تخور، فقال في نفسه: «لن تعود ألفريدا، لقد مضى على غيابها عشر دقائق».

إن الإحساس بالوقت مسألة نسبية تعتمد على التجربة الشخصية التي يعيشها الشخص، فهي لم تغب سوى ثلاث دقائق.

«كم من الزمن سيمر قبل أن تكون نهايتي».

يخطئ العقل في ظروف مشابهة عند عقد مقارنات تتعلق بالوقت.

«ولم يحدث أن مرَّ في عمري أمسية صيفية تحمل كل هذا المطر والبرد».

ولكنه كان مخطئاً المرةَ الثانية، فكثيراً ما كانت الأمسيات الصيفية في هذه النواحي باردة وماطرة.

نظر مرة أخرى إلى تحت، كانت دوامة الرياح عنيفة إلى درجة أنها رفعت شاربه، ولطمت وجنتيه وما تحت جفنيه، بل في داخل عينيه. رأى البحر تحته على بُعد أكثر من مائتي ياردة، الظروف تهيئ للمرء أحياناً رؤية ألوان وأشياء غير صحيحة، فهو قد رأى ماء البحر أسود بدلاً من أن يكون أزرق.

إن العالم الآن، وإلى حدٍّ ما بالنسبة إليه مقلوب رأساً على عقب، فالأمطار تتساقط من تحته، وتحته فراغ، وفوق رأسه كانت اليابسة وفوقها مَن يحب.

كان بإمكانه أن يسمع أصوات الطبيعة القاسية، إنّ الأقرب هو صوت الريح العاصفة تزمجر بصوت عالٍ حيناً، وبصوت منخفض حيناً آخر، تدفعه بلين مرة وبشدة مرة أخرى. أما الصوت الآخر البعيد فكان هدير المحيط، البعيد السحيق، صوت أمواجه اللامتناهية التي تضرب الجرف الذي لا اسم له.

حافظ نايت على تماسكه بثبات، هل عنده أي ثقة بألفريدا؟ إن الحب ثقة، الثقة مثل قَطْف الورود، فقد تعيش دون جذور. لم يتوقع أحد أن تطلع الشمس في مثل هذه الظروف، ومع ذلك فقد ظهرت حمراء قريبة من سطح البحر.

الغرور النفسي مهما حاولنا إنكاره جزء من التكوين البشري، وقد عرف نايت، دون أن يُظهر هذا، أن غروره أعلى من المعتاد.

وكان يفكر أنه بموته سيخسر العالم الشيء الكثير وأن الموت يجب أن يكون مقتصراً على الناس الأقل ذكاءً.

يعتقد الناس عند مرورهم بمزاج مرير أن الظروف العنيدة تتوقف أمام محاولات الذكاء للخلاص من المواقف الصعبة. وفي اللحظة التي يتخلى فيها الشخص عن أمر مهم وخطير فيجد أنه يحظي بنتيجة أفضل مما كان يتوقع.

في الوقت الذي توقف فيه نايت عن التفكير في الحياة بشكل كامل ونهائي وأخذ ينظر إلى اللجة المظلمة تحته، سمع صوت جلبة على الضفة فوقه وظهر له رأس ألفريدا. عندئذ استعد نايت للترحيب بالحياة مرة أخرى. كان كمن يرى صديقاً بعد عذابات طويلة من الوحدة، أو كسفينة تجد منارة بعد تعرضها للخطر والضياع.

نظر إليها بامتنان شديد، وشكرتْها كل أخاديد وجهه وتغضناته، وهمست شفتاه بكل المشاعر الصامتة باسمها «ألفريدا». عيناه كانتا في أعلى درجات الامتنان.

لقد عادت ألفريدا ولكن ما الذي جاءت من أجله، إنه لا يدري. قد تكون جاءت لتشاهد موته، ومع هذا فقد عادت ولم تتركه وحيداً، وهذا يُحسب لها.

كان شيئاً عجيباً أن ترى هنري نايت، الذي تعامل مع ألفريدا على أنها طفلة واحتواها كما تحتوي الشجرة عش طائر والذي اعتبرها طالبة، وجعلها تنتحب بشدة ومرارة على معنى وجودها، إنه الآن شاكر لرؤية وجهها. نظرت إليه من فوق بوجه مليء بالمطر والدموع، ابتسم بضعف.

حدَّثت نفسها: «يا الله كم هو هادئ، كم هو جميل ونبيل أن يكون هادئاً بهذه الطريقة!». إن عندها استعداداً لتموت عشر مرات من أجله.

لمحت القارب البخاري ينزلق على البحر فأزاحت بصرها.

قالت بصوت أضاع الريحُ قوته فوصل إليه خافتاً ضعيفاً: «كم تستطيع أن تصمد؟».

أجاب بصوت أكثر ضعفاً: «أربع دقائق».

- وإذا كان هناك أمل لإنقاذك؟

- سبع دقائق أو ثماني.

وقد لاحظ أنها تحمل تحت ذراعها حزمة من الملابس المصنوعة من الكتّان الأبيض وأن جسدها أصبح أكثر وهناً ونحولاً. وكم كانت مرنة فقد انحنت تحت ضربات المطر على جسدها وصدرها ووجهها، ومن المعروف أن البلل يزداد عند التخلص من الملابس.

جلست وهي لا تأبه بالمطر الذي يدخل في عينيها وهي تجدل الملابس البيضاء، وما أن انتهت حتى حولتها إلى حبل مشدود بطول ست أو سبع ياردات.

- هل تستطيع الانتظار إلى أن أتمّ ربطه؟

إن الأمل أعطاه مزيداً من القوة.

واستمرت ألفريدا بالجَدْل وإضافة مزيد من الدعم للعقد المجدولة من القماش المتبقي.

وقال نايت الذي كان يراقبها: «إنني أستطيع الانتظار ثلاث دقائق أخرى هل بإمكانك التأكد من متانة العقد في هذا الوقت؟».

أطاعت وأخذت تضع قدمها على المنطقة بين العقدتين وشدت، فَلَتَتْ إحدى العقد.

- لحسن الحظ أننا تأكدنا من متانتها.

أعادت ربط الطرفين وأصبح الحبل متيناً من جميع الجهات.

قال لها: «عندما ترمي الحبل اذهبي إلى حافة المنحدر، فوق الضفة إلى أقصى ما يصل الحبل إليه، ثم انحني وأمسكي بالطرف بكلتا يديك».

كان قد فكر في خطة أخرى لنجاته، ولكنها كانت ستعرض حياتها للخطر.

قالت: «لقد ربطتُ الطرف حول خصري وسأنحني باتجاه الحافة وسأمسكه بكلتا يديّ أيضاً».

وكان هذا ما فكر فيه ولكنه لم يقترحه.

- سأرفعه وأسقطه ثلاث مرات، علامةً على أنني مستعدة، خذ حذرك، أرجوك أن تأخذ حذرك.

كان الحبل على كتف نايت وبعد قليل تحرك ثلاث مرات، انتظر ثانيتين ثم أمسك به بشدة واتكأ بنصف وزنه على الحبل ورفع نفسه فكان خارج الجرف.

ها قد أنقذته ألفريدا.

عندما رأته، قفزت على قدميها فَرَحاً، وتقابلت عيونهما واشتعلت بينهما شرارة من المشاعر لم يستطع أحدهما مقاومتها ركض أحدهما إلى الآخر وتعانقا، نظرت ألفريدا بطرف عينها نحو السفينة البخارية ولم تكن هناك.

إن إنقاذ رجل من التهلكة أثَّر بصميم روح الفتاة الصغيرة واختلط بين نداء الواجب والتهور. إن كل عصب فيها كان ينبض بقوة الإرادة الداخلية، اعتبر تواجدها بين ذراعيه الآن نتيجة كاملة أو تتويجاً لكل ما قامت به في حياتها. ومن الممكن أن يكون احتضانه لها هو امتناناً وليس حباً.

ليس مهماً، فأن تكون عبداً للكثيرين أفضل من أن تكون ملكاً للاشيء.

كان الوضع الحميم الذي هما فيه يتطلب أن يقبّلها وتقبّله ومع ذلك فلم يحدث هذا؛ وذلك لأن طبيعة نايت النبيلة لم تكن لتسمح له بأن يستغل موقفاً كهذا.

حررت ألفريدا نفسها منه بلطف، وتفحصها بنظره من رأسها إلى أخمص قدميها.

قال بذهول: «ألفريدا يا ألفريدا».

قالت وقد تضاعف احمرار وجنتيها بسبب السعادة والخجل: «سأتركك الآن، اتبعني ولكن كن على مسافة».

- إن المطر والريح سيقتلانك من البرد، ليحفظك الله على هذا التفاني. خذي معطفي وارتديه.

- لا، سيدفأ جسمي بالركض.

لم يكن فعلياً بين ألفريدا والمطر والبرد إلا ملابسها الخارجية. عندما كان نايت في الجرف ينتظر الموت، فقد خلعت جميع ملابسها، وأبقت التنورة والقميص، ونسجت ما بقي، وحولته إلى حبل من القطن والصوف.

- إنني معتادة على البلل، فقد تبللت مرات عديدة، إلى أن نلتقي في البيت بجانب الموقد.

ركضت بعد ذلك بسرعة واختفت عن النظر.

شعر نايت بالبرد والبلل ولكنه توهج بالحرارة، وأكبر في ألفريدا رفضها معطفه على الرغم من رقة ما ترتديه.

جمع الحبل المعقود من الكتّان والملابس المخرمة والمطرزة ووضعه على ذراعه. وجد على الأرض مغلفاً مبتلاً بالمطر، وما أن حمله نايت حتى سقطت منه ورقة، طارت بفعل الريح فوق الجرف، وفوق البحر ثم عادت إلى ما فوق رأس نايت، التقطها ووجد أنها إيصال بنكي بمائتي جنيه إسترليني، باسم الآنسة سوانكورت، والذي نسيت الفتاة المسكينة أن تأخذه.

طواه نايت بحرص بقدر ما تسمح به يداه المبللتان ووضعه في جيبه، وتبع ألفريدا.

* * *

23

هل ينبغي نسيان التعارف؟

نزل ستيفن إلى الميناء في قلعة بوتريل في هذا الوقت، واستنشق هواء بلاده. كانت بشرته قد ازدادت سمرة وشواربه قد تحددت أكثر، وظهر له لحية خفيفة.

حمل حقيبة في يده على الرغم من المطر وترك الباقي في الفندق وصعد التلال باتجاه شرق أندلستو، تقع هذه المنطقة في وادٍ مغلق من الأراضي الداخلية بعكس غرب أندلستو على الرغم من قربهما المكاني، ولا شبه بينهما من الناحية الجغرافية إلا قليلاً. إن شرق أندلستو أكثر خصوبة واخضراراً، وليس فيه تلك المرتفعات شديدة البرودة التي تسبب عزلة المناطق المحيطة بالمحيط وخرابها. ما عدا الوادي الصغير الذي فيه الأبرشية وبيت السيدة سوانكورت القديم.

ما أن وصل ستيفن قمة التل حتى ازداد هطول الأمطار فأخذ يبحث عن ملجأ مؤقت يحتمي فيه، فصعد إلى طريق منحدرة مطلة على الوادي قريبة من التقاء الطرق الرئيسية، واحتمى ببعض

الصخور في هذه المنطقة، لغاية في نفس يعقوب وكانت الأرض تحت عينيه مفتوحة كالكتاب.

كان يتفحص الوادي الذي فيه بيت ألفريدا. إن هذه العملية تتطلب عيناً خبيرة بالأرض والمسافات. بدت له عن بُعد الأشجار والشجيرات المتلاصقة، التي يفصلها سلسلة من المرتفعات الشاهقة التي بلا اسم، والتي تختلف عن تلال هذه المنطقة القليلة الارتفاع. أما من الناحية المقابلة، التي كانت مغطاة بأشجار الجوز الخضراء فكان بإمكانه رؤية الخنازير القزمية التي ترعى في التلال، وكان قد رآها مئات المرات ولكن لم يرها من قبل بعين الرقة كما يراها الآن.

وإذ تقدم قليلاً فكان يرى برج كنيسة أندلستو الغربي، حيث سيلتقي ألفريدا الليلة. وفي نفس الوقت لاحظ شيئاً أبيض يتجه نحوه خلال التلال، ظنه في البداية طائر نورس، ثم اكتشف أنه شخص يسير بسرعة تحت المطر، نزل إلى التلال، واختفى عن الأنظار.

وفي أثناء تفكيره في هذه الظاهرة، فقد ظهر من نفس نقطة ظهور الشكل الأول شكلاً آخر ولكنه كان أسود اللون وعند إمعان النظر وجد أنه رجل ولكنه يسير بشكل أبطأ وسار في نفس مسار الأول.

عندما خفّت حدة الأمطار عاد ستيفن إلى الشارع، وعند النظر أمامه وجد رجلين وعربة، وسمع ما دار بينهما من حديث.

– لا بد أن يكون في الحي الآن. وقد عرفه ستيفن فهو صوت مارتن كانيستر.

– أعتقد ذلك. وكان هذا صوت والد ستيفن.

كانا يسيران في الطريق وبجانبهما عربة خيل ويرتديان ثاني أفضل بدلة عندهما، عندها تقدم ستيفن وجهاً لوجه باتجاههما.

قال ستيفن: «هاهو الرجل الضائع يا سيد كانيستر».

وحيّا والده بالطريقة القديمة: «ها أنا يا أبي».

قال السيد سميث بفرح غامر: «أنا في غاية السعادة لرؤيتك يا بني، كيف أنت؟».

- هيا بنا إلى البيت، إن هذا الطقس سيئ جداً لشخص اعتاد على العيش في دولة حارة كالهند. أليس كذلك يا جاري؟

- صحيح، صحيح. وماذا بشأن إحضار أغراضه إلى البيت؟ الصناديق، والحقائب، وعلب كلّها بأشكال غريبة على ما أعتقد!

قال ستيفن ضاحكاً: «كما قلت».

قال الأب: «لقد أحضرنا العربة بقصد الذهاب إلى قلعة بوتريل لاستقبالك. على أي حال سيذهب مارتن لإحضار الحقائب بالعربة وسنسير أنا وأنت إلى البيت».

أخبرَ ستيفنُ مارتنَ بمكان الحقائب وأكمل طريقه برفقة والده إلى البيت.

- لأنك جئت مبكراً يوماً واحداً فستجدنا في حالة فوضى يا سيدي. سيدي! إني أقول لابني سيدي!

- ولكنك كبرت يا ستيفن، لقد ذبحنا لأجلك خنزيراً هذا الصباح، فنحن نعتقد أنك جائع، ومتشوق إلى اللحم الطازج،

ولكن لن يتم تقطيعه قبل المساء، وسنصنع لك، على العشاء، وليمة من الشواء مع الخردل والمقبّلات، والفلفل الحار. إن أمك قامت بتنظيف البيت، فغسلت كل الأثاث، واشترت حوضاً وإبريقاً جديداً من بائعة متجولة حضرت إلى البيت، ونظفت القناة وغسلت الشبابيك، لا أعرف ماذا فعلت أيضاً ولكنها بذلت جهداً كبيراً.

بقية الوقت في الطريق استمرت الأحاديث من هذا النوع بالإضافة إلى استفسارات ستيفن عن صحة والدته. وما أن وصلا قرب البيت حتى سمعا صوت الساعة يقرع معلناً عن الساعة كل ربع ساعة، وتبادر إلى مخيلة ستيفن صورة أمه وهي تعيد تعبئة الساعة بأصابعها.

قال والده، وهما يدخلان الحديقة إلى البيت: «إن الساعة توقفت هذا الصباح ويبدو أن أمك تقوم بتعبئتها».

حيا ستيفن أمه بحرارة وبكل الواجب المطلوب، وكانت ترتدي فستانا قطنياً من اللون الأزرق الغامق المنقوش بالأقمار والنجوم والأشكال الغريبة.

سمعوا صوت عجلات في الخارج، ودخل مارتن وكان يحمل متاع ستيفن. صعد ستيفن إلى الطابق العلوي ليغير ملابسه. وما أن استعادت السيدة سميث رشدها حتى قالت:

«إن هذه الساعة لا تساوي بنساً واحداً»، وعادت لتحاول أن تعبئها من جديد.

مارتن: «هل توقفتْ مرة أخرى؟».

- إن جون يصرف جنيهات في السنة من أجل هذا الشيء العتيق، لتنظيفها، في حين أن بإمكانك أن تصلحها بنفسك.

- أقول له إن الساعة توقفت مرة أخرى، فيقول لي: «يجب أن ننظفها، هاك خمس شلنات». وتتوقف الساعة مرة أخرى فيقول: «يجب أن ننظفها». أقول له «إن هذه الساعة تقرع بشكل خاطئ». فيقول: «من الأفضل أن ننظفها». إن العجلات قد حفت إلى العظم إذا ما سمعت كلامه، وإنني أؤكد لك أنه كان بإمكاننا شراء ساعة لامعة جميلة بثمن التصليحات مدة عشر سنوات بدل هذه الخردة.

- لا بد أنك مبتلّ يا مارتن، إن ستيفن ذهب ليغير ملابسه، إن بعض خادمات السيدة سوانكورت كنَّ هنا، وقد خرجن في المطر، وأؤكد لك أن حالة ملابسهن كانت مخيفة.

- من هن؟ لقد كنا في طريق قلعة بوتريل، وتوقفنا مراراً بفعل العاصفة، وصوت القلي ما زال في رأسي: فِزفِزفِزفِز، قلي سمك من الصباح إلى المساء.

سمع صوت قرع الباب في هذه اللحظة. قالت السيدة سميث بصوت متعجب خفيض: «يا إلهي من هذا!».

كان السيد ويليام وارم يرغم نفسه على فرد ملامحه لتبدو أكثر رقة وحضارة؛ وعلى ابتسامة تبدو بعيدة كل البعد عن مزاجه الحالي. كانت خلفَه زوجتُه وهي امرأة بضعف حجمه وتحمل بيدها مظلة كبيرة.

- تفضل يا ويليام فنحن لا نذبح خنزيراً كل يوم، وأنتِ أيضاً يا سيدة وارم تفضلي على الرحب والسعة، بما أنك تركت أبرشية سوانكورت.

- لا، لا، ولأقول لك الحقيقة، فأنا لم أدخل الكنيسة منذ أن ذهبت إلى ترنبايك جيت. لم أذهب إلا قليلاً، فلم أعد أذهب أيام الآحاد. وقلت لزوجتي هيا بنا نذهب لزيارة جون سميث.

- إني آسفة لأن رأسك ما زال يؤلمك.

- إني أؤكد لك أن قلي السمك مستمر من الصباح حتى المساء، وهو لا يقتصر على السمك فأحياناً يكون لحم خنزير، أو بصل وأحياناً أحس أن الدهن يتطاير كأنه حقيقي. تخيلي هذا يا سيدة وارم!

كانت السيدة وارم مشغولة طوال الوقت في توضيب المظلة الكبيرة، وعندما دخلت كانت امرأة طلقة الوجه، مريحة المحيا وعلى وجهها شامة في وسطها بعض الشعر.

سأل مارتن كانيستر: «هل حاولت يوماً علاج أنفك، سيد وارم؟».

- نعم لقد حاولت كل شيء، الحمد لله، لا بد من حلّ بعد كل هذه السنوات، لقد حاولت ولم أجد نفعاً، إن الحياة شاقة.

قال وارم: «صحيح إن الحياة صعبة».

قالت السيدة سميث: «علقي أغراضك يا سيدة وارم، فنحن الآن في حالة فوضى. لقد جاء ابني من الهند مبكراً يوماً واحداً عما كنا نتوقع، واللحام في طريقه الآن لتقطيع الخنزير».

لم تحاول السيدة وارم النظر إلى عيوب بيتهم في خضم الفوضى، ونزعت أغطيتها ومعطفها، وعيناها مثبتتان على الأزهار في خارج البيت.

قالت السيدة وارم: «يا لجمال أزهار الزنبق النمري».

- نعم، ولكنها تسبب لي المشاكل بسبب الأولاد الذين يأتون إلى هنا ويأكلون التوت ويقولون عنه زبيب.

- ونبات فم السمكة يبدو رائعاً كما هو دائماً!

أجابت السيدة سميث بطريقة إرشادية: «في الواقع إنّ هذه الأزهار تتطلب عناية خاصة، وبإمكانك قول نفس الشيء عن نبات عجلة مريم والتي أحبها أكثر من أي نوع على الرغم من بساطتها، ولكن جون لا يحب أي نوع من الأزهار، فالرجال جميعاً ليس عندهم عين للجمال. ويقول جون إن هذه الزهرة هي المفضلة عنده، وأتمنى أن أتخلص منها في الربيع».

- أنت لا تقصدين هذا سيدة سميث؟

- إن جون يحفر حول الجذور، ويضرب المحراث الجذور والأبصال ويقلبها رأساً على عقب، ويقطع كل ما يجده في طريقه. في الخريف الماضي أردت أن أنقل بعض أبصال التيولب، فوجدت كل الأبصال مقلوبة، وعندما جاء الربيع لم تجد المخلوقات المسكينة السماء في مكانها المعتاد.

- وما هذه النبتة الطويلة تحت السياج؟

- يا الله، إنها سلم يعقوب المزعجة التي بدل أن أكون مسرورة منها أجدني أكثر انزعاجاً، لأنها تنمو دائماً في المكان الخطأ. ليس هناك نبات مثله يتعرض لكل هذا الإهمال وهو يعاود النمو من جديد، إنني أخلعه وأسحبه وأقصّره إلا أنه ينبت من جديد.

أرميه فوق السياج، فيعاود النمو وينظر إليّ ككلب جائع. ويعود بعد أسبوع أو أسبوعين أقوى من الأول، لو زرعته في مكان لا ينمو فيه شيء فستجدينه قد نما بشكل كثيف. في الصيف الماضي صنع جون خلاطاً للسماد وقال لي: «هل تزرعين شيئاً من أزهارك التي لا تريدينها حول خلاطي»، وذلك لإخفائه. ففكرت بسلم يعقوب حيث لن تشكل ضرراً هناك. فنمت وغطت الخلاط وما حول الخلاط وكنت تجدينها في كل حوض النفايات، وعندما يريد سميث استخدام الخلاط كان يقول قصي سلم يعقوب، لقد أخذت كل الفائدة من السماد وأصبح لا فرق بينه وبين التراب، إنني على قناعة تامة بأن سلم يعقوب هي عشبة وليست زهرة.

وصل في هذه اللحظة لحّام الخنازير روبرت ليكبان، كان الحيوان السمين معلقاً ومشقوقاً من ظهره وموضوعاً في زاوية المطبخ. وكانت السيدة سميث مشغولة بتحضير الحساء. ما بين القطع والسلخ يُقَدّم نبيذ الجعة، كان وارم واللحام يصغيان بانتباه لسميث وهو يروي لهما لقاءَه مع ستيفن، بعينين مثبتتين على شرشف الطاولة في محاولة لتصور المشهد كاملاً.

في هذه اللحظة نزل ستيفن من الطابق العلوي وبعد أن تم الترحاب به، أكمل الراوي قصته وكأن ستيفن لم يكن في عين الحدث وكان الحديث موجهاً له من ضمن الحاضرين.

«وما أن رأيته من بعيد حتى قلت إنه الصبي فهو يمشي كجدّه، كوالدي المسكين من دون العالم. ولكن كان به شيء غريب، اقتربت أكثر وقلت في نفسي، إنه الفتي فهو يحمل حقيبة السفر

السوداء هذه، ولكن هذا الطريق فيه كثير من المسافرين مع حقائب سوداء. ثم قلت لمارتن إنه الصبي، واقتربت أكثر وكدت أقسم أنه هو». وبدؤوا بنقد مظهر ستيفن.

قال مارتن: «إذا كنتم تصدقونني، فوجهه يبدو أكثر نحافة عما رأيته في الأبرشية، ولم أكن لأتعرف عليه».

وقال آخر دون أن يزيل عينيه عن وجه ستيفن: «كنت سأعرفه أينما كان، فله أنف والده».

قال ستيفن بتواضع: «نعم إنه نفس الأنف».

قال مارتن وهو يتفحص ستيفن من رأسه حتى أخمص قدميه: «وهو بالتأكيد أكثر طولاً».

رد مارتن: «أعتقد أنه بنفس الطول، يحفظه الله، ولكنه الآن أصبح أكبر سناً. وانتقلت جميع العيون لتتفحص خصر ستيفن».

قال ويليام: «قد أكون رجلاً مسكيناً، ولكن اسمحوا لي بهذه الملاحظة، ها قد جاء ستيفن كرجل مسافر وغريب، ولن يتعرف عليه أحد من عائلة سوانكورت. إن الحياة غريبة الشكل. اعذروني ولكن يجب أن أقول هذا».

أجاب ستيفن، وهو يحاول أن يبعدهم عن موضوع الحديث بعد تلك الملاحظة: «ليس بالضرورة في هذا الوقت».

قال وارم: «بعض الناس لن يقبل بأقل من «سيد»، إن هناك فروقات كبيرة بين البشر».

قال سميث وهو ينظر إلى جثة الخنزير: «وفي الخنازير أيضاً».

أضاف اللحام روبرت ليكبان: «نعم يبدو أن لكل واحد طبيعة مختلفة، وقد عرفت طبيعة خنازير كثيرة».

قال مارتن مجاملاً من باب اللياقة: «لا أشك في هذا».

قال اللحام كشخص معتاد على استماع الناس له: «عرفت أحد الخنازير الذي كان أصمّ وأخرس. كان يأكل كثيراً عندما يرى المعلف، ولكن عندما يدير ظهره، وتقرع السطل طول النهار فما كان يسمع، ولم أرَ أسهل من ذبحه وسلخه، وكان لحمه طرياً ولذيذاً».

وأخذ ليكبان جرعة أخرى من الشراب وأضاف: «ولكن خنزيراً آخر فَقَدَ عقله».

قالت السيدة وارم: «كم هذا قاسي وغير رحيم».

قال سميث: «إنني أستطيع التعامل مع الخنزير بشكل جيد».

ثم قال: «لنزن الخنزير الآن، ويمكن أن نزنه مرة واحدة إذا كان ليس سميناً، أو نزنه على دفعات إذا كان سميناً. اعذرني فقد تذكرت نكتتي القديمة يا جون».

- أعتقد ذلك فقد سمعتها منذ سنوات طويلة.

- نعم، فهي نكته متوارثة في العائلة، فقد اعتاد والدي على استعمالها عند ذبح الخنازير ما يزيد عن خمس وأربعين سنة، وقد أخذها عن والده.

قالت السيدة سميث: «أنا لم أسمع النكتة من قبل».

قالت السيدة وارم، التي أحست بها أنها السيدة الوحيدة في الغرفة، فمن باب اللياقة أن تحذو حذو السيدة سميث: «وأنا أيضاً لم أسمعها».

قال اللحام وهو ينظر إلى المرأتين، بالتأكيد سمعتما بها، إنها ليست بالشيء الكثير، قلت في إحدى المرات في أثناء وزن الخنزير: «إن الثقل سيقول كم يزن. وظن الجميع أن ابني اسمه ثِقَل، في حين كنت أقصد ثِقَل الميزان».

ضحك مارتن كانيستر الذي سمع النكتة مئات المرات.

وضحك جون سميث الذي سمعها آلاف المرات.

وضحك ويليام وارم الذي لم يسمعها من قبل، ولكنه خشي أن يقول ذلك.

قال كانيستر: «لا بد أن جدّك كان ذكياً ليخترع نكتة كهذه».

- نعم إنه كان شديد الذكاء. كل أول مواليد عائلة ليكبان كان اسمهم «روبرت»، وأما الآن فأصبحوا جميعاً «بوب»، وهكذا انتقلت النكتة من جيل إلى جيل.

قالت السيدة وارم متفكرة: «مسكين ابنك الثاني جوزيف فهو لن يتمكن من روايتها بهذه الطريقة».

- نعم للأسف، فلن يتمكن، لقد عرفتم أن جدي رجل ذكي ولكن هناك من يفوقه ذكاءً، إنه عمي ليفي، فقد صنع صندوق سعوط وكان يتحدى أصدقاءَه في فتحه. وكان يعطيهم إياه في الجنازات وحفلات الزفاف، وفي عيد الميلاد. ويتحداهم ليفتحوه،

كان لهذا الصندوق الاستثنائي زمبرك يضغط إلى الأمام والخلف، في مكان ما تحت الغطاء، وبرغي في المقدمة، ومقابض في كل مكان، حاول البعض فتحه من البرغي وآخر من الغطاء ومن المقبض دون فائدة ولم يكن يُفتح أبداً.

- وكيف كان يُفتح؟ ؟

- لم يكن من الممكن فتحه ولو بعد ألف سنة فقد قام بإلصاقه بالصمغ من جميع الجهات.

- إنه رجل عميق التفكير، ليصنع صندوقاً كهذا.

- نعم، إن هذا هو العم ليفي.

- إنني أعرفه فقد كان أطول رجل رأيته في حياتي.

- نعم إنه كان طويلاً جداً حتى إنه لم يكن يستطيع أن ينام في السرير، وكان ينام ويترك باب بيته الصغير في البرية مفتوحاً وقدماه خارج البيت بسبب طوله المفرط.

- إنه متوفى الآن، ليرحمه الله، كما سنتوفى جميعاً.

كان صوت السلخ والتقطيع مستمراً، وكان نتيجة تعب اليوم قلاية لحم مع البصل وُضِعت على طاولة العشاء.

وكان ابن صاحب البيت مشتت الذهن، ولم يستطع ذهنه استيعاب عقلية أصدقاء والده القديمة، فهو لم يعشْ في هذا البيت منذ طفولته، وحضور ويليام وارم كان أكثر الأمور سوءاً، فقد كان مطلاً على بداياته عند عائلة سوانكورت، وكان وجوده يذكره بتقسيم القسيس الاجتماعي له قبل ذهابه إلى الهند.

كانت السيدة سميث واعية لهذا الخطأ في تركيبة المدعوين فخاطبت ابنها على انفراد.

«إنني لا أريد أولئك الناس هنا، ولكن ماذا أستطيع أن أفعل!!!»، ثم أردفت قائلة:

- وأنت تعرف طبيعة والدك القاسية، وهو منخرط مع أولئك الناس أكثر ممّا ينبغي.

- لا تهتمي يا أمي.

- متى سننتهي من السُّكنى في هذه المنطقة ونتمكن من العيش في مكان آخر مع ناس جدد، وبيت أكبر، حيث سأعمل على رفع مستوانا.

تساءَل ستيفن: «هل تعلمين إذا ما كانت الآنسة سوانكورت في البيت؟».

- نعم لقد رآها والدك هذا الصباح.

- هل ترينها أنت؟

- نادراً ما أراها، يتم استدعاء السيد جلم مساعد القسيس ولكن عائلة سوانكورت نادراً ما تجيء إلى القرية إلا مروراً، فهم يزورون سيدي اللورد للعشاء بشكل أكثر مما سبق، وهذه رسالة أحضرها صبي لك اليوم.

تناول ستيفن الرسالة بتوق وفتحها، كانت من ألفريدا، وقد أرسلتها قبل حادثة المرتفعات.

«نعم، سأقابلك في الكنيسة عند التاسعة مساء».

قالت والدته: «أما زلت تفكر في الآنسة ألفريدا، لو كنت مكانك لما فكرت فيها، فهم يقولون إنها لن ترث نقود زوجة أبيها».

- سأخرج قليلاً لأتجول في المنطقة، ولربما عند عودتي يكون ضيوفنا قد غادروا البيت، فنحظى ببعض الخصوصية.

* * *

24

النسيم، والطيور، والأزهار تخبرنا بالوقت

توقف هطول الأمطار منذ مغيب الشمس، كانت ليلة مليئة بالغيوم ومتشحة بضوء القمر الشاحب.

طيف أسود خرج من بيت جون سميث وتوجه بخطوات خفيفة إلى غرب أندلستو، وصعد التل وانعطف مع طريق العربات إلى ساحة الكنيسة، حيث كان البرج يعانق السماء.

وقد ازداد المكان عشوائية أكثر من السابق، فالأعشاب ازدادت طولاً، والقبور كما هي منذ بنائها ومعظمها قد بناها جده.

سمع صوتاً من جهة قلعة بوتريل، كان صوت قرع برج ساعة الكنيسة، الذي مزق صمت المكان وكأنه أمامه: واحد، اثنان، ثلاثة، ... تسعة: قام ستيفن بعدّ الدقات بحذر، إنها الساعة التي اختارتها ألفريدا للقائهما.

توجه ستيفن إلى الطريق وأصغى يسمع، كان بإمكانه أن يسمع صوت تنفس أي شخص يمر في الطريق. لم يكن هناك أحد.

دلف إلى الداخل وجلس على المقعد الخشبي وانتظر مع دقات قلب متسارعة.

سمع صوت المحيط من بعيد، وصوت صقر في الليل، وقرقعة ورقة شجر يابسة تسحبها دودة صغيرة. ولكن من بين كل هذه الأصوات لم يسمع وقع الخطوات اللطيف الذي كان ينتظره على الأرض.

وبعد ربع ساعة من السكون التام، الذي لم يتحرك في أثنائه أي عضلة، توجه إلى غرب المقبرة وانعطف عند زاوية البرج، واصطدم بشيء أبيض، وعندما تمالك نفسه وجد أنه قبر الشاب المزارع جثواي، الذي يبدو جديداً كأنه بُني اليوم. تذكر ليلته مع ألفريدا عندما جلسا على هذا القبر. تجول بين القبور إلى حدود المقبرة حيث يستطيع نهاراً أن يرى الأبرشية وبيت عائلة سوانكورت من هذا المكان. لم يكن هناك وقع خطوات، ولكن كان بإمكانه أن يرى نور إحدى نوافذ بيت سوانكورت.

تأكد ستيفن أنه لا يمكن أن يخطئ في المكان والوقت، وحتى في استمرار الخطبة. فانتظر وقتاً أطول. واستيقظ من انتظاره التواق على دقات ساعة قلعة بوتريل تعلن العاشرة.

ترك الكنيسة واتجه إلى بيت أندلستو، وانتظر بضع دقائق على الباب، وخلال وقوفه على الباب سمع صوت رجل غريب وصدى ضحكات ألفريدا.

أحس بألم يعتصر صدره، فتراجع كما جاء؛ اختلطت مشاعر الخيبة بمشاعر الحزن ومشاعر الجروح التي لا تندمل، فأحس

بتعاسة شديدة، وبأن أحلامه كلها قد اغتيلت على هذا المذبح، ولو جاءت ألفريدا الآن لما زايله هذا الشعور بالخيبة.

عندما وصل إلى بيت أسرته، وجد منها رسالة توقع أن تخبره فيها بسبب عدم حضورها وكأنّ هناك مبرراً!!

كانت الرسالة لا تحتوي على أي كلمة، ولكن كان فيها إيصال البنك بمبلغ مائتي جنيه وخلفها شيك لحامله بنفس المبلغ.

اضطرب ستيفن، ولم يفهم سبب تصرفها الأخير أو الدوافع من ورائه. لا بد أن شيئاً قد حدث وأدى إلى تغيير موقفها منه، في الفترة ما بين إرسال رسالتها لتحديد موعد وبين رفضها الصامت لهديته، فلم يعرف ما كان عليه أن يفعل، ووجد أنه من السخافة أن يذهب إلى والدها لخطبتها في الصباح، فمن الواضح أن موقفها قد تغير حيال الموضوع برمته. وبدا له أن الخيار الوحيد أن ينتظر بضعة أيام ليرى ما يحدث، وأن يذهب لإنهاء مهمته في بيرمنجهام، وعندما يعود سيرى ما يحدث وقد تعود لرشدها حينذاك.

إن هذا التصرف لا يتصرفه واحد من عشرة من الرجال، فقد يذهب البعض ليندفع ويناقش الموضوع على الملأ، طالباً توضيحات وحقائق، ولكن شخصية ستيفن لم تكن لتتصرف إلا بهذه الطريقة.

ذهب إلى بيرمنجهام في اليوم التالي، فيوم تأخير لن يشكل فرقاً، ولم يكن ليستريح إلا بعد أن ينهي العمل الذي جاء لأجله. فالعمل الجسدي يخفف القلق.

*　　*　　*

25

صديقي المحب

اعترت ستيفن في أثناء غيابه مشاعر متناقضة، فعندما تشتعل مشاعره، يحس بالأسى، وعندما يغرق في العمل فلا يعود يذكر كل ما يتعلق بألفريدا.

وعندما عاد في عطلة نهاية الأسبوع كان قد اتخذ قراراً بمقابلتها وجهاً لوجه. وقد قرر السفر بالسفينة البخارية من بريستول إلى قلعة بوتريل، توفيراً للوقت والجهد.

كانت أمسية لطيفة من أمسيات شهر حزيران (يونيو)، فعندما وضع قدمه في المدينة الصغيرة، أحس بميل إلى التسكع عند رصيف الميناء. وكان قد قرر أن يذهب إلى بيته عن طريق بيتها، ولن يتجول في الحي إلا بعد أن يرخي الليل سدوله حتى لا يراه أحد.

وانتظاراً لحلول الظلام فقد أخذ يراقب الغروب وشمس الغسق الشاحبة التي تختفي تدريجياً وتحل العتمة بعد لحظات.

ظهر نجم وتبعه آخر، ثم آخر، حتى امتلأت السماء بالنجوم. وبدت وكأنها مصابيح صغيرة رُبطت بحبل. اهتزت الصواري بفعل حركة المد، وهزت بدورها عقد الحبال على جدران الميناء.

وعندما أوشك أن يغادر رأى قارباً صغيراً يحمل شخصين، ينزلق على صفحة الماء، كان القارب أمامه، مرّ به، ولمس نهاية السلم الذي يقف عليه. كان على القارب رجل وشخص آخر، وقد عرف ستيفن ذلك من ضربات المجداف القوية والسلسة، وعندما صعد الزوجان الدرج وأصبحا في مجال الرؤية تبين لستيفن أن الشخص الآخر امرأة، وكانت ترتدي قبعة عليها زينة بيضاء اللون، والأرجح أنها كمية من الريش الأبيض وكان هذا الشيء الوحيد الذي استطاع أن يميزه من ملابسها.

انتظر ستيفن قليلاً، حتى مرّا به، وتابع طريقه وقد نسي موضوعهما، عَبَرَ الجسر باتجاه الطريق السريع، ودخل الطريق الذي يقود إلى الوادي غرب أندلستو حتى سمع صوت تكة مفتاح تسبقه بعدة ياردات، وما أن وصل البوابة وعبرها، حتى سمع تكة أخرى وبنفس الطريقة، ومن الواضح أن بعض الأشخاص يسبقونه بنفس الطريق، وقد امتصّت السجادة العشبية صوت خطاهم. تقدم ستيفن قليلاً وتمكن من تمييز شكلين، أحدهما يحمل كمية من الريش الأبيض الذي رآه على قبعة السيدة في الميناء، إنهما الشخصان اللذان رآهما في القارب في الميناء، ابتعد ستيفن قليلاً. لقد كان خلفهما طوال الطريق، ومرّا بالوادي، والممر، ومن المؤكد أن بعض الحجارة تساقطت تحت أقدامهما، ولكن ولسبب غير معروف فلم يسبقهما أو يلاحظهما. كان ذهنه مشغولاً بمن تكون هذه المرأة، هل هي زائرة، أو خادمة، أو

ألفريدا؟ هل من الممكن أن تكون المرأة ألفريدا؟ وتساءل بألم إذا ما كان هذا هو سبب عدم وفائها بوعدها.

دخلا البيت الصيفي، وتحدث أحدهما: «سيتم لومنا لأننا تأخرنا».

وميز ستيفن الصوت مع أنه أكثر عمقاً ونضجاً، وهمس «ألفريدا»، وتمسك بالنبتة ليثبت نفسه من الإثارة الناتجة عن حضورها. انخلع صدره من مكانه وتوارى من معنى ما رأى.

قالت ألفريدا: «الآن الرياح تتحرك وتحرك معها أشجار الدرداء. ألا تسمعها؟ كم الساعة الآن؟»

تخلى ستيفن عن النبتة.

- سأحضر المصباح وأخبرك، تعال إلى البيت الصيفي حيث الرياح أقل حدة.

إن إيقاع صوتها كان بالنسبة إليه كالطائر العائد إلى وطنه، كالشيء القديم الذي تم تجديده ولم يعد يتمتع بأصالة ما قبل التجديد.

دخلا المبنى؛ الطابق السفلي كان مصمماً من خشب متشابك ومفتوح من الأعلى كشباك.

أضيء المصباح وغمر نوره المبنى وأصبحت الرؤية أوضح لستيفن.

كان وجه صديقه هنري نايت الذي تربطه به أواصر تتعدى الغياب وفرق العمر والتعاطف، ثم كانت نجمته ألفريدا التي بدا

وجهها أكثر نضجاً من السابق، ولكنه جميل وغالي كما هو دائماً، شعرها كما هو مع بعض التعديل ليتناسب مع الملابس.

كان رأساهما متقاربين، وكان نايت ساعتئذ يحمل المصباح في يمينه، في حين تلتف يده اليسرى على خصر ألفريدا.

قالت ألفريدا: «إنها الساعة الثامنة والنصف».

خبا نور المصباح وغمرت العتمة المكان، شَقَتْ روح ستيفن، وانكسر قلبه، فاستدار عائداً، ثم رأى ظلاً خلف البيت الصيفي في الجهة المقابلة، وتساءل بعد أن اعتادت عيناه الظلمة: «هل هذا ظل إنسان أو عفريت».

نهض العاشقان ودخلا البيت. تحرك الشبح ومر من أمام ستيفن، كان مغطى من رأسه إلى أسفل قدميه مما يجعل من الصعب التعرف عليه وهو يتنقل بصمت.

تقدم ستيفن وهو خائف أن يصيب العاشقين أي أذى وقال: «من أنت؟».

أجاب الشبح: «لا يهم من أكون. أرجو أن تصير إلى ما أنا عليه، فأنا أعرف الكثير، لقد أخذتَ مكان شاب ما، وها هو الآن يأخذ مكانك، هل ستدعها تكسر قلبك وتأخذك إلى قبرٍ ما، كما فعلت بمن سبقك؟!».

- إنك السيدة جيثواي على ما أعتقد. ماذا تفعلين هنا؟ ولماذا تتكلمين هكذا؟

- إن قلبي قد تحطّم ولا أحد يهتم بذلك، وهي سبب ما أنا فيه من مشاكل.

«اصمتي». قال ستيفن مفضلاً ألفريدا على نفسه: «اصمتي، لا يمكنها أن تؤذي أحداً عن قصد، وكيف جئت إلى هنا؟».

- رأيت اثنين يعبران الطريق وأردت أن أعرف إذا ما كانت أحدهما، لا أستطيع أن أحبها إذا فكرت في الماضي، عندما أراها أتذكر ابني، أتمنى لها المرض كما كان ابني مريضاً.

فتحت الباب واختفت في الحقول، وقد سمع ستيفن أن السيدة جثواي أصبحت بعد وفاة ابنها امرأة مجنونة ووحيدة وتستحق الشفقة، أبعد عن رأسه ما قالته، ولكنه لم يستطع إبعاد حديثها عن خيانة ألفريدا. بالإضافة إلى المشهد الذي رآه، وأصبح حقيقة بالنسبة إليه.

ومما أضاف مزيداً إلى خصوصية تعاسته، أن غريمه هو نايت، وهو الذي كان في يوم ما مثاله الأعلى في وقت عزَّت فيه علاقة كهذه، مع التي يحبها الآن مما جعل الأسى والأسف مزدوجاً ومليئاً بالسخرية، حيث كان يصب مدحه في أذنها صباً، وهو الذي كانت تغار منه لشدة حبه وإعجابه به، وقد يكون هذا أحد الأسباب التي جعلها ترتبط به. لقد كانت تتحكم به كملكة، لقد كانت ملكته. وبمعرفته بطبيعة شخصيتها من خلال تصرفاتها وكلامها القليل، فإنّ عاطفتها مختلفة تماماً عن عاطفة نايت، حيث تنظر إلى عشاقها من برج عاجي.

إن تخلي ألفريدا المفاجئ عنه لرجل غريب، بارد المشاعر، زاد من عذابه. وقد عزا هذا إلى سببين: الأول أن الحب الجديد جعلها تنسى حبها القديم وتغدر بستيفن، الثاني أنها لا تخسر عشيقاً إلا إذا كانت متأكدة من وجود عشيق بديل. وهذا يجعل منها ممثلة ومزيفة.

إنها لم تذكر نايت في رسائلها قطّ، ذكرته في إحدى الرسائل قبل مجيئه بأسبوع ولكنها -ولغاية في نفسها يعقوب- لم تذكر وعده بالعودة مرة أخرى، ذكرته في آخر رسالة، ولكن ستيفن كان قد ترك بومباي إلى إنكلترا قبل وصول الرسالة.

نظر ستيفن إلى البيت وأحس أنه يكره المكان، وشعر بشكل غريزي، أن زواج والدها له علاقة بهذا التغير في موقف ألفريدا تجاهه. أغلق باب البوابة الحديدية بهدوء كما فتحها وانطلق إلى الحقول. ونظر بحزن والألم يعتصر قلبه إلى بيتها وإلى الكنيسة والمقبرة، وإلى كل الأماكن التي حملت ذكريات حبه لها، والمكان الذي كان يصبو إليه في غربته، وقفل عائداً إلى بيت والديه، لعله يراهما قبل أن يناما.

أقرب طريق إلى بيته كانت خلال المتنزه، ولكنه لم يسرع لأن السرعة مرتبطة بالسعادة، كان يمشي متمهلاً مضطرباً، وكثيراً ما توقف تحت إحدى الأشجار ونظر إلى الأرض مع إحساس كبير بالفراغ.

وفي أثناء وقوفه تحت إحدى الشجرات، كانت تعتمل في ذهنه الأفكار فقد كان أعمى البصيرة، حتى مزق الصمتَ صوت قرع جرس برج كنيسة أندلستو، التي تبعد ما يقارب الأربعين ياردة عن مزرعة لورد لوكسليان.

وتم قرع الجرس مرة أخرى.

لا بد أن أحد ما قد مات.

إن إعلان الوفاة، في الجزء الشرقي يتم عن طريق قرع الأجراس. ولكن صوت الأجراس هذه المرة كان مختلفاً عمّ اعتادوا عليه في المنطقة، فكل حالة وكل عمر له دقة مختلفة عن الأخرى.

فثلاث دقات وثلاث ضربات تعلن أن الميت رجل. المرأة ثلاث دقات وضربتان، الولد له دقتان وثلاث ضربات، أما البنت فلها اثنتان في اثنتين.

لم يميز ستيفن عدد الضربات، لأنه كان بعيداً، ومر بخاطره أن يكون هذا إنذاراً برحيل أحد والديه، ولكنه تركهما بصحة جيدة، وبما أن طريقه يمر خلال الكنيسة ففكر في التحدث مع مارتن كانيستر الذي سيكون هناك بالتأكيد ويعرف منه الأخبار.

شاهد أضواء الكنيسة من بعيد، وتوقع أنها قادمة من أحد المدافن الداخلية، والذي كانت تحت الممشى قريباً من فتحة القوس، لم يسمع صوت أحد فتوجه إلى المدفن ووجد درجاً حجرياً يمتد إلى الأسفل، فنزل الدرج ووجد ردهة كبيرة ممتدة تحت الممشى.

لم ير ستيفن هذا المكان من قبل، كان المدفن مليئاً بالأكفان، ما عدا منطقة بالوسط.

كان المكان مُضاءً بشموع مثبتة بحوامل خشبية على الجدران، وبنزوله درجة أخرى وجد سكان المنطقة والجيران، وكان هناك أبوه، ومارتن كانيستر وثلاثة من العُمّال الشباب أو أربعة. كانت أدوات البناء والمطارق ملقاة على الأرض لأغراض التوسعة للمدفن.

كانوا يأكلون الجُبْن ويشربون النبيذ من كوب كبير له يدان يتناوبون عليه.

قال ستيفن وهو يخطو نحوهم: «من مات؟».

26

إلى اللاشي الأخير تحت الأرض

اتجهت العيون إلى ستيفن لحظة دخوله. قال والده: «إنه ستيفن» ونهض عن مقعده وهو يسلم الكوب بيده اليسرى للتالي «إن أمك تنتظرك، لقد اعتقدت أنك ستصل قبل الظلام، ولكن يبدو أنها كانت مخطئة، ستنتظر هنا معي وسنذهب إلى البيت معاً. لقد أنهيت عملي تقريباً هنا، وسنذهب إلى البيت بعد قليل».

قال مارتن كانيستر في صوت حاول فيه إخفاء فرحه لرؤية ستيفن احتراماً للوضع العام: «نعم إنه السيد ستيفن بكل تأكيد، أنا مسرور برؤيتك مرة أخرى بهذه السرعة».

- وأنا كذلك، يا وليام.

وحيّا ستيفن جميع مَن كان من الحاضرين، وردوا تحيته بعيونهم وحواجبهم، حيث كانت أفواههم مليئة بالجبن والخبز.

وأعاد ستيفن: «ومَن مات؟».

قال راعي الأبرشية: «السيدة لوكسليان المسكينة، كما سنموت جميعاً، وسنقوم بتوسعة المدفن لنفسح لها مجالاً».

- متى ماتت؟

أجاب والده وهو يفكر في كلام راعي الأبرشية: «هذا الصباح. ومارتن قَرَعَ الأجراس من وقتها. ولكن هذا كان متوقعاً فهي مريضة منذ مدة».

قال راعي الأبرشية، وقد كان رجلاً كبيراً وقد بدا جلده أكبر من جسده حيث لا يبقى ساعة في مكان واحد: «نعم، هذا الصباح، ربنا يرحم روحها المسكينة، لا بد أنها عرفت الآن مكانها أفي السماء أم في جهنم، ليرحم الله روحها».

- كم عمرها؟

- ما بين السابعة والعشرون أو الثامنة والعشرين تحت ضوء الشموع، ولكن بضوء النهار فهي في حدود الأربعين.

قال مارتن: «يختلف عمر المرأة الثرية حوالي عشرين عاماً، إذا كان بضوء الشموع أو ضوء النهار».

قال سميث: «إنها في الواحدة والثلاثين حسب ما أخبرني أصحاب المعرفة».

- فقط! أليست أكثر من هذا؟

- إنها تبدو في غاية السوء يا للمرأة المسكينة، تبدو كأنها ميتة منذ سنوات.

كما كان يقول والدي: «الموت أفضل للشخص من أن يشيخ ويموت عاجزاً».

قال أحد العُمّال من خلف التوابيت: «لقد رأيتها، رحم الله روحها، آخر مرة في يوم الفالنتاين الماضي. كانت يداها كالعصي، وقلت في نفسي: يبدو أن تذكرتك إلى القبر جاهزة يا سيدتي».

- أعتقد أن سيدي سيكتب إلى باقي الأعيان (اللوردات) يعلمهم بالأمر؟

- لقد تمَّ ذلك، لقد رأيت مجموعات من الرسائل تُرسَل بعد ساعة من الوفاة. كانت رسائل جميلة ذات حواشي سوداء عرضها ربع إنش.

- إن هذا خارج عن المنطق أن يكون الحداد ربع إنش من السواد، أعتقد أن خيطاً رفيعاً أسودَ يكفي.

سأل سميث: «إن هناك فتاتين صغيرتين، أليس كذلك؟».

- فتاتان جميلتان ذواتا وجهين نظيفين أصبحتا دون أم.

قال وارم: «لقد كانتا تأتيان إلى أبرشية سوانكورت لتلعبا مع الآنسة سوانكورت عندما كنت هناك. كانتا تصعدان الدرج، ثم تعاودان نزوله ويركضوا في الطابق السفلي يتابعانها في كل مكان، كانتا مغرمتين بها جداً».

قال أحد العُمّال: «حسب ما سمعت فإنهما كانتا مغرمتان بها أكثر من أمهما». ثم أردف قائلاً:

- إن هذا طبيعي، فأمهما لم تكن قريبة منهما، وكانت دائماً ما تشعر بالنعاس، ولم تحبّاها بنفس الطريقة التي أحبّتا بها أصدقاءها، أذكر في الشتاء الماضي، كانت الآنسة ألفريدا تتحدث مع الفتاتين

وأمهما، وقامت ألفريدا بتنظيف أنفي الفتاتين، وهذا ما لم تكن أمهما لتقوم به، وتتعامل الفتاتين مع الناس على أنهم أصدقاؤهما.

قال سميث: «إن المرأة في رحمة الله، ويجب أن نجد لها مكاناً، هيا يا فتى اشرب نبيذك ولنفحص هذه الزاوية حتى نزيح هذا الحائط حالما يبزغ الضوء غداً».

سأل ستيفن: «أين ستوضع الليدي لوكسليان؟».

قال سميث: «هنا ، سنزيح الحائط، ونصنع فجوة، يجب أن ننجز هذا قبل الجنازة، عندما ماتت أم اللورد لوكسليان قالت: يجب أن يتم توسيع المكان قبل موت أحد آخر، ولكن لم نتوقع أن يتم الأمر الجديد سريعاً. من الأفضل أن نحرك اللورد جورج أولاً يا سيمون؟»

وأشار بقدمه إلى كفن ثقيل، مغطى بما كان سابقاً مخملاً أحمر، وبصعوبة يمكن تمييزه الآن.

قال البنّاء: «الذي تراه مناسباً يا سيد جون»، ونظر إلى التابوت بتأمل: «لقد كنت أنا وهو ألد الأعداء، كأي شخصين أحدهما لورد والآخر إنسان عادي، يا للمسكين، لقد ضرب كتفي مرة بطريقة محبَّبة»، ثم قال: «لقد جعلني أصعد التل مرة، وأعاود النزول مرة أخرى، وأخرج، مرة ثانية، وكانت أسنانه تلمع بالشمس كأنها نحاس، وكنت حينذاك صغيراً ومسكيناً، وكان هو مسروراً، لقد كان رجلاً عنيداً، لقد أحببته في بعض الأحيان، عندما كنت أنظر إلى طوله، أقول في نفسي كم سيصل طولك يا سيدي، سيأتي يوم تنحني فيه تحت ممشى كنيسة أندلستو»

تساءل أحد العُمّال: «وهل انحنى؟».

«نعم، فقد كان وزنه خمسمائة باوند، مع هذا الرصاص، وخشب البلوط، وهذه المقابض، وأشياء أخرى». وضرب التابوت بيده حتى سمع صوت اهتزاز العظام في الداخل. «لقد كاد أن يكسر ظهري عندما أنزلته تلك الدرجات، وقلت وقتذاك لجون، إن مجد الرجال يقوم على ظهور رجال آخرين. ومع هذا فقد أحببته أحياناً».

قال: «ألا ترون إنها فكرة غريبة، بما أنهم جميعاً هنا، وتحت سقف واحد فكأنهم عائلة متحدة محبة».

- نعم إنها فكرة جديرة بالملاحظة.

- وإذا صعد أحدهم إلى الأعلى، فلن يعرف لا هو ولا حتى الرجل الذي يعيش على القمر إذا ما نزل إلى الأسفل. وإذا كان أحد تعساء الحظ في المكان الحار فهو لا يصرخ لصاحب الحظ الأفضل الذي في الغيوم. وإنهم لا يدركون أنّ أجسادهم محشورة في صناديق متلاصقة طوال الوقت.

- إنها فكرة جيدة، أن أصرخ في أذن اللورد جورج وأقول له مرحباً، ولا يستطيع سماعي.

- وأن آكل البصل تحت أنف الليدي جين ولا تستطيع أن تشمني.

تساءل أحد الشباب: «لماذا يضعون رؤوسهم بهذه الطريقة؟»

- لأنها قوانين مقبرة الكنيسة أيها الغبي، إن قانون الأحياء أن يكونوا إلى الأعلى وإلى الأسفل، وقانون الأموات أن يكونوا شرقاً وغرباً. كل دولة مجتمع لها قوانينها.

قال رئيس البناؤون: «ونحن علينا أن نخرق القوانين، ليرحم الله أرواحنا».

وبدؤوا بالعمل، كان يمكن معرفة الترتيب الزمني للدفن من حالة التوابيت التي تراكمت التوابيت التي كانت هنا لجيلين ما زالت محتفظة بزخارفها، أما التي تسبقها بفترة زمنية أبعد قليلاً فقد كان الخشب عارياً من النقوش، ويتدلى منه قماش ممزق. أما الأكثر قدماً فالخشب كان عبارة عن قطع في أرض المحراب، وكان التابوت من رصاص فقط، وحتى الرصاص فكان يتفتَّت وكان بالإمكان رؤية الغبار في الداخل، أمّا الدروع فكانت مرتخية وكان من الممكن إزالتها باليد، وعلى أسطحها كنت ترى اسم المتوفى ولقبه.

كان القبر في الحائط وبصعوبة يتسع لارتفاع رجل واقف على قدميه.

تابوت البارون جورج الرابع عشر ومعه توابيت أخرى من الفترة الحديثة قد تم وضع بعضها فوق بعض لعمل توسعة، حيث سيتم وضعها في المنطقة الخلفية وليس في المحراب كتوابيت الآخرين، وذلك لعمل غرفة لها لاحقاً. انتظر ستيفن هناك قليلاً.

قال جون سميث: «أظنك ما زلت تذكر الليدي ألفريدا وكيف هربت مع الممثل؟ لقد كان أبي يعمل حفاراً للقبور هنا على ما أعتقد. لننظر أين هي يا ترى؟»

قال سايمون، وهو يبحث حوله: «إنها هنا في مكان ما».

وضع يديه حول التابوت وقال: «انظروا إنني أضم «ليدي» بين ذراعيّ»، خفض طرف التابوت الذي كان يحمله ومسح وجهه

ورمى قطعة من خشب التابوت المتعفن، وأضاف: «ها هو زوجها هناك، لقد كانا زوجين رائعين، وطيبي القلب أيضاً، كنت صبياً في ذلك الوقت، لقد وقعت في حب هذا الشاب، وتبادلا النذور في إحدى كنائس لندن، سمعهما والدها اللورد ولم يتمكن من تمييز الاسم لأنه كان يتبادل الحديث مع أحد الضيوف، أخبرت والدها بعدما تزوجت، فثار من الغضب، وقال إنه سيحرمها من الميراث، فأخبرته أنها لا تريد شيئاً سوى أن يسامحها ويغفر لها فعلتها، واشتغلت بتمثيل المسرحيات مع زوجها من أجل لقمة العيش. هذا الشيء أخاف اللورد العجوز، فأعطاهما بيتاً، وحديقة كبيرة، وحقلاً أو حقلين، وعربة، ومقداراً جيداً من الجنيهات، ولكن المسكينة ماتت عند أول ولادة لها، أما زوجها صاحب القلب الرقيق، والذي من رقة قلبه لا يأكل اللحم فقد اختل عقله، وانكسر قلبه ومات، ودُفِنا في نفس اليوم، وفي نفس المكان، لكن الطفلة عاشت، قدَّر اللوردُ زوجَها ودفنه هنا في مدافنهم مع زوجته. إنه هناك في الزاوية، كانت لهما جنازة مهيبة يوم أحدٍ حينذاك حيث فكت الحبال الفضية، وكسرت القدور الذهبية، وفي أثناء حديث الواعظ رفع الرجال أيديهم لمسح عيونهم ولم تتوقف النساء عن البكاء».

سأل ستيفن، الذي كان قد سمع أجزاء من القصة: «وماذا حدث للطفلة؟».

- ربَّتها جدتها وقد كانت فتاة جميلة، وقد هربت مع القسيس «بارسون سوانكورت» ثم ماتت جدتها وذهب اللقب وكل شيء إلى فرع آخر من العائلة وأضاع السيد سوانكورت معظم ميراث

زوجته، وتركت له الآنسة ألفريدا. يبدو أن عملية الهرب متوارثة عند نساء هذه العائلة، ويبدو أن المرأتين متشابهتان.

- أي امرأتين؟

- الليدي ألفريدا والآنسة ألفريدا سوانكورت، لهما نفس العيون والشعر، ولكن والدة الآنسة ألفريدا أكثر سمرة.

قال وليام وارم: «إن الحياة صراع غريب، فإذا كان لقب لورد للنساء وليس للرجال فإن الآنسة ألفريدا ستكون لورد لوكسليان، أعني ليدي لوكسليان، ولكن حسب الدم فهي ليست من عائلة لوكسليان».

قال سيمون: «لقد كنت أفرح عندما أجد الآنسة ألفريدا تحتضن الآنسات الصغيرات وتحبّهن وتحبّانها، ولكن يبدو أن هذا حنين شخصي للأيام الماضية وشكل العائلة القديم».

قال السيد سميث بنَفَس مدير العُمّال: «بعد أن ننقل هذه الجثامين سنعود إلى البيت، سنترك جميع الأشياء هنا الليلة ولا أظن أن أحد هؤلاء المساكين سيلمس شيئاً».

وهكذا انتهت أمسية العمل، وأغلقوا الباب الحديدي، ووضعوا القفل وحبسوا أولئك الذين لن تساورهم أحلام الهرب أبداً.

* * *

27

كيف يمكن أن أحبيك

مكتبة
t.me/soramnqraa

غالباً ما يذبل الحب بفعل الزمن، ولكنه يذبل بشكل أكبر على الأغلب بفعل الإزاحة. إن نجاح موضوع الإزاحة عند ألفريدا يعود إلى سبب قوي، وهو أن الحبيب الجديد كان أكثر رجولة من الأول، فمن نايت كانت تتلقى التعليمات والزجر اللاذع، في حين أن موافقة ستيفن لها في كل الأمور كانت هزيلة ومائعة. أما من ناحية الحب، فإن أداء ستيفن كان واهناً. كانت ترنو إلى رجل حقيقي وستيفن بصعوبة كان رجلاً.

وقد يكون بفعل طبيعتها المتقلبة، إنها طبيعية عند النظر إليها من زاوية أخرى بعيداً عن التقلب؛ فستجدها رائعة في ليونتها، وتعاطفها. وأخطأ ستيفن أيضاً في عدم احتلال قلبها بالكامل حين كان يقلل من قيمة نفسه أمامها، مما قادها في النهاية إلى عدم تقديرها له.

ومن المؤسف أن الجنس اللطيف، نادراً ما يملك القدرة على تقدير اللطافة من شريكه. ومن المؤكد أن وعيها اللاحق لوضع والدي ستيفن كان له علاقة بهذا الهجران. إن الفقر بحد ذاته لا يُعَدُّ خطيئة

عند الفتيات كما في العالم أجمع، ولكنه خطيئة، لأن الأخلاق العالية والقيم نادراً ما نجدها في مناخات كهذه، لذا فيجري تعليم بعض نساء العائلات العريقة أن الروح الجميلة قد ترتدي الأثواب والفساتين، ولكن الرجل العادي لو ارتدى هذه الملابس فهو ليس إلا دودة في نظرهن.

إن لخشونة يدي والد ستيفن وخشونة ملابسه، ولهجة والدته، وضيق حال عائلته، إن لكل هذا التأثير السلبي في ألفريدا.

لمّا عاد نايت من مغامرة شاطئ البحر لم يكن يشعر أنه بخير ودخل ليستريح. وكذلك فعلت الفتاة الشابة التي ساعدته، ولكنها خرجت بعد الخامسة مرتدية ملابسها بطريقة صحيحة، وكانت تتجول في البيت بطريقة متوترة، ولم يكن توترها بسبب نجاتهما من الموت الذي رفرف كعصفور فوق رؤوسهما، أو من العاصفة التي مزقت الشجر وأحنت القصب، وإنقاذها لنايت، لقد فارقتها كل الأفكار المتعلقة بالحادث. إن العهد المشؤوم كان يسيطر على عقلها ويعود إليها كالشبح مرات ومرات. إن ضآلة ستيفن أمام نايت، كانت تزداد في نظرها، والآن فهي فهمت معنى نصيحة والدها لها بأن تتخلى عنه، لقد كانت تتحرك بفعل المشاعر الجياشة والعواطف المشتعلة في تلك الفترة وكم هو صعب أن يكتشف العقل أن الأمنيات العزيزة والآمال الكبيرة قد خبت بفعل الزمن ولم تعد تحمل نفس التأجج العاطفي السابق.

حانت ساعة الموعد وحملت معها أزماتها وانهياراتها.

«ليسامحني الله وليغفر لي، لا أستطيع مقابلة ستيفن، إني أحبه قليلاً، ولكني أحب نايت أكثر بكثير».

يجب أن تنقذ نفسها من رجل غير مناسب لها على الرغم من العهود التي قطعتها، عليها أن تطيع والدها وأن تتخلى عن ستيفن، وهذا القرار سبب لها تأنيب ضمير وأزمة صدق.

لم تشهد الأيام التالية عهوداً واضحة من قِبَل نايت، مجرد نزهات كتلك التي شاهدها ستيفن في البيت الصيفي، ولكنه كان يتودد إليها بشكل غير مباشر تودداً لن يلاحظه أي شخص سواها، وكاد الزمن يكون لطيفاً معها لو صرفت عنها هموم الشعور بالذنب وبدأت تعيش اللحظة مع نايت. إن عدم تصريحه بالحب لم يكن عائقاً بالنسبة إليها فقد كانت تشعر أنه يحبها، وقد فضلت هذا الحب غير المصرح به على ذاك الحب المصرح به.

إنّ أكثر ما كان يخيفها هو حدوث لقاء مفاجئ بين نايت وستيفن.

كانت ألفريدا على دراية تامة أن نايت على الرغم من علاقته بستيفن إلا أنه لا يملك أدنى فكرة عن أي عهود بينها وبين ستيفن.

وعلى الرغم من طبيعة ألفريدا غير الكتومة، إلّا أنها استطاعت إخفاء أي علاقة أو معرفة تربطها بستيفن، ولم تأتِ على ذكره ألبتة لا من قريب ولا من بعيد. يا للنساء ومكرهن إذا أردن أن يحفظن سراً فهن يحفظنه جيداً، خاصة إذا ما كان يتعلق بحبيب سابق.

وسكنها هاجس آخر، وهو قضية هروبها مع ستيفن، وبسبب صراحتها المفرطة أيضاً، فقد كانت تريد إخبار نايت بالحقيقة طمعاً بعفوه، فقد ارتأت أن من الأفضل أن تخبره بنفسها، على أن يعرف من أحد آخر مما يزيد من تعقيد الأمور، ولكنها عادت وتراجعت، خوفاً من خسارته.

حينما يكون الحب عظيماً، فإن القليل من الشكوك تكون مخيفة، وحين تنمو المخاوف أكثر وأكثر ينمو معها الحب العظيم.

تذكر والدُها القسيس وعدها بشأن موضوع البرقية التي تلقتها سابقاً، وقد طالبها بالإيضاح بعد يومين من لقائها نايت في البيت الصيفي، وقد كانت صادقة معه.

قالت بهدوء: «كنت أراسل ستيفن سميث منذ لحظة مغادرته إنكلترا، إلى الآن».

- ماذا؟؟ تحت مرأى السيد نايت؟

- لا، ولّما أحسست أن اهتمامي بالسيد نايت يفوق اهتمامي بستيفن توقفت، وأطعتك.

- إنك فتاة جيدة، أنا متأكد من ذلك، ومتى بدأت تحبين السيد نايت؟

- لا أعتقد أن هذا سؤال لائق يا أبي، كانت البرقية من وكالة شحن، ولم تُرسَل بناءً على طلبي، وأعلنت عن موعد وصول السفينة التي يركبها.

- وصولها! إلى أين؟ هل هو هنا؟

- نعم، إنه في القرية على ما أعتقد.

- هل حاول مقابلتك؟

- فقط بالطرق العادية، وأرجوك ألّا تستجوبني بهذه الطريقة فأنت تعذبني.

- سأسأل سؤالاً واحداً فقط، هل قابلته؟

- لا لم أقابله، وإني أؤكد لك أن ما بيني وبينه هو نفس سوء التفاهم الذي بينك وبينه، وأنت طلبت مني أن أنساه، وقد نسيته.

- على الرغم من أنك لم تطيعيني في البداية، إلا أنك فتاة جيدة لأنك أطعتني أخيراً.

قالت بمرارة: «لا تقل فيَّ فتاة جيدة، فأنت لا تعرف، فكلما قلَّت المعرفة كان أفضل، وتذكر أن نايت لا يعلم شيئاً من موضوع ستيفن، إنني أعرف أن هذا خطأ، ولكنني لا أعرف ماذا سيحصل فيما بعد».

- من حيث أرى الأمور فأجد نفسي ميالاً إلى إخباره، لقد اكتشف منذ أيام أن هذه الأبرشية يعيش فيها جون سميث والد ستيفن، فما الذي أوقعك بهذه الورطة؟

- لا أستطيع القول، ولكن ادعُ لي ألّا يعرف لأن في هذا دماري.

- لماذا يا ابنتي، إن نايت رجل جيد وذكي ولكني لا أعتبره فرصة عظيمة لك. إن أشكاله من المثقفين والمفكرين ليسوا أزواجاً مناسبين. لو تنتظرين قليلاً فستجدين رجلاً أكثر ثراءً منه لتتزوجيه. ولكن تذكري في حال ارتبطت بنايت فلن أمانع أبداً. وستكون تشارلوت مسرورة.

- إن من دواعي سروري أن يسبب حبي له فرحاً لعائلتي، ولكني لست فتاة جيدة، إنني بعيدة كل البعد عن أن أكون جيدة.

- لا أحد منا جيد يا ابنتي، ولكنْ للفتيات حق مشروع في تغيير رأيهن، وهذا تجدينه واضحاً في الشعر منذ العصور القديمة. يقول كتاليوس... يا لذاكرتي، على أي حال القصيدة تقول: إن كلمات المرأة لحبيبها هي نص يُكتَب على الماء والرياح. فلا تقلقي حيال هذا الموضوع يا عزيزتي.

- أوه إنك لا تعلم يا أبي مدى قلقي.

كانا يقفان في الحديقة عندما جاء نايت يمشي متأرجحاً، فأحست بخفة في قلبها، وهي أحست بالراحة بعد مصارحتها والدها، فمسؤولية أعمالها انتقلت من كتفيها لتحط على كتفي والدها على الرغم من بعض الظلال التي ما زالت تحوم حولها.

كانت تقول في نفسها: «لو عرف إلى أي مدى وصلت علاقتي مع ستيفن، وتعامل بنفس الطريقة، ساعتئذ فستكون فرحتي عظيمة؟»

خرج العاشقان في المساء في نزهة على ظهر الخيل ساعة أو ساعتين مع رغبتهما في ألّا يراهما أحد، وجدا أن من الضروري أن يمرّا بالقرب من كنيسة أندلستو الشرقية حيث كانت جنازة الليدي لوكسليان في اليوم السابق.

- انظري ما زالت المقبرة مفتوحة.

- نعم إنها كذلك.

- مَن ذاك الرجل بالقرب منها؟ أعتقد أنه البنّاء؟

- أيمكن أن يكون جون سميث، والد ستيفن؟

قالت بخوف: «أعتقد أنه هو».

- هل من الممكن ذلك؟ سأستفسر منه عن ستيفن فهو تحت وصايتي. وحسب وصف والدك فإن المقبرة رائعة التصميم؛ لنذهب الآن.

- هل تعتقد أن علينا ذلك؟ قد لا يكون اللورد لوكسليان هناك.

- من غير المحتمل إطلاقاً.

أذعنت ألفريدا أخيراً بعد أن تملّكها الخوف، ولكن عندما تذكرت شخصية جون سميث فقد أحست بشيء من الراحة، فهو رجل متواضع، وسيعاملها بنفس الطريقة التي كان يعاملها بها قبل قصة الحب بينها وبين ستيفن، فأمسكت بذراع نايت بعد أن نزلت عن الحصان وتجولت بين القبور.

رفع سميث قبعته احتراماً لها كالعادة.

قال نايت: «أعتقد أنك السيد سميث والد صديقي ستيفن؟».

- نعم يا سيدي إنني هو.

- كيف حال ابنك الآن؟ لم أسمع منه إلا مرة واحدة بعد سفره إلى الهند. أتوقع أنك سمعته يذكرني أحياناً، أنا السيد نايت، لقد تعارفنا قبل بضع سنوات في إكسونبري.

- آه، نعم يا سيدي لقد عرفتك، إن ستيفن بخير، في الحقيقة إنه هنا الآن في إنكلترا وبالتحديد هناك في المقبرة يعاين بعض التوابيت.

اندهش نايت وقال: «إن هذا شيء استثنائي، هل يعلم أنني هنا في الأبرشية؟».

قال سميث وهو يحس بحرج من الاستجواب، ويشعر بأن هناك شيئاً لم يكن يدركه: «لا أعلم حقيقة ذلك يا سيدي».

- هل تعتقد أنه نوع من التطفل إذا دخلنا إلى المقبرة؟

- ليحفظك الله يا سيدي إن عدداً كبيراً من الناس دخلوا إلى هناك، وقد تركت مفتوحة لهذا الغرض.

- سننزل إلى الأسفل يا ألفريدا؟

قالت برجاء: «ولكنني أخشى من الهواء الفاسد».

قال جون سميث: «لا تخشي شيئاً يا سيدتي، فقد بيّضنا الجدران والقناطر مرتين، يوم فتحناها ويوم الدفن كما نفعل دائماً، واليوم الهواء جيد في الداخل».

قال نايت: «أعتقد أن عليك أن تأتي معي، بما أنك تنحدرين من نفس العائلة».

- لا أحب أن أكون حيث يكون الموت حاضراً. سأبقى مع الخيل خوفاً من أن تهرب.

- إن هذا هراء، لم أكن أعرف أن أعصابك ضعيفة إلى درجة أن تخافي من بعض بقايا الأموات، على كل حال فبإمكانك البقاء هنا إذا كنت خائفة إلى هذا الحد».

أمسكت بذراعه بيأس وتمنت أن يأتي الخلاص بسرعة من الله، فبعد عشر دقائق من المؤكد أن ينضم ستيفن إلى صديقه ويوصله إلى حيث تقف الخيل.

كان المدفن مضاء بشمعتين مما زاد من كآبة المكان، وبعد أن اعتادت عيونهما على الظلمة فقد تمكن نايت من رؤية شاب يكتب في دفتر ملاحظات.

قال نايت كلمة واحدة: «ستيفن».

لم يتعرف ستيفن على نايت بالسرعة التي تعرف فيها نايت عليه، ولكنه استطاع أن يميز شكل امرأة خلفه. تقدم ستيفن نحوه مصافحاً، بدون أن ينبس ببنت شفة.

قال نايت دون أن يشير إلى وجود ألفريدا: «لماذا لم تكتب لي يا فتاي؟».

بالنسبة إلى نايت فما زال ستيفن هو الفتى الذي يرعاه، ولهذا فمن السخف أن يقدم له ألفريدا.

قال ستيفن: «لماذا لم تكتب أنت؟»

- لماذا لم أفعل؟ لماذا لم نفعل؟ إن هذا السؤال هو الذي لا نستطيع إجابته دون أن نحس بالتقصير. على كل حال، أنا لم أنسك يا ستيفن سميث، وها نحن نلتقي، وعلينا أن نلتقي مرّة ثانية لنتحدث حديثاً مطولاً، يجب أن أعرف ماذا كنت تفعل، أعرف أنك تطورت وازدهرت، وعليك أن تعلمني الطريقة.

كانت ألفريدا في الخلف، وقد فهم ستيفن من لمحةٍ، أنها لم تأتِ على ذكره لصديقه البتة، وإنّ أسلوبه بتجنب المصائب جعله

شخصاً محترماً، وقرر أن عليه مواجهة الموقف بكل هدوء وعقلانية، وأن يبتعد عن ترويع مشاعر ألفريدا أو نايت؛ فما زال حسه بالتبعية لنايت ماثلاً وحبه لألفريدا عزيزاً.

وقد لاحظ أن تصرفاتها انعكاس لتصرفاته، بمعنى أنه إذا تعامل معها كغريبة فستتعامل معه كغريب، وقد خدمته الظروف هنا، وقرر أن يحاول اختصار اللقاء مع ستيفن إلى أقصى حد ممكن.

– للأسف، إن وقتي ضيق حيث لا يسمح لي بهذا الشرف، سأغادر غداً مساءً إلى الهند، وحتى ذلك الوقت فليس لديّ دقيقة فراغ واحدة.

شعر نايت بالخيبة لهذا الجواب، إنّ كلامه عن ضيق الوقت صحيح، ولكن طريقته كانت أبعد ما تكون عن الحقيقة. كان ليكون شاكراً أن يتحدث مع نايت كما الأيام السابقة، إلا أنه اعتبر أن هجران حبيبته له من أجل نايت خسارة مميتة، فهو بهذا مضطر إلى التخلي عن صديقه بشكل متعمد.

قال نايت بلهجة مختلفة: «إني آسف لسماع ذلك، ولكن من غير ريب فإذا كان لك ارتباطات سابقة مهمة، فعليك ألّا تهملها. وإذا كان هذا لقاءنا الأول والأخير، فإنني أتمنى لك من كل قلبي كل الخير والنجاح».

كان لوقع كلمات نايت في قلب ستيفن الأثر الأكبر، ولم تستطع أي الكلمات وصف حقيقة مشاعره.

فقال وهو ينظر إلى المدفن: «يا له من مكان غريب نلتقي فيه». وعمّ الصمت بعد ذلك. أصبحت التوابيت أكثر وضوحاً.

وكانت ألوان الجدران والأقواس التي تم دهنها حديثاً تضفي جواً من الراحة.

إن هذا كان مشهداً سيتذكرونه جميعاً يوماً ما. كان نايت بوجهه الجامد يقف بين رفيقيه متقدماً عنهما قليلاً: ألفريدا عن يمينه في الخلف قرب المدفن، ترتجف وهي مكانها وتنظر إلى الخلف بحثاً عن طريق للهروب، وكان ستيفن عن يساره تتصارع داخله مشاعر مختلفة من الخيبة والأسى والنكران والخيانة والقهر والظلم في عالم بلا ثوابت.

كانت السماء الزرقاء في الخارج هي النقطة الثابتة الوحيدة.

قال ستيفن: «لقد جئتُ إلى هنا عدة مرات منذ الافتتاح، فكما تعرف فإن أبي مرتبط بالعمل هنا».

قال نايت وهو ينظر إلى دفتر الملاحظات وقلم الرصاص بيد ستيفن: «وماذا تفعل؟».

- لقد كنت أرسم اسكتشات لبعض التفاصيل في الكنيسة، وأكتب بعض الأسماء، قبل أن أغادر إنكلترا. إنني أحب أن أحتفظ باسكتشات للأماكن التي يلفت انتباهي فيها حرفيتها المعمارية.

أشار نايت إلى أحد الأكفان الجديدة: «لا بد أن هذه هي السيدة لوكسليان. ومَن هذان الاثنان المتلاصقان؟».

أجاب ستيفن وقد اهتز صوته قليلاً: «إن هذه الليدي ألفريدا كنجزمور، لوكسليان من ناحية المولد. وهذا آرثر زوجها. وحسب ما سمعت من أبي، فقد هربا معاً وتزوجا على الرغم من معارضة والدها».

قال نايت موجِّهاً الحديث إلى ألفريدا: «أعتقد أنك من هنا أخذت اسمك يا آنسة سوانكورت، لقد أخبرتني ذات مرة أنك كنت من قبل ثلاثة أجيال أو أربعة فرعاً من عائلة لوكسليان».

قالت وقد بللت شفتيها بلسانها: «إنها جدتي»، ثم حاولت إخفاء وجهها عن الاثنين، وثبتت عينيها على السماء في الخارج، وكان خلاصها مرتبطاً بالخروج. كانت يدها اليسرى متعلقة بخفة بذراع نايت، ومسحوبة إلى الخلف قليلاً مع إحساس بالعار من التعلق به أمام حبيبها القديم.

فكرت ألفريدا: «هل من الممكن، أن ينسى المرء الإساءة ويسامح ويغفر؟».

لم يأخذ الحديث مجرى قوياً، بل كان جملاً وملاحظات غير مترابطة.

قال نايت متأملاً: «ما أكثر ما قيل في الموت خلال العصور. وكيف ننظر نحن إليه أمام أولئك الذين يستلقون هنا». وأضاف: «لنتركهم، إن مناسبات كهذه، تجعلنا نخرج من أنفسنا، ومن الإطار الواهن الذي نعيش فيه، وأن نتوسع بشكل كبير حيث ندرك أن حقيقتنا الجسدية الضعيفة لا تحمل أي تناغم أو انسجام. ننظر إلى الماضي وضعفه والدقائق التي انبثقت منها هذه المتع المتنامية، ونتساءل أمن المعقول أن هذا الكمّ قد انبثق من أشياء صغيرة جداً؟ وهل عليَّ أن أعود إلى التجول في هذه الخلايا الجسدية مرة أخرى. حيث التفكير في القضايا العالمية مصدر عذاب؟ ألسنا كذلك؟».

قالت ألفريدا وستيفن: «نعم».

وأضاف نايت: «وقد يمتلك الإنسان الإحساس بالخطأ أيضاً، وهذا شعور يجب أن يُثمَّن. إن هذه الأفكار تُضعف الأمنيات والخطط المتعلقة بالمستقبل. على كل حال فلنضبط أنفسنا على موجة أكثر بهجة، وهناك الكثير الذي ما زال علينا عمله».

لم يكن نايت، في أثناء تأملاته وتوجيهاته للشابين، مدركاً حجمَ الخداع وكمية المشاعر التي جمعت بين الشابين فيما مضى؛ لم يشعر أي منهما أنه يستحق ثقة معلمه نايت. إن ثراء نايت المعرفي، وأفكاره النيرة ونزاهته، هو ما كان يفتقده الشابّان.

من الصعب وضع قواعد ثابتة تناسب الجميع.

إن ألفريدا بوصفها فتاة وعلى الرغم من عدم نضجها، إلا أنها تملك سحر النساء في الحب، ومن الصعب أن تنصاع أو تخضع لأي قواعد، من أي شخص، خصوصاً شخصاً ذا معايير أخلاقية عالية كنايت. وإذا اعتبرنا الصدق والنزاهة فضيلة فإنها لا تمتلك أيّاً منهما، وهذا مناقض تماماً لنايت ولأفكاره وشخصيته.

أما ستيفن فقد كان يتعامل بمكر، بغض النظر عن النتائج الجيدة لهذه الإستراتيجية في حال نجاحها، ومع يقينه الثابت بسوء نتائجها في حال فشلها.

لو اجتمع نايت مع ستيفن في ظروف أخرى غير هذه لما أشار إلى ألفريدا أبداً، ولكن الظروف الراهنة حتمت عليه ذلك.

فقال: «إن هذه السيدة يا ستيفن، هي الآنسة سوانكورت، وإنني أقيم حالياً في منزل والدها»، وتقدم خطوتين باتجاه ستيفن

قائلاً بصوت منخفض: «وأريد أن أخبرك أمراً آخر فنحن مخطوبين وسنتزوج». تمكنت ألفريدا من سماع ما قال، فحبست أنفاسها وتسارعت دقات قلبها وشحب لونها، خوفاً من ردة فعل ستيفن.

همس ستيفن: «إنني أهنئك وأبارك لك»، ورفع صوته قائلاً: «إنني أعرف الآنسة سوانكورت معرفة قليلة، فأبي، كما تعلم، من أبناء رعية السيد سوانكورت».

- لقد اعتقدت أنك لم تكن تعيش في المنطقة في الفترة التي جاؤوا فيها إليها؟

- فعلاً فأنا لم أكن أعيش في هذه المنطقة منذ ذلك الحين.

قالت ألفريدا: «لقد رأيت السيد ستيفن».

قال نايت: «في هذا الحالة وبما أنكما متعارفان، فيبدو أنني أنا الغريب بينكما، ولم يكن هناك داع إلى تعريف بعضكم إلى بعض». ثم خاطب ستيفن قائلاً: «ستيفن إنك ما زلت تبدو صبياً حتى الآن».

اجترع ستيفن مرارة الموقف وقال بأسى: «كان عليك أن تقول إنني ما زلتُ كما كنتُ ابن الميكانيكي، ولا أستحق شرف التعارف».

قال نايت ضاحكاً لتخفيف الموقف: «لا لا لم أقصد هذا. لنخرج إلى الهواء الطلق يا آنسة سوانكورت، وعليك أن تعذري ستيفن، فأنا أعرفه منذ سنوات كما أخبرتك».

- نعم لقد أخبرتني بهذا.

قال ستيفن بمرارة: «كيف لها أن تنكر معرفتها بي». وذكرته تصرفاتها بتصرفاته عندما جاء إلى بيت والدها أول مرة.

لم يبدِ نايت اهتماماً بتصرفات ألفريدا وعزاها بأنه من الطبيعي أن تشعر بالحرج من طريقة مرافقته لها حيث لم تترك مجالاً للشك في طبيعة العلاقة التي تربط بعضهما ببعض.

تقدمت ألفريدا أمامه ومرت خلال المقبرة.

قال نايت: «لقد تغيرتَ بشكل كبير وأكثر من المتوقع يا ستيفن، ولا تتوقع أن اهتمامي بك وبمستقبلك قد قلّ، أبداً أبداً، ولا تتردد في المجيء إليَّ إذا أحسست بذلك طلباً للمشورة والنصح. إنني لم أنسَ ما أخبرتني به عن سبب ذهابك إلى الهند، إنه من أجل شابة لندنية أليس كذلك، أتمنى أن الأمور جيدة».

- لا، لقد انتهت العلاقة.

من الصعب معرفة الخير في أمور كهذه، إن هذا يعتمد كلياً على شخصية الشريك، فقال بحيادية: «أتمنى أن يكون هذا إلى الأفضل».

- أتمنى أن يكون هكذا، ولكن أرجوك ألّا تضغط عليّ أكثر، لا أقول إنك ضغطت عليّ، ولكني لا أرغب في التحدث به مطلقاً.

كانت كلمات ستيفن سريعة.

لم يردّ نايت، وتَبِعا خطوات ألفريدا، التي احتفظت بمسافة بينها وبينهما ولم تسمع كيف أشار لها بطريقة غير واعية. ودّعهما ستيفن إلى باب المقبرة ولم يتجاوز الباب ورأى كيف امتطى نايت الحصان مع حبيبته وغادرا.

– يا للسماء يا ألفريدا، كم أنت شاحبة، ما كان يجدر بي أن آخذك إلى المدفن. ما الأمر؟

قالت بضعف: «لا شيء، سأستعيد عافيتي بعد قليل، كل ما كان هناك كان غريباً وغير متوقع، وهذا ما جعلني أشعر بالإعياء».

– هل أحضر لك الماء؟

– لا، لا.

– هل تعتقدين أنه آمن لك أن تركبي الخيل؟

قالت: «من غير شك ومن المؤكد».

«حسناً، هيا»، ورفعها برقّة إلى السرج.

كان حبيبها السابق يراقب المشهد من موقعه متكئاً على السياج، وما أن أصبحت على صهوة الحصان، حتى أدارت وجهها ناحيته، وكانت تلك المرة الأولى التي تنظر إليه بعد لقائهم العاطفي عندما قررت أن تهرب معه لتتزوجه. إنه الشاب الذي ناداها مِراراً بزوجة المستقبل، والذي لقّبته بزوجها، التقت عيونهما، كانت حياتهما معاً في كثافة تجربتها أكثر من عمرها الزمني. نظراتهما كانت تلخيصاً لتاريخهما معاً. كانت نظرات الألم والمعاناة في عيني ستيفن كدبابيس في قلبها لا تقوى كل كلمات الدنيا على وصفها. وبجهد كبير سحبت عينيها واستمرت في طريقها في فوضى واضطراب الذكريات التي حاصرتها. وبهذا اكتمل التضليل والخداع.

سارا في طريقهما، واقترب نايت منها قائلاً: «هل أنت أفضل الآن يا عزيزتي؟».

«نعم»، ورفعت يدها إلى عينيها كمن تمسح صورة ستيفن، وبدأت وجنتاها تستعيدان لونهما ببطء.

قال نايت بأسلوبه الوعظي والإرشادي: «لا أنوي أن أوبخك ولكن ألا تعتقدين أن هناك الكثير من الضعف غير الناضج لمشاهدتك الموتى والقبور، فالمرأة الناضجة تستطيع أن تتعاطى مع فكرة الموت بهدوء ووعي أكثر من هذا».

- نعم إنك على حق.

إن انغلاقه وضيق أفقه وسذاجته في طبيعة العلاقات الإنسانية كانت السبب وراء عدم إدراكه لحقيقة حالتها وعدم شكه بما حدث. وقد لاحظت ألفريدا هذا، مما زاد من منزلته في عينيها. وأدركت كم هما مختلفان.

مع أن رؤية ستيفن وسماع صوته، أعاد لها لحظةً شعورَها القديم ولكنها سرعان ما تجاهلته.

أجابت عن أسئلة نايت بسرعة، وحولت الحديث إلى مواضيع مختلفة، وعندما وصلا البيت، لم تشاهده فترة العشاء. عند الانتهاء من العشاء، جلسا لمشاهدة الغسق في غرفة الصالون، ثم خرج نايت إلى التراس فتبعته ألفريدا.

قالت بحزم: «سيد نايت أريد أن أخبرك بشيء».

أجاب حبيبها: «ماذا؟ أرجو أن يكون بشأن السعادة، لا تسمحي لأي شيء في العالم أن يسلب منك السعادة، كما كنت اليوم».

- لا أستطيع أن أخبرك السبب دون أن أخبرك بالموضوع برمته، وهذا ما سأفعله غداً. وقد تذكرته اليوم، إنه شيء فعلته وما كان يجدر بي أن أفعله. إن له علاقة بالعاطفة وقد يكون موضوعاً كبيراً أو صغيراً. إن القدر وحده هو الذي منعه من أن يتحول إلى فضيحة في عيون الناس.

ظن نايت أن الموضوع سخيف، وقال بسرور: «إذن، ألا أستطيع أن أسمع الاعتراف الخطير اليوم؟».

«لا أبداً، لم أقصد الليلة، إنه ليس أمراً سهلاً، كما تعتقد، لقد أتعبني جداً». خافت من جرأتها فقالت: «ولكن قد تجده أنت أمراً سهلاً».

- ولكنك لم تقولي متى ستخبريني به؟

- غداً صباحاً، حدد أنتَ الوقت وسألتزم به، لأنني ضعيفة وقد أغير رأيي.

- حسناً، لنَقُلْ الساعة الحادية عشرة بعد الإفطار.

- حسنا، الساعة الحادية عشرة وسألتزم بوعدي.

* * *

28

حلمت بالهدوء فكانت المشاكل

«إنها الحادية عشرة يا آنسة سوانكورت».

نظرت من غرفتها، كان نايت ينتظرها في التراس يمسك كتاباً بيده، ويوزع نظره بين الكتاب وبين النباتات حوله وبين شباك غرفتها.

وقف تحت الشباك وقال: «وكيف أصبحت اليوم يا ألفريدا، إنك تبدين أفضل بعد الراحة والنوم طوال الليل».

سرعان ما كانت على الباب وأخذت ذراعه الممدودة وسارا ببطء في الطريق إلى النهر تحت الأشجار.

بقيت مصرّة على إخباره بالحقيقة، وها قد حانت الساعة تقدما خطوة خطوة ولم تتكلم بعد، عندها كسر نايت الصمت وقال: «حسناً، ما هو الاعتراف يا ألفريدا؟».

توقفت قليلاً وسحبت نفساً عميقاً وقالت: «لقد أخبرتك يوماً، وبالأحرى جعلتك تتصور شيئاً غير صحيح، لقد اعتقدت

أنني سأبلغ التاسعة عشرة العام القادم، وفي الواقع لقد بلغت التاسعة عشرة العام الماضي».

كان الموقف أكبر من طاقتها على التحمل، والآن عندما جاءت اللحظة الحاسمة، فلم يستطع تأنيب الضمير، ولا حب النزاهة والصدق، ولا التشوق إلى الاعتراف، وطلب الصفح بقبلة - أن يجعل ألفريدا تخوض تجربة الاعتراف. كانت مخاوفها كثيرة، وراودتها ليلة أمس؛ فهو قد لا يغفر لها، وقد يحتقرها، وقد يخيب أمله فيها، وإن استمتاعها وفرحها بمشاعرها اليوم، والذي اكتسبته خلال الصمت قد تغلب على المخاطرة الأبدية به.

إن الخوف مما كانت ستقوله، جعلها تقول ما قالته، بكل أريحية وبساطة، ومع هذا فلم يشك نايت لحظة أن ما قالته قد خطر ببالها في اللحظة الأخيرة، فابتسم وضغط على يدها بحرارة، ثم قال: «نعم يا عزيزتي إنك كذلك، يا لك من إنسانة رائعة، لتصلي إلى هذه الدرجة من تعذيب الضمير لأمر تافه كهذا؛ فلم يتبادر إلى ذهني أبداً إذا كنت أو لم تكوني في التاسعة عشرة، وكيف سيهمني فرق سنة وأنا أزيد عنك بعشر سنوات ونيِّفاً. يا له من أمر تافه!».

فقالت ألفريدا: «لا تمتدحني، لا تمتدحني، كم كنت أصبو إلى المدح من شفتيك، لكن لا تمتدحني فأنا لا أستحق هذا».

كان نايت في مزاج رائق واعتبر رفضها لمدحه نوعاً من التواضع.

فقال: «إنني أحبك الآن أكثر فعلى الرغم من سخافة الأمر برمته إلا أنها مسألة أخلاقية مهمة»، وأضاف برقّة فائقة: «إن هناك أمراً أحب أن أراه في المرأة، وهو الروح الصادقة الصافية كالسماء،

أستطيع استيعاب أي شيء وتحمّله في سبيل هذا، ولا أستطيع أن أتسامح أبداً بعدم وجوده، إنك تمتلكين يا ألفريدا روحاً مميزة، حافظي عليها لأنها نادرة وقليلاً من النساء تمتلكها، ولا تصغي أبداً إلى النظريات الحالية في حق المرأة بممارسة الخداع والمكر، إن المرأة يجب أن تكون صادقة كالرجل تماماً. وأعني بهذا أن الصدق والعدل ليس مقتصراً على العمل والأمور الاجتماعية، ولكنه أساسي ومهم في كل المسائل الحساسة التي تتعلق بالحب».

أشاحت ألفريدا نظرها إلى الأشجار وقد احتلتها هموم العالم مجتمعة.

- لنذهب إلى النهر يا ألفي.

- سأذهب، لو كان معي قبعة.

«سأحضرها لك». كان على استعداد لعمل أي شيء في سبيل البقاء في صحبتها، ثم توجّه إلى البيت ليحضر القبعة.

جلست ألفريدا على أحد المقاعد البسيطة وعيناها على الأرض تنظر إلى العشب. وسمعت فجأة صوت وقع أقدام ورأت الأرملة جثواي، تنظر إلى البيت، انكمشت ألفريدا وتمنت أن تذهب المرأة قبل أن تراها، واستدارت المرأة ووقفت أمام الفتاة.

- آنسة سوانكورت، لماذا تزعجينني. هل عليّ ألّا أمرّ من هنا؟

- بإمكانك أن تذهبي أينما شئت، فأنا لا أقوم بإزعاجك.

- إنك تزعجين عقلي، وعقلي هو حياتي كلها، وعقلي الذي ترك جسدي هو حيث يرقد ابني.

– نعم، يا للشاب المسكين. إنني آسفة لوفاته.

– هل تعلمين ما سبب موته؟

– السل.

«لا، لا، إن كلمة سُلّ تعني الكثير، لقد مات لأنك كنت حبيبته، ثم تركته، وهذا قتله»، وقالت بهمس منفعل، «لقد قتلت ابني!».

قالت ألفريدا وقد رفعت صوتها بسخط: «كيف بإمكانك أن تكوني بهذا الشر والغباء؟».

لم يكن هذا من طبعها ولكن بسبب توترها من الأحداث السابقة، فإنها فقدت القدرة على الدفاع التي يزودها بها المزاج الهادئ:

– لم أتحمل، أن يحبني، يا سيدة جثواي.

– هذا ما لم تتحميلنه، هل تريدين أن تعرفي كيف بدأ يا آنسة ألفريدا؟ لقد قلت إنك أحببت اسم فليكس، أكثر من أي اسم في الأبرشية، وكنت تعرفين أن هذا هو اسمه، وقد قلتِه أمام من تعرفين أنهم سيخبرونه بهذا.

– لقد كنت أعرف أن هذا اسمه، ولكن لم أتوقع أن يخبره أحد بهذا.

– ولكنك عرفت أنهم سيخبرونه.

– لا، لم أعرف.

- وبعد ذلك عندما كنتِ تركبين حصانك ومررت بالقرب من بيتنا وكان الصبية متجمعين وأردت أن تنزلي عن حصانك، والتف الصبية حولك يحاولون مساعدتك، وكان فليكس يراقب من بعيد، فقلت أريد فليكس أن يساعدني.

- إنك تفكرين بطريقة خاطئة: لقد كنت معجبة بأخلاقه أكثر من الآخرين، فقد كان لطيفاً ومهذباً لهذا أردته أن يساعدني.

- إذن لماذا سمحت له أن يقبّلك؟

- هذا غير صحيح إنه غير صحيح أبداً، لقد جاء من خلفي وحاول تقبيلي وأنا منعته وحينذاك قلت له إنني لا أريد رؤيته مرة أخرى.

- ولكنك لم تخبري والدك أو أي أحد آخر، كعادتك عندما تتعرضين للإهانة هذا إذا اعتبرت ما حدث إهانة.

- لقد توسل إليّ ألّا أخبر أحداً، ويا ليتني أخبرت والدي، لكنت وفّرت على نفسي الكثير من الأمور، لكن يبدو أن طيبتي شجعته وهذا كان آخر ما توقعته. ابتعدي عني الآن يا سيدة جثواي.

- لقد طردته من حياتك بقسوة، وقبل أن تبرد جثته اتخذتِ عشيقاً ثانياً، ثم تركت هذا من أجل الثالث، لقد اعتبرتِ أن علاقتك بالثاني أمرٌ تافه على الرغم من وصولك إلى حد الهروب للزواج، والذهاب إلى لندن والعودة في الصباح التالي دون زواج، إن هذا فيه من العار القدر الكافي ليحطم حياة فتاة مثلك؟ إن التقلب نحو حبيب أمر سيّئ، لكن التقلب بصفة زوجة فهذا فسق وأمر شنيع.

- إن هذه كذبة قاسية لا تقوليها أبداً أبداً.

- هل يعلم عشيقك الجديد بها؟ لا أعتقد ذلك فلو عرف بذلك فلن يكون عشيقك بعد اليوم. إن أهل الحيّ يعرفون القليل من القصة ولكن أنا أعرف الكثير، ولماذا يجب عليَّ أن أحترم حبّك؟

قالت ألفريدا بانفعال: «إني أتحداك، اذهبي وقولي ما شئت، ودمري حياتي، جهزي لسانك للعمل، أنت امرأة مفترية، انظري هاهو قادم» قالت بصوت مرتعد: «أخبريه، أخبريه في الحال» وكان نايت يسير في اتجاههما ويحمل القبعة في يده.

قالت المرأة واختفت في الطريق سريعاً: «ليس الآن».

أعادت المشكلة السابقة اللون إلى وجنتي ألفريدا، وتقدمت لملاقاته، وفي اللحظة التي توازنت واستعادت ملامحها وضع نايت القبعة على رأسها، ثم شبك يدها بذراعه وسارا معاً.

إنه اليوم السابق لمغادرتهما إلى سانت ليونارد، ويبدو أن هناك هدفاً لبقاء نايت معها، فتجولا خلال الوادي، في تلك الأمسية الخريفية.

قال نايت: «لم أرَ في حياتي منظراً كهذا: شجر البندق يتدلى فوق النهر بشكل قوس، والأرض لها رصيف؛ يذكرني المنظر بالدير، دعيني أساعدك».

ساعدها على العبور تحت الأشجار وفوق الصخور، إلى أن وصلا إلى شلال صغير بعرض قدم وارتفاعها، وجلسا بجانبه على الأعشاب الخضراء.

قال نايت وهو ينظر إلى ألفريدا، مازحاً: «هل من الممكن لهذا الشَّعر الثري الجميل لفتاة في عمر الثامنة عشرة أن يصبح أقل كثافة في عمر الثامنة والعشرين؟».

أجابت بسرعة: «لا مستحيل» وقد أرعبتها حقيقة الفكرة، إن موضوع الشعر لا يفهمه الرجال. وأضافت: «هل تعتقد حقاً أن حجم الشعر يمكن أن يقل بفعل الزمن».

- نعم، إنني أعتقد هذا، فهناك دراسات تقول إن أولئك الذين كان شعرهم غزيراً في البدايات أصبح شعرهم خفيفاً بفعل الزمن، وأولئك الذين كان شعرهم خفيفاً من البداية فلن يخسروا الكثير من الشعر.

إن المرأة تخاف أن تخسر جمالها، بنفس الدرجة التي تخاف فيها أن تخسر سمعتها، وهذا ما كدَّر ألفريدا.

ثم قال بطريقة قاسية: «عليك ألّا تستائي إلى هذه الدرجة من أمور جمالية شخصية تافهة».

قالت: «أعتقد أن من واجب المرأة أن تحافظ على جمالها قدر استطاعتها، ولو كنت باحثة لكتبت لك مجلدات في هذا الموضوع. وهناك قول باللاتينية كان والدي يقوله في هذا الخصوص».

- إنها ليست دفاعية على الإطلاق.

- لا، إنها ليست كذلك.

- لا تهتمي إذن، فهناك سبب يمنعني من أن أستخدم عصاي معك، هل تعرفينه؟

- لا، ولكني سأكون مسرورة بمعرفته، إنك تخيفني حين تتكلم بهذه الطريقة. فالضعف عندي هو المخيف عندك، وخوفي الأساسي الآن أن يفقد شَعْري غزارته.

- المرأة على استعداد لخسارة ذكائها على أن تخسر جمالها.

- لا يهمني إذا كان هذا انتقاداً، أو حكماً من أحكامك القاسية، ولكن شَعْري بشهادة الجميع جميل.

فأجاب برقّة: «وهل قلت عكس هذا يا آنسة سوانكورت، ولكنك تعرفين ما يقال عن جمال الشكل وجمال الروح».

- مسكينة الآنسة (جمال الروح) ما هي إلا شيء هزيل أمام الآنسة (جمال الشكل) في أعين الرجال. ولا بد أنك أحسست أن لحياتي قيمة يوم أنقذتِني من السقوط عن الجبل.

- من الممكن أنك اعتقدتَ أن حياتي لا تستحق حياتك.

- إنها تستحق حياة أي أحد.

كانت يداها تداعبان الماء وعيناها بنفس الاتجاه.

- إنك تتكلمين عن قساوتي معك وأنتِ تتعاملين معي بقساوة أكبر.

نظرت إليه وقالت: «كيف ذلك؟».

- بعد أن تكبدت المعاناة لإحضار المجوهرات لكنكِ لم تقبليها.

- ربما أقبلها الآن.

قال نايت: «أرجوك اقبليها».

أخرج العلبة من جيبه وقدمها إليها للمرة الثالثة، أخذتها ألفريدا بسرور.

قالت: «سأخلع هذين القرطين البشعين وأرتدي القرطين اللذين أحضرتهما، هل أفعل هذا؟»

- سأكون شاكراً.

إلى الآن لم يقبّلها نايت، على الرغم من عمق العلاقة بينهما، كان أقل اندفاعاً من ستيفن في هذا الجانب، كان أكثر ما قام به هو ما رآه ستيفن في البيت الصيفي، إن وجنتي ألفريدا كانتا فاكهة محرمة إلى هذه اللحظة.

- أحب أن ألمس أذنك المثيرة يا ألفريدا، اسمحي لي بأن أضع لك القرطين بما أنهما مني.

ترددت قليلاً.

- إذن، دعيني أضع واحداً.

احمرت وجنتاها خجلاً.

قالت: «لا أعتقد أن هذا سيكون تصرفاً مقبولاً أو عادياً».

قطع سكونَ الأشياء طائر صغير جاء ليشرب، بعد أن راقب المكان.

قال نايت بتهذيب، أحبّت سماعه: «كوني عادلة، إنك لا تمانعين إلا قليلاً، اسمحي لي بذلك».

«حسناً سأكون عادلة»، ونظرت إلى وجهه وقالت: «لا أمانع أن تقوم بذلك».

- سأقوم بذلك.

وأمالت برأسها تجاهه ورفعت شعرها وأدارت وجهها إلى الجهة المقابلة، وكانت ذراعاها وكتفاها على صدره، وكان يضع القرط بيدين مرتعشتين كالجرّاح الذي يقوم بعمليته الأولى.

- الآن الأذن الأخرى.

- لا، لا.

- لماذا؟

- لا أعرف بالضبط.

- يجب أن تعرفي.

- إن لمستكَ أربكتني. لنذهب إلى البيت.

- لا تقولي ذلك يا ألفريدا، إنها شيء بسيط. والآن أعطني الأذن الأخرى.

لم تملك القدرة على الرفض وأدارت وجهها باتجاهه. ودون أي نية مقصودة تلامس وجهاهما فقبّلها.

كان عاطفياً ورقيقاً وقال لها: «متى سنتزوج يا ألفريدا».

كان وقع كلماته عظيماً عليها، وكان هناك مرارة في الحلاوة تنغص عليها الاستمتاع باللحظة، حيث طلب منها الزواج في نفس يوم لقائها بالسيدة جيثواي وتهديدها.

- إنني لا أضغط عليك للحصول على إجابة الآن. خذي وقتك.

كان نايت رجلاً محترماً، ولكن لم يكن له علاقات نسائية سابقة على أي صعيد. وكما يقال إن هذا يثبت المثل القائل إن الذكاء في الحب دائماً ما يتطلب الخبث والمكر.

فما أن تملكته العاطفة حتى قلَّ ذكاؤه للحد الأدنى. نايت بوصفه عاشقاً كان ضيق التفكير وأكثر بساطة من ستيفن، عكس باقي المجالات.

ودون مناقشة موضوع الزواج مرة أخرى فقد أمسك بيدها ونظر إليها بتمعن.

قالت ودموع الفرح بعينيها: «هل هديتك تناسبني؟».

قال بطريقة لطيفة ليهدئ من روعها: «إنها تناسبك تماماً دون شك، عليك أن تشاهديها، إنك تبدين أكثر لمعاناً، تخيلي لقد استطعت أن أحسِّن من مظهرك».

– حقاً، هل أنا جميلة إلى هذه الدرجة، إنني سعيدة بك، أتمنى أن أستطيع مشاهدتها.

– لا تستطيعين، عليك الانتظار إلى أن نصل إلى البيت.

– لن أستطيع الانتظار، انظر إن هناك طريقة.

– فعلاً، إن هناك طريقة، يا لذكاء النساء.

– أمسك بي جيداً.

– حسناً.

– ولا تدعني أسقط.

- من المستحيل.

كانت تحتهما بحيرة صغيرة، فأمسك بها نايت إلى أن ركعت ونظرت إلى انعكاس صورتها في المياه.

- إنني أستطيع أن أرى نفسي، كم أحب نفسي وأنا أرتديهما.

- دون شك. كيف يمكن أن تحبي هذه الأشياء، أعتقد أنك نزعت ذوقي تجاه هذه الأشياء التي كنت أكرهها قبل معرفتي بك.

- إنني أحب الحليّ، لأنني أحب أن يرى الناس ما عندي، وأن يحسدوني عليه، ويتمنوا أن يكونوا مكانك.

- أعتقد أنني لا أملك حق الاعتراض، وكم من الوقت ستبقين تنظرين إلى نفسك هكذا؟

«حتى تتعب من حملي. صحيح، أود أن أسألك شيئاً» وأدارت وجهها. «والآن أخبرني بالحقيقة، ما لون الشعر الذي تفضله؟».

لم يجب نايت.

- هيا قل الفاتح، لا تقل الغامق كما قلت سابقاً.

- البني الفاتح كلون شعر حبيبتي.

قالت بغنج: «حقاً».

- نعم.

- والعيون الزرقاء وليس العيون البندقية. قل نعم قل نعم.

- يكفي تعديلاً واحداً في اليوم.

- لا، لا.

قال نايت ضاحكاً: «حسناً، العينان الزرقاوان» وجذبها إليه وقبّلها للمرة الثانية، احتجت ألفريدا على القبلة مما أدى إلى تبعثر شعرها وقبعتها.

«يجب أن نكون حذرين، فقد خسرت القرط الآخر وأنا أفعل هذا». أثارت اهتمامه الكلمات أكثر من سحابة الأسى التي عبرت وجهها فجأة، وأغلقت شفتيها في محاولة لاسترجاع الكلمات.

- وأنت تفعلين ماذا؟

قالت بتسرع: «بالجلوس خارج البيت».

* * *

29

رعاية على الرغم من المرض

كان عائلة سوانكورت في أحد فنادق لندن، تراقب غروب شمس تشرين الأول (أكتوبر) التي ترخي سدولها على المدينة ، وكانت أعمدة الدخان تتطاول كالأشجار. فقد انتهت زيارة صديقهم في سانت ليونارد، وقرروا البقاء يومين في فندق المتروبوليس، قبل العودة إلى البيت.

أما نايت، الذي أمضى فترة غيابهم في الإبحار على سفينة بريتاني، إلى جيرسي وسنت مالو، ثم عبر النورماندي وعاد إلى لندن ببشرة سمراء، فقد وصل بعد وصولهم لندن، بليلتين.

وقد التقوا هذا المساء في الفندق، أمضى نايت عصر هذا اليوم في ريتشموند، لترتيب موضوع حقائبه، ولم يكن هناك رجل أكثر سعادة منه عندما أرشده عامل الفندق إلى الغرفة التي كانت فيها ألفريدا وزوجة أبيها جالستين طلباً للراحة بعد يوم تسوق مرهق.

كانت ألفريدا تبدو سعيدة بالتغير الذي حدث لها، وسرعان ما التقوا في إحدى زوايا الغرفة، وكان قد تم الارتباط بينهما، ولم

تكن لدى ألفريدا أي فكرة عن الترتيبات المتعلقة في هذا الموضوع، فقد كانت مكتفية بوجود حبيبها، الذي سلّمته قلبها كلّه.

تجاذبوا أطراف الحديث خلال العشاء بما جرى في الأيام الماضية، أما بخصوص المستقبل فكان محور حديثهم هو رحلة العودة.

قالت السيدة سوانكورت: «إن غداً هو رحلة العودة في هذا الطقس البارد، عن طريق ساوث ديفون».

قال نايت: «هل سلكت يوماً طريق المياه؟».

السيدة سوانكورت: «لم أذهب قطّ منذ أيام خط الحديد».

قال نايت: «إذا استطعت توفير يوم، فما رأيك أن نقوم بهذه الرحلة البحرية؟ إن القناة الآن مثل البحيرة، وسنصل بلايموث بعد أربعين ساعة على ما أعتقد، وستتحرك القوارب من تحت هذا الجسر».

قالت السيدة سوانكورت: «إنها فكرة جيدة».

قال نايت: «إن هذه السفن قصيرة ولا أظن أنك تمانعين هذا!».

السيدة سوانكورت: «لا أبداً، لا أمانع».

- وصالون السفينة كأنه سوق سمك، فيه من معظم دول العالم ولا أعتقد أنك تمانعين هذا أيضاً؟

- طبعاً لا، لو أننا فكرنا في هذا الأمر سابقاً، لكُنّا ذهبنا في يخت اللورد لوكسليان. ولكن لا بأس سنذهب.

- وبهذا نكون قد تخلصنا من أزمة لندن الصباحية وفي نفس الوقت تخلصنا من خطر حوادث القطارات، التي تحدث في هذا الوقت من السنة، هذا إذا صدقت الصحف.

وفي الصباح التالي كانت هناك عربتان لتأخذهم إلى الميناء. الأولى حملت الركاب والثانية وضعوا فيها الأمتعة.

كانت العربتان تسيران ببطء بسبب الأزمة وكثرة العربات، أخرج القسيس رأسه من النافذة وقال: «لا بد أن هناك خطأ في الطريق». وعندما أعاد رأسه إلى الداخل أضاف: «لا أرى أناساً محترمين هنا غيرنا. لقد سمعت أنّ أحياء سكنية في لندن يتم فيها سرقة الناس وقتلهم. هل أنت متأكد أن السائق ليس متآمراً معهم؟»

قال نايت: «لا، لا، إن الأمور تسير بشكل جيد».

قال القسيس: «ما أود قوله هو أن هذه الطريق لا يمكن أن تكون الطريق الرئيسية بين بلايموث ولندن، في الحقيقة إنها الطريق إلى لا مكان. وأعتقد أنه سيفوتنا موعد الباخرة وموعد القطار».

نايت: «في الواقع لقد وصلنا».

قال رجل العربة وهو يفتح الباب: «خذوا حِذركم».

وما أن نزلوا حتى كان هناك صراع بين رجل العربة وجمع من الحمالين الذين يقفون في طابور من أجل حمل حقائبهم وعُلَبهم (بالأجرة من غير شك)..

وبعد صراع استطاع نايت أن يقلص عددهم إلى اثنين حملا الأمتعة واتجها إلى الميناء. ونفس المجموعة السابقة أخذت تتشاجر مع صاحب القارب. ووضعت الأمتعة في أحد القوارب.

قال سوانكورت: «لم أشاهد في حياتي مشهداً أكثر سوءاً من هذا. كنت أعتقد أن هذه الممارسات تحدث في الموانئ القارية. هل أنتِ مستاءة يا ألفريدا؟».

- لا، أعتقد أنه مشهد جميل.

قال القسيس، «أين هي السفن البخارية، فأنا لا أرى إلا هذه السفن الكبيرة».

قال نايت: «خلف تلك، أعتقد أن علينا أن ندور من خلفها».

كانت هناك سفينة بخارية ذات لون أزرق يميل إلى السواد، وكأنه لم يتعرض لفرشاة دهان، منذ خمسين عاماً، وكان بجانبها واحدة أخرى، وللوصول إليها كان لا بد من عبور قناة بين السفينتين تضيق في إحدى نهايتيها بعرض ياردتين ونصف ياردة. وما أن عبروا القناة حتى جاءت سفينة منافسة تخبّ في المياه كفرس هائج، وصنعت سلسلة من الأمواج المتلاطمة، أدت إلى قذف مركبهم الواهن كأنه فنجان شاي، فتأرجح القسيس وزوجته ذات اليمين، وذات الشمال وضربتهم الأمواج داخل المركبة.

تمتمت السيدة سوانكورت بداخلها: «مريع، مخيف». وأضافت بصوت عال: «لقد ظننت أننا سنصل السفينة بطريق السطح، لم أكن لأجيء لو كنت أعرف أنها بهذا السوء». وأضافت المرأة العجوز وهي تمسح فستانها بمنديلها: «إذا كان لا بد من أن تبلّلنا المياه فلتكن مياهاً نظيفة على الأقل».

القسيس: «أتمنى أن تكون آمنة».

قالت ألفريدا: «يا أبي إنك لست شجاعاً».

قال السيد سوانكورت بقساوة: «ما الشجاعة إلا عائقاً أمام عدم إدراك المخاطر».

ضحكت الآنسة سوانكورت، وضحكت السيدة سوانكورت، وضحك نايت.

وفي وسط هذا الضحك وجدوا أنفسهم قريباً من السفينة جولييت، فصعدوا إلى سطحها تباعاً.

تأخر إبحارهم بسبب المد ساعة واحدة، مما أعطاهم وقتاً ليراقبوا العُمّال في ملابسهم الزرقاء يقومون بأعمال تصليحات غريبة بالقطران، ومشاهدة قرص الشمس المتوهج كالرصاص، والاستماع إلى الموسيقى المرتفعة المنبعثة من إحدى الرافعات البخارية القريبة، وأصوات السفن البخارية. وأصوات صراخ البحارة على الميناء.

أعلنتْ دقاتُ الساعة تمام العاشرة والنصف، التقط السيد سوانكورت أنفاساً قلقة، ونظر إلى وجوه شركائه في السفر، ولم يكن في وجوههم ما يستحق النظر إليه، كانوا جميعاً مثله في انتظار المد ليبحروا.

قال السيد نايت: «لقد كنت أفكر أننا الآن بين أندر طبقة في المملكة، فإن جميع الشخصيات الإنسانية قد تجد هنا العديد من المرضى الباحثين عن المتعة ولكن لا أهمية للوقت عند باحثي المتعة؛ فإن باحثي المتعة الذين نقابلهم في المسافات الطويلة هم أكثر تَوْقاً إلى الوصول بسرعة من التجار المسافرين وبالإضافة إلى خسارة الوقت في الوصول إلى نهاية الرحلة، فإن هؤلاء الناس الاستثنائيين يغامرون بإصابتهم بدوار البحر في سبيل ذلك».

قال القسيس: «هل هذا ممكن يا سيد نايت، لا أعتقد ذلك يا سيد نايت في هذا المكان، في قناتنا الإنكليزية، أي بالقرب من بيوتنا. إن القنوات هي أماكن مفتوحة ومتصلة خلال البحر في كل العالم، والقناة هنا لا تختلف عن البقية ، فهي تفسد مزاج البحارة، وقد تم احتسابها من قِبَل الفلاسفة، إن اللعنات التي تصعد إلى السماء في السنة من القناة وحدها تعادل تلك التي تصعد من المحيطات الخمسة مجتمعة».

وأقلعت السفينة إلى وسط نهر التايمز بانحناءاته، وعادت الحياة إلى الوجوه الميتة.

كان كل شيء ممتعاً لألفريدا.

قالت السيدة سوانكورت وقد تحسّن مزاجها بعد إبحار السفينة وتعرضها لهواء البحر المنعش: «إن هذا جيد».

على العكس من زوجها فقد كان للبحر التأثير السيئ عليه، فقد امتقع لونه، وتوعك واختفى عن أنظارهم.

عندما حل المساء، جلست السيدة سوانكورت وحدها تقرأ كتاباً، وكان العاشقان يتجولان في أنحاء السفينة معاً صعوداً ونزولاً وكانت روح ألفريدا الصبيانية المفعمة بالحياة تلفت أنظار جميع مَن على السفينة، كانت متعلقة بذراع نايت بفخر. وهذه كانت المرة الأولى التي تتصرف بها بهذا الانفلات.

قالت: «أتوقع أنهم يتحدثون بشأننا وأظن أنهم يحسدوننا أيضاً».

قال: «ولماذا يحسدوننا، وماذا كانوا يقولون؟».

قالت: «لا أعتقد أنهم كانوا سيقولون شيئاً سيئاً، ولكن هم ينظرون إلينا ويقولون: انظر كم هما زوجان سعيدان!».

لم تكن ألفريدا تمل من سؤال نايت وسماع أجوبته التي قد تكون سيئة، أو جيدة، أو غير مترابطة. جاء المساء بظلمته الحالكة، وأنيرت السماء بأضواء من الأفق البعيد.

قال: «انظري إلى السماء هناك، حيث الهالة ذات اللمعان الفضي، ولاحظي ماذا سيحدث؟».

نظرت بضع دقائق وظهر بعدها ضوءان خلف التل، تبين أنهما سبب الهالة الفضية التي رأتها قبل قليل.

قالت: «يا له من لمعان، ما هما؟».

قال: «إنها المنطقة الجنوبية لقد كانت خلف التلال».

- وما تلك الأضواء؟ هل هي مدينة؟

- إنها بلدة دوفر.

طوال الوقت كانت تشع عليهم أضواء من السماء ومن الساحل تنير وجوههم وتنير صفحة المياه.

نامت ألفريدا تلك الليلة ملء جفونها، وكانت أول فكرة راودتها عند استيقاظها صباحاً هي سعادتها بنايت قريباً منها كما كانا في أندلستو. وكان أول منظر تراه من نافذة غرفتها شمس الصباح اللامعة على الشواطئ، ثم سرعان ما تغير الجو وهبت رياح باردة على البحر تنذر بتعكير صفو هذا اليوم.

عند وصولهم قريباً من ساوثمبتون، جاءت السيدة سوانكورت لتخبرهم بأن زوجها مريض جداً ومصاب بدوار البحر ويتمنى أن ينزل من البحر ليكمل طريقه خلال البر، وسيتحسن وضعه تماماً ما أن تطأ قدماه اليابسة، فكانت تتساءل ما العمل؟ هل يذهبون معه أو يكملون رحلتهم البحرية كما خططوا؟

قالت ألفريدا وكانت تقف تحت المظلة التي يحملها نايت اتقاءً للرياح: «لا نريد أن ننزل إلى الشاطئ، سيكون هذا شيئاً مؤسفاً».

قالت السيدة سوانكورت موجهة حديثها لألفريدا بمكر وكأنها طفلة: «حسناً، أرى أن الرياح ازدادت شدتها، والبحر ازدادت

شهيته وروحه، وشخص ما ازدادت سعادته، فمن المؤكد أن نزولنا إلى الشاطئ سيكون شيئاً مؤسفاً».

قالت ألفريدا: «إنه حظي السيئ، ذلك الذي يجعل الجميع يعطونني النصائح والوعظ».

قال نايت: «حسناً سنفعل كما تريدين يا سيدة سولنكورت...».

قاطعته قائلة: «بالنسبة إليّ، أفضِّل البقاء في السفينة، والسيد سوانكورت يقترح أن يذهب وحده، وهذا يحل المسألة».

نزل السيد سوانكورت إلى الشاطئ وحده فتحسنت حاله فوراً.

كانت ألفريدا تجلس وحدها عندما رأت امرأة ترتدي وشاحاً وتمشى على سطح السفينة، وكانت بين آخر مَن صعد من هذا الميناء. انطلقت المرأة دون أن تنظر حولها إلى غرفة الركاب الثانية.

فزعت ألفريدا وركضت إلى حيث تقف زوجة أبيها، قائلة: «لنذهب بالقطارات مع أبي»، ثم قالت بإصرار: «أود الذهاب معه».

نظرت السيدة سوانكورت حولها متحيرة، ثم قالت: «لماذا لم تقولي هذا سابقاً، لقد فات الوقت الآن».

ففي هذا الوقت كانت السفينة قد أبحرت وغادرت الميناء، ولم تكن هناك طريقة إلا إعادة السفينة إلى الميناء، وكان هذا غير ممكن، فتكدّرت سعادتها.

إن المرأة التي كدرتها تشبه السيدة جثواي، والتي تسكن ألفريدا كما الشبح، وكانت كثيراً ما تتساءل هل تراقبها وترصد تحركاتها.

وهداها تفكيرها إلى أن الأمر لا يعدو كونه صدفة، هذا إذا ما كانت المرأة هي السيدة جيثواي، وذلك لأن المرأة المضطربة، كثيراً ما

تزور القرية القريبة من ساوثمبتون، ولا بد أنها اختارت السفر بطريق المياه توفيراً للنفقات.

خيمت الظلمة بعد مغادرتهم ساوثمبتون باتجاه سولنت. اختفت الروح المفعمة وحلّ محلها عند ألفريدا فكر مضطرب وخوف من المستقبل.

تلبدت السماء بالغيوم وازداد تساقط الأمطار، كان نايت قد اعتاد على تغير مزاجها، نظرت ألفريدا من طرف عينها إلى حيث تجلس المرأة التي تشبه جثواي وقد كانت عيناها مركزتين على ألفريدا.

قالت لنايت بسرعة: «لنذهب إلى الجهة الأخرى فهناك رجل يثبت الأضواء».

انصاع نايت لرغبتها، وبعد أن شاهدا عملية تغيير الأضواء، مَشَيا معاً إلى أن ازدادت برودة الرياح، وكانت عينا ألفريدا تبحثان في كل مكان عن تلك المرأة (عدوّها) ولكن لم يكن هناك أحد.

قال نايت وقد رأى أن السطح خالٍ تماماً: «هل ننزل إلى الأسفل؟».

قالت، وقد خافت أن تكون السيدة جثواي المزعومة من ركاب الدرجة الأولى وأن تلتقي بها مرة أخرى: «لا، لو تكرمت، أحضِرْ لي وشاحاً من السيدة سوانكورت، فأنا أفضِّل البقاء هنا».

ظهر نايت ومعه الوشاح، وجلسا ملتحفين بالملابس الشتوية إلى أن أصبحت الساعة الثامنة موعد وجبة العشاء فكان ضرورياً النزول، وكم استراحت ألفريدا عندما لم ترَ السيدة جثواي المزعومة هناك.

صعدا إلى السطح مرة ثانية بعد انتهاء العشاء، إلى أن أرسلت السيدة سوانكورت رسالة تخبر ألفريدا بأنه حان وقت النزول إلى

الأسفل، فأوصلها نايت ثم عاود الصعود إلى السطح لقضاء بعض الوقت.

خلعت ألفريدا ملابسها وسرعان ما نامت، لم تدرِ كم من الوقت مر، قبل أن تسمع صوت همس في غرفتها:

- أرى أنك تعيشين أياماً سعيدة معه، وهذا ما يستفزني الآن، ولكنّ يوم انتقامي سيكون قريباً.

استيقظت ألفريدا فزعة ولم تعرف إذا كان ما رأته حلماً أو يقظة، ولكن إذا لم تكن تحلم فهذه من المؤكد كلمات السيدة جثواي. أنصتت تسمع في عتمة الغرفة، فلم تسمع سوى تنفس السيدة سوانكورت الثقيل، وتنفس الخادمة الأثقل؛ لا أحد آخر في الغرفة، لا بد أن السيدة جثواي قد غادرت الآن، أو أنها تقف دون أن تتنفس بجانب الخادمة، وهذا ما زاد في روعها، ولكنها عادت وقالت في نفسها: «كيف يمكن لشخص في الجانب الآخر من السفينة أن يدخل غرفتها ويقول ما قاله؟» إذن، لا بد أنها كانت تحلم.

رفعت نفسها ونظرت إلى البحر من نافذة الغرفة فسمعت الأمواج تضرب جانبي السفينة، بالقرب من رأسها، كانت خائفة أن تشيح بوجهها إلى الجهة الثانية وتجد رأس السيدة جثواي تحت مِرفق يدها، وفكرت في إيقاظ الخادمة، ثم سمعت أصوات أجراس وجلبة البحارة على السطح مما خفف من روعها قليلاً فقررت أن الأمر لا يستحق إيقاظ الخادمة.

لم تستطع البقاء في الغرفة تحت رحمة شبح جثواي، فدفّأت نفسها جيداً وصعدت على السطح. كان المكان تحت عتمة الليل شديد الغرابة، ومختلفاً تماماً عنه في ضوء النهار، واستطاعت رؤية

أضواء الشاطئ وخيال الرجل خلف المقود، وكان هناك رجلان آخران ميزت منهم حبيبها هاري نايت، فأسرعت تضع يدها بيده بحثاً عن الحب والأمان.

نايت: «ألفي، ألم تنامي؟».

- لا لم أستطع النوم هل بإمكاني البقاء هنا. إن العتمة شديدة وقد خفت، أين نحن الآن؟

- جنوب بورتلاند بل، هذه أضواؤها تلوح من بعيد، انظري إلى تلك البقعة من آثار عاصفة الأمس، هل ترين تلك الأضواء التي تومض إلى جهة اليمين؟ إنها أضواء الخطر لسفينة تدعى شامبلس، بيننا وبينها سباق حيث سنصل إلى تيار عبوره صعب في المياه الهادئة، وسهل في الرياح العاتية. وهذا الأفق الذي عبرناه من الغرب هو الخليج الغربي، محاط بشاطئ تشِسيل.

- كم الوقت الآن يا هاري.

- تجاوزت الثانية.

- هل ستنزل إلى الأسفل؟

- لا ليس الليلة، إنني أفضل الهواء النقي.

ولّما أحست أنه من غير اللائق أن تكون هنا في هذا الوقت المتأخر من الليل فقالت: «أود البقاء معك هذه الليلة، إذا سمحت لي، أريد أن أسألك بعض الأسئلة».

فقال نايت، وهو يضع يده حولها: «أسمح لك! إن سعادتي تتضاعف عندما تكونين بجانبي، نعم ابقي معي وسنشاهد انبلاج النهار معاً».

وهكذا مرة أخرى تدثرا ببطانية وجلسا كما في السابق.

نايت: «ماذا تريدين أن تسأليني؟».

قالت بتردد: «لا شيء، ربما أشياء ينبغي ألّا أسأل عنها»، كانت تود أن تسأله إذا كان قد ارتبط في السابق بامرأة؛ حيث ستعتبر هذا الموضوع مدخلاً إلى الاعتراف بعلاقتها السابقة وتطلب منه الصفح والغفران، وبذلك تسبق السيدة جثواي وتغلق الباب في وجه محاولاتها تخريب حياتها وابتزازها الدائم.

قالت: «أود أن أسألك إذا كنت خاطباً فيما سبق؟ أتمنى لو أنك كنت. أعني أن هذا الأمر لا يزعجني أبداً».

قال: «لا، لم أكن يوماً خاطباً»، وأضاف: «قد أكون أكبر منك سناً وأعظم منك تجربة وانخراطاً في المجتمع وفي العالم ولكني لست أكثر منك عمقاً في الحب فأنت أول علاقة لي كما أنا أول علاقة لك».

ارتعدت ألفريدا.

نايت: «هل تشعرين بهذا القدر من البرد؟».

قالت بحزن: «لا». إن الاعتقاد بأن هذه كانت طريقها الوحيدة للنجاة من الوضع عامة قد تلاشت، بل أثبتت زيفها.

قالت، آملةً أن يقول لها إنّه قبّل مئات المرات: «ألم تقبّل امرأة في حياتك؟».

- أستغرب من سؤالك هذا، ولكن في حقيقة الأمر لم أقبِّل في حياتي سواك أنت وأمي. فأنا طوال عمري لم أكن أهتم بالنساء قطّ.

إن الرجل الذي في الثانية والثلاثين من عمره والعميق التفكير والذي جاب العالم هذا الرجل خبرته بالحب كخبرة ولد صغير.

ألفريدا: «ولا مرة واحدة».

نايت: «لا، ولا مرة واحدة».

ألفريدا: «يا للغرابة».

- نعم، فالمفروض أن يكون العكس، فالرجال الذين مثلي يكون جلّ اهتمامهم بالنساء، ولا يمكن للناس أن يتوقعوا أن تكون هناك تجربة مغايرة.

ألفريدا: «هل أنت فخور بنفسك يا نايت؟».

نايت: «في الحقيقة لا، في السنوات الأخيرة كنت أفكر كم من التجارب الممتعة أضعت على نفسي».

ألفريدا: «حسناً، ولماذا لم تبادر؟».

نايت: «لا أعرف السبب، لم تكن هذه طبيعة شخصيتي، ويبدو أن هناك سبباً آخر شخصياً، له تأثير شديد فيَّ، وهو أنني كلما كبرت في العمر منعني هذا من الارتباط بأي امرأة لها تجربة سابقة، أو علاقة سابقة، فأنا أريد امرأة خالية من العلاقات (مثلي تماماً) فأكون أول رجل في حياتها كما هي أول امرأة في حياتي. لقد فقدت الأمل في أن أجد امرأة من القرن التاسع عشر بهذه المواصفات حتى وجدتك يا ألفريدا، وشعرت للمرة الأولى في حياتي أنّ ما منعني من الارتباط سابقاً هو نعمة لي، وزاد من قيمتك في نظري عدم وجود علاقات سابقة في حياتك (مثلي تماماً). ألستِ سعيدة بسماع ذلك يا ألفريدا؟»

قالت بصوت بذلت جهدها ليبدو هادئاً: «نعم لكني كنت أعتقد أن الرجال يرتبطون بعلاقات خطبة كثيرة قبل الزواج خصوصاً إذا لم يتزوجوا مبكراً».

- أعتقد أن معظم النساء يعتقدن مثلك، ونادراً ما يقابلون رجلاً دون تجربة مثلي. لأن كل العزاب يرتبطون بعلاقات، ولكنَّ عدداً قليلاً من الرجال يكونون هكذا، على كل حال فهذا ليس مهماً في حالتي.

سألت بعدم ارتياح: «وكيف ذلك؟».

قال: «لأن معرفتك بعلاقات الحب والارتباط أقل من معرفتي، ولذا فلا تستطيعين المقارنة بين خطبتي وخطبة أحد آخر».

قالت: «إنك تقوم بهذا بشكل جيد».

قال: «شكراً يا عزيزتي، ولكن رأيك ليس رأي خبير، ولذا فلا يمكن الاعتماد عليه». وأضاف: «أما في حالة أنك قد مررت بتجربة الخطبة من قبل فأعتقد أن رأيك سيكون مختلفاً، ولكن إذا كان فأنا لن...».

قاطعته قائلة: «لن، ماذا؟».

قال: «أوه، كنت سأقول إنني حينئذ لن أتقدم لك، بما أن التحرر من تلك التجربة كان هدفك».

قالت: «إنك قاسٍ على النساء».

قال: «لا. أعتقد أن لي الحق في إرضاء ذوقي، فأنا أبحث عن شفاه بريئة دون تجربة، إن بعض الرجال من النوع الآخر يبحثون عن هذا النوع بعد أن يكبروا في السن، ولكنهم لا يجدون ألفريدا...».

قاطعته قائلة: «ما هذا الصوت المريع الذي نسمعه كلما تقدمت السفينة إلى الأمام؟».

قال: «إنه أصوات البراغي... لم يجدوا ألفريدا كما فعلت، وقد اكتشفت زهرة لم يقطفها أحد قبلي هناك في الغرب، وها نحن في رحلة في القناة الإنكليزية، كأننا في رحلة حول العالم».

قالت بصوت مرتجف: «وهل من الممكن أن تتخلى عن سيدة قمت بخطبتها، ومن ثم اكتشفت أنّ رجلاً ما قد قبّلها مرة واحدة قبلك؟».

قال نايت: «قبلة واحدة، لا بأس».

وأضاف: «لا أستطيع البت في هذا، ولكن هذا التصرف يجعلني أكره النساء، دعينا نتوقف عن هذا الحديث».

لقد سمحت ألفريدا لأفكارها بأن تتوالى بتخمينات زائفة، وكل كلمة من كلمات نايت كانت تنزل عليها كثقل. بعد هذا كانا صامتين فترة طويلة ينظران إلى البحر الأسود الغامض، ويستمعان لصوت الريح الغاضب، يضربهما إلى الأمام وإلى الخلف.

أخلدت ألفريدا إلى النوم وهي بجانب نايت، الذي اكتشف ذلك من تنفسها المنتظم، فلم يشأ أن يزعجها، واستمتع بدعم جسدها الفتيّ الحار.

بدا نايت يحلم هو أيضاً حيث إنه لم ينم، كان مسروراً بحجم الثقة التي وضعتها فيه، وبهذه البراءة الساحرة التي جعلتها تنام هنا وبهذه الطريقة. والأهم من ذلك هو أن يكون الحامي لهذه الإنسانة التي وضعت ثقتها فيه، ثم أَنَّتْ، وتحركت بعدم راحة، وأخذت تتحدث في نومها.

قالت: «لا تخبريه... لن يحبني، لم أقصد أن أسبب العار، لا تخبري هاري... كنا سنتزوج لهذا هربت معه... وهو قال إنه لن

يأخذ امرأة قبّلها حبيب من قبل... وإذا أخبرته فهو سيذهب. وأنا سأموت حينذاك. أرجوك ليكن عندك رحمة».

أيقظها صوت الأجراس قالت: «ما هذا؟»

- إنها مجرد أجراس لا تخافي يا عصفورتي الصغيرة، إنك في أمان، بماذا كنت تحلمين؟

- بامرأة في أبرشيّتنا.

- ألا تحبينها؟

- لا، إنها لا تحبني، أين نحن؟

- بالقرب من جنوب إكس.

لم ينطق نايت كلمة واحدة بشأن الحلم، شاهدا السماء إلى أن هدأت ألفريدا، وظهر الفجر، كان هناك نجم مضيء في السماء، وتغيرت الريح وتحولت إلى نسيم عليل، وتلاشى ضوء النجم في ضوء النهار.

قالت ألفريدا بعد أن نهضت من موقعها لتراقب بقية النجوم قبل غيابها: «هذه هي الطريقة التي أتمنى أن أموت فيها».

فقال نايت: إنها كما يقول الشاعر:

«لتشاهد نجم الصباح كما يجب أن يشاهد.
إنه لا يذهب بعيداً خلف عتمة الجنوب
ولا يختفي في جنوب الظلمات
ولا يختبئ في ظلمات السماء
ولكنه يذوب في ضوء السماء».

ثم قال نايت: «بعض الناس فكروا بنفس الطريقة، أليس كذلك؟ هذه هي دائماً مسألة أصالتي، إن أصالتي تعود إلى نفسي».

وأردف قائلاً: «هذه ليست حالتك وحدكِ، فعندما كنتُ في بداياتي، وعندما كنت أواجه موضوعاً شائكاً ويأخذ الكثير من تفكيري، فكنت أكتشف بعد فترة أنه كان مثار التفكير للعديد من الناس. هذا عندما كنت طفلاً صغيراً يضع المئزر».

فقالت ألفريدا: «إن هذا أمر مثير للبهجة، فكلما أخطأتَ أنتَ، أشعر أنا بالفرح لأن هذا يقربك مني كثيراً؛ لأنني كثيرة الأخطاء». وهكذا تحولت أفكار ألفريدا تلقائياً إلى العدو النائم تحت سطح السفينة.

ظهر الساحل من العتمة، وانتشرت السماء الوردية ناحية البحر من جهة الشرق، وتلونت الغيوم بخيوط وردية، وكل الأشياء بدت كأنها تسعى للإمساك بهذا الضوء الذي غمر الأرض، وأشرقت الشمس بعد أن أعلنت عن ولادتها خلال أشعة صفراء ملأت الأرض.

بعد الإفطار كانت بلايموث على مرأى البصر، وبدا الجدار الحائل للأمواج كخط فسفوري اللون.. بحثت ألفريدا بخوف عن السيدة جيثواي، ولم تجد لها أي أثر. ويبدو أن المرأة نزلت دون أن تراها.

تنفست الصعداء وهي تنتظر نايت الذي ذهب لإحضار الحقائب، رأت والدها بين الحشود يلوّح بعصاه ليلفت انتباههم، ودخلوا المدينة التي ابتسمت لهم ابتسامة مضيئة كما ابتسمت في نفس الوقت لألفريدا قبل سنتين، عندما كانت مع ستيفن سميث.

30

مركب إلى الحب

ازداد اقتراب ألفريدا من ستيفن مع الأيام، ولم يكن هناك مجال للشك في أن ما تكنه له من مشاعر قد امتلك روحها وحياتها، أكثر بكثير من أي مشاعر حملتها يوماً لستيفن، وتركت كل شيء وتبعته قلباً وقالباً.

لم تكن الفتاة المنفتحة ألفريدا حذرة في التعبير عن مشاعرها تجاهه، ومعرفته كم تحبه بل كانت معجبة بأفكاره، فهي لم تعارض يوماً رأياً له، أو تناقشه في أي مسألة، ولم تظهر أي جانب من الاستقلال الشخصي، كانت أي إيماءة من إيماءاته قانوناً عليها أن تتبعه، وإذا أبدت رأيها في موضوع ولم يعجبه، فتغير رأيها فوراً وتتبع رأيه، حتى أخص خصوصياتها لم تكن إلا صدى لما يريد وما يحب أو يتمنى، كانت تجسد قول ابنة زوج نعومي المذكورة في الإنجيل «دعني أنعم بالنظر إليك يا سيدي، فقد أرحتني وقد تكلمت مع خادمتك الوضيعة التي هي أنا بكل رقة وعطف».

كان نايت يراقبها يوماً وهي تسقي النباتات في يوم ماطر، في البيت الزجاجي، كان ينظر إلى حبات المطر في الخارج وريّ ألفريدا للنباتات في الداخل.

قالت: «يجب أن أعطيك شيئاً يذكرك بي في غيابك هذا الخريف لتضعه في حجرتك... ماذا سيكون لوحة فنية، إن للوحات تأثيراً سلبياً أكثر منه إيجابياً، وخصلة شعر تجلب الحظ السيئ، وأنت لا تحب المجوهرات».

فأجابها نايت: «أريد شيئاً يذكرني باللحظات الحميمة التي قضيناها في هذا المستنبت، هل تعلمين ماذا أفضل، إنها شجرة الآس المقزمة تلك، التي تولينها جلّ رعايتك».

نظرت ألفريدا بعمق للشجرة.

قال نايت: «سأحملها في حقيبة القبعة وأضعها في النافذة أمامي وهكذا فستذكّرني بكِ دائماً».

لقد حدث أن هذه النبتة التي اختارها بالذات لها تاريخ عاطفي، فهي كانت غصناً صغيراً في حديقة بيت ستيفن سميث، وقد أحضرها وزرعها في هذا الأصيص وقال لها إذا نَمَتْ، فعليها أن ترعاها جيداً، لتذكّرها به في أثناء غيابه.

أحست أنه من القساوة أن تتخلى عنها حيث تحمل هذا الكم من الذكريات واستغربت أن يختار نايت هذه النبتة بالذات.

- إن هذه نبتة عادية اختر شيئاً آخر أجمل.

- إنني أحب هذا النوع من النباتات، ولماذا تعترضين على هذه النبتة؟

- إنني لا أعترض، ولكنه مجرد شعور، على كل حال ها هو غصن آخر قُطِع حديثاً ومن نوع أفضل وأوراق أغزر وبنفس الحجم.

- إن هذه تفي بالغرض، لأضعها في غرفتي حتى لا أنساها. وما هي الأهمية العاطفية للنبتة الأولى؟

- إنها هدية من صديق.

لم يعطِ نايتُ الموضوعَ أي أهمية، وعندما دخل غرفته مساءً وجد النبتة في مكانها كما طلب، وأخذ يراقب جمال أوراقها في ضوء الشموع ويفكر في أحداث اليوم.

إن الدلال الزائد يفسد العشاق الذكور كما يفسد الإناث، إن الإذعان الذي تتعامل به معه جعله يتساءل في نفسه، «ترى ما الذي جعلها ترفض إعطائي النبتة الأولى، لقد قالت إنها هدية، هدية ممّن. فيكون عزيزاً عليها لتمنعني من أخذها، ولا أرى حالياً هذا الصديق الذي يجعلها تتمسك بهديته بهذه الطريقة فتمنعها عني؟ إلا إذا كانت هدية من حبيب سابق».

ثم قال في نفسه بصوت عالٍ: «أتساءل إذا ما كان لألفريدا عشيق سابق؟» وقد تملكته هذه الفكرة إلى أن نام وتملكته فيما بعد أيضاً على غير العادة.

في اليوم التالي ولمّا كانا وحدهما، سألها على حين غِرّة: «هل تحبينني أقل أو أكثر بعد حديثنا ذاك على السفينة؟».

رفعت عينيها إلى عينيه وابتسمت: «أي حديث لقد تحدثنا بأشياء كثيرة؟».

- أعني ذلك الاعتراف الذي انتزعتِه مني، بأنني لم أعرف أي امرأة قبلك في حياتي؟

قالت وهي تحاول أن تحافظ على ابتسامتها: «إنه لشيء رائع أن أكون أول امرأة في حياتك».

قال نايت: «والآن سأسألك سؤالاً ليس بجديد، فقد سألته بطريقة غير مباشرة، وبشكل غير جدي وقد تجدين هذا غريباً».

حاولت ألفريدا جاهدة أن تحافظ على لون وجهها، فهي كانت تعلم أن الشحوب يُفسر كأنه شعور بالذنب أكثر كثيراً من الاحمرار.

قالت: «لا، لن أفكر هكذا».

قال: «إن السؤال كالتالي، هل كان لك يوماً عشيق؟ أنا متأكد من أنه لم يكن لك. ولكن هل كان؟».

قالت: «ليس بمعنى عشيق، إنه شيء لا يستحق الذكر يا هاري».

أحس نايت بالإعياء العاطفي وببعض الألم في صدره.

- ومع هذا فقد كان هناك عاشق؟

أجابت ببطء: «نوعاً ما عشيق على ما أعتقد؟».

قال: «هل هو رجل أعرفه؟».

قالت: «أعني مجرد شخص...».

- ولكنه كان عشيقك؟

- نعم كان عشيقي بإمكانك قول هذا؟

غرق نايت في الصمت بعض الوقت، ولم ينبس ببنت شفة، ويده على ساعة المكتبة.

«إنك لا تمانع يا هاري، أليس كذلك؟». قالت هذا وهي تقترب منه وتنظر إلى وجهه.

«من غير شك، لا أمانع هذا الأمر السخيف، ولكني كنت أعتقد أنه لم يكن لك عشيق، هذا كل ما في الأمر».

عندما كان نايت يتجول بين التلال والحقول ويفكر فيما قالته ألفريدا عاوده ذاك الوجع والتساؤل، لو لم تكنْ تكنّ لذاك الرجل مشاعر لقالت معجب ولم تقل عشيق، والآن هي لا تهتم بمشاعر هذا العشيق السابق، فقد يكون هو أكثر من معجب، وهي فقط معجبة، لا بد أن هذه هي الحالة.

وفي إحدى مرات جلوسهما في الحديقة قرر أن يخضعها للفحص، فسألها قائلاً: «هل أحببت عشيقك السابق أو المعجب ولو قليلاً؟».

أجابت بتلقائية: «نعم، أعتقد ذلك».

أحس نايت بطعنة أسى في روحه: «أحببتِه قليلاً فقط؟ كم بالضبط؟».

- لا أعرف

- ولكنك متأكدة يا عزيزتي أنك أحببته قليلاً.

- إنني متأكدة أنني أحببته قليلاً.

- ألم تحبيه كثيراً يا ألفريدا؟

- لم يكن حبي له مدعوماً بالتبجيل.

قال نايت بعدم راحة: «هل أحببته بعمق؟».

- لا أعرف مدى العمق الذي تتحدث عنه؟

- إن هذا هراء.

صاحت والدموع في عينيها: «إنك تحاول أن تتصيدني، وتستجوبني وقد تركت يدي، لا تكن قاسياً معي ولا تستجوبني، لم أحبه أبداً كما أحببتك، وقد يكون حباً عميقاً، إذا اعتبرته أذكى مني، ولكني لم أعتبره كذلك أبداً. لا يمكن أن تعرف كم تحزنني!».

- لن أتفوه كلمة أخرى في الموضوع.

- ولن تفكر فيه مرة أخرى، هل ذلك ممكن، إنني أعرف أنك تفكر في نقاط ضعفي عندما تكون بعيداً عني، والتي لا أعرف ما هي، أتمنى أن تكون ذا طبيعة موضوعية، لأنني أنا هكذا يا هاري، أتمنى أن تكون طبيعتك مثلي؛ لتستمتع بالإيجابيات. فأنا أخذتك كما أنت بخيرك وبشرّك بجنونك وبفرحك.

- عن أي إيجابيات تتحدثين؟

- قلق أقل، أمان أكثر، إن الرجال العاديين ليسوا بهذا الذوق الدقيق. فحين لا يكون الزوج ذا طبيعة دقيقة، وحساسة، وعميقة، فالأمور تسير بشكل أفضل، وهذا من مراقبتي لحالات كثيرة».

- أعتقد أنكِ على حق، إن ضحالة التفكير لها هذا الأثر.

- أعتقد أنني أقبلك على علّاتك، إن الزوجين العمليين اللذين يفلسفان الكثير من أمور حياتهم يعيشان في رتابة، وهذا يقتلني، وأنتَ تسبب لي السرور كما أنتَ.

- ومع هذا أتمنى لو أنكِ لم تهتمي لأحد قبلي.

- نعم، وعليك أنت ألّا تتمنى هذا. إياك.

- سأحاول ألا أفعل يا ألفريدا.

تمنت ذلك ولكن قلبها لم يكن مطمئناً. إذا كان ينظر بهذه الطريقة إلى هذا الموضوع، فكيف يا ترى سيكون شعوره عندما يعرف كل شيء ويرى ما رأته السيدة جيثواي؟ فمن المؤكد أنه لن يجعلها أسعد امرأة في العالم بالزواج منها. أطبقت هذه الأفكار عليها كالقبر، وحاولت أن تقنع نفسها أن السيدة جثواي لن تقوم بهذا العمل القاسي السيئ لتشوه صورتها أمامه، واستنتجت أن الأمر الذي أخفته منذ البداية فعليها أن تستمر بإخفائه قدر المستطاع.

لقد عرفت ألفريدا من السيدة جثواي عداءَها وكرهها لها، فمن المحتمل أن تعمل على مضرتها، وحينذاك فسينتهي كل شيء؛ هل من الممكن أن تستمع المرأة لصوت العقل ولا تقوم بهدم حياة شخص لم يتعمد إيذاءَها قط؟

حل المساء على أندلستو، وكان يمكن سماع صوت الغدير المتدفق صوب البحر، وقد ظهر الضباب فوق خط سيره، وكان يمكن رؤية شكل الكنيسة المظلم من ناحية الوادي اليسرى، وفي الجهة

الأخرى أشجار البندق المزهرة، وكنت تسمع أحياناً صرخات الطيور التي تنتقل من غصن إلى آخر تبحث عن مكان يؤويها طوال الليل.

في طريق الوادي تحت شجر البلوط، كان هناك كوخ وحيد وواسع وكانت نوافذ بعض الغرف مسمرة بألواح خشبية، مما أعطى انطباعاً بأن البناء مهجور، كان درج الباب الأمامي سلسلة متعرجة وغير منتظمة، تقود إلى نهاية الجدول، حيث هناك حوض تتدفق خلال المياه ويبدو واضحاً أنه لتزويد أهل هذا البيت بالمياه.

كان بالإمكان سماع أصوات أقدام تنزل التل المجاور، ورؤية شبح امرأة في الظلام تطرق الباب، وأعادت الطرق ثلاث مرات دون إجابة.

ظهر ضوء خفيف من إحدى نوافذ الطابق الأول وهي التي ليست عليها أية ألواح خشبية أو ستائر تحجبها عن المارة، فبدا أن الضوء كان ناتجاً عن إشعال النار، تقدمت الزائرة بعد الثلاث طرقات إلى الباب من جهة اليسار حتى يستطيع مَن في البيت رؤيتها، وأزالت غطاء الرأس عنها وأنارَ ضوءُ النيران المشتعلة في الداخل وجه الزائرة التي كانت ألفريدا.

أضاءت النيران الغرفة فقط وكان بالإمكان رؤية الأثاث الذي كان أفضل بكثير من المتوقع، وكانت الغرفة فارغة تماماً.

أدارت المقبض ودخلت الغرفة ورمت الغطاء الذي يخفيها، ونادت بصوت خائف: «السيدة جيثواي».

فلم يجبها أحد.

اعتلت ألفريدا نظرةُ راحةٍ وندم وملء عقلها شعور بالخيبة.
توقفت ألفريدا بضع دقائق متحيّرة ماذا تفعل، فقررت الانتظار، وجلست على أحد المقاعد؛ انتظرت نصف ساعة ثم أخرجت من جيبها دفتراً مزقت إحدى صفحاته وكتبت:

«عزيزتي السيدة جيثواي،

لقد جئت لزيارتك، وأردت أن أراك، ولكني لا أستطيع الانتظار أكثر، إني أرجوك ألّا تنفذي تهديدك إليّ، أرجوك ألّا تقومي بذلك، أتوسل إليك ألّا تخبري أحداً بأنني هربت من البيت، فهذا سيدمر علاقتي به، ويكسر قلبي، سأفعل كل ما تريدينه، إذا كنت طيبة معي، باسم علاقة المرأة بالمرأة، أرجوك ألّا تفعلي ذلك، أتوسل إليك ألّا تفضحيني.

أ. سوانكورت»

مكتبة
t.me/soramnqraa

طوت الرسالة ووضعتها على الطاولة وغادرت المنزل.

في هذا الوقت دخل نايت من غرفة الطعام إلى غرفة الجلوس حيث السيدة سوانكورت.

قالت: «أين اختفت ألفريدا، هل هي في الطابق العلوي؟» وأضافت: «لقد وقع في يدي مقال قديم لك في جريدة البرزنت بطريق الصدفة، وقد قلت سابقاً إنه لك. اسمح لي أن أقول مع احترامي الشديد لقدراتك الأدبية، فإن ما جاء فيه هراء!». قال: «بماذا يتحدث»، وأخذ منها الجريدة ليقرأها.

قالت: «ها هو، لا تتخلص منه، التجربة علمتك أن تكون أكثر ليناً، لم أقرأ مشاعر مثل هذه تصدر عن رجل في حياتي من قبل، ولكني أعذرك فقد كان قبل أن تقابل ألفريدا.

- آه لقد تذكرت الآن، لم تكن فكرتي أبداً، إن هذا النص قد اقترحه أحد أصدقائي، وهو ستيفن سميث، الذي أخبرتك به سابقاً، والذي ينتمي إلى هذه المنطقة، ولم يكن في بالي أي فكرة حينذاك فأخذت هذه الفكرة وظننتها حينذاك فكرة مبتكرة تستحق بعض الجنيهات.

قالت: «ما هي فكرة النص، أريد أن أعرف؟»

قال وهو غير راغب في ذلك: «حسناً، التجربة تعطي خبرة، إن حبيبتك مثلها مثل خياطك، فهي لا تتقن واجباتها العاطفية لأنك أول تجربة لها، فهي لا تعرف كيف تؤديها، والحبيبة التي تتفاعل بشكل جيد مع القُبْلة الأولى، لا بد أنها خضعت للتجربة والتدريب».

قالت: «هل تعني أنك تقول هذا الكلام بناءً على ملاحظات رجل آخر، ولم تخضع أنت نفسك للتجربة؟».

قال: «هذا صحيح».

قالت: «أعتقد أن هذا غير عادل، وكيف تتأكد من أنه صحيح. لا بد أنك نادم على كتابتها».

قال: «بما أنك أثرت الموضوع، فسأتكلم بصراحة، عند كتابة أي تعليق، فيجب أن يتمكن صاحبه من الدفاع عنه في أي مكان، ولهذا

فأنا نادم على كتابة هذا التعليق. لقد صرت أكثر نضجاً منذ ذلك الوقت، واكتشفت أن محصلة الكتابات من هذا النوع تسبب الأذى، فلا يصبح أحدهم رجلاً إلا إذا قام بهجاء جنس حواء، حتى النساء أحياناً يقمن بهذا، وفي الواقع فإنني أصبحت أخجل من زملائي».

قالت السيدة سوانكورت بشيء من المزاح: «هذا لأنك وقعت في الحب يا هنري، وهذا يُحدِث فرقاً».

قال: «هذا صحيح، ولكنه ليس السبب».

قالت: «بما أنك وجدت هذا، بناءً على تجربتك الخاصة، فمن السخف أن تنكر هذا الاحتمال في تجارب الرجال الآخرين».

قال: «إنك تصيبين كبد الحقيقة يا عزيزتي تشارلوت، إنك تتصرفين كالولد الذي يضع حجراً في كرة الثلج، لن ألعب معك أكثر من هذا، وسأذهب الآن في جولتي المسائية».

إن هذا الحديث أصابه بالاكتئاب، فقد تذكر أن ألفريدا قد أحبت أحدهم، بشكل عميق قبل أن يلتقيها. ها هو غليونه في فمه وهو يروح ويجيء بين الشجيرات بقلق وعدم راحة، وأعاد التفكير في تلك المقالة التي تتعلق بقبلة الفتاة الأولى، وبدت الفكرة معقولة جداً، وستُلقي تبعاتها على ألفريدا.

كانت ألفريدا تتفاعل مع قبلة نايت بشكل مختلف تماماً عن تفاعلها مع قبلة ستيفن، فقد تعلمت بشكل رائع الدور الذي يتوجب على المرأة القيام به. وعلى الرغم من مشاعر الغيرة التي تملكته إلا أنه استطاع تذكر بعض كلمات قالتها حينذاك، بشأن ضياع

قرط في ظروف مشابهة، وهي التي لم يفهمها حينذاك، ومن المؤكد أنها كانت في أثناء القبلة الأولى بجانب نبع الشلال.

«يجب أن نكون حذرين لقد خسرت القرط الأول في أثناء قيامي بهذا».

شعر نايت بجرح في كبريائه ممزوج بالأسف، حين فكر في ما قاله لها، بكل بساطته، «أريد أن أكون دائماً الأول في قلب المرأة، فإما شفاه لم يقطفها أحد، أو لا شفاه إطلاقاً، لا بد أنه بدا غريراً» في عين هذه الفتاة، لا بد أنها ضحكت منه في داخل نفسها، وقد ندم أشد الندم على الاعتراف الذي انتزعته منه على القارب في عتمة الليل؛ حين تعرى من صَدَفَته وأخبرها بألّا علاقات نسائية سابقة له. كم هذا غريب!

إن هذا الرجل الذي له باع طويل في الدراسات الشخصية والملاحظات الصامتة المتعلقة بهذا الموضوع، والذي تخضع مشاعره لكثير من الدقة والتمحيص وصعوبة الخيار، قد أصبح الآن محصورا كالنباتات الموضوعة في قبو وفي قمة الألم. هذا بالإضافة إلى السنوات الطويلة في دراسة الشعر، وإذا كان لا بد من قول الحقيقة فإن الشعر هو الطريقة لذلك. إن السبب الذي سحره وجذبه إلى ألفريدا هو اعتقاده أنَّ صغر سنها وبراءتها وسذاجتها وصراحتها يجعل حب رجل آخر في حياتها أمراً مستحيلاً. وبدا له كم هو صعب أن يكون هو الأول في قلب أي امرأة.

وتوصل نايت إلى القناعات التالية: أن حبيب ألفريدا الثاني يجب أن يكون رجلاً له صدى، ومفكراً، والذي تقوم شخصيته

الجيدة بالتعويض عن المدح والتقدير. وأن على قلبها الآن الخفقان والدفاع عن قراراته غير الحكيمة دون مساعدة أحد أمام استجوابات نايت الدقيقة ومنطقه الشديد، وأنّ نايت الذي أثيرت شكوكه وغيرته فقد شحذ كل طاقاته وقوته لممارسة كل سلطته العقلية على قلبٍ صغير أحبه أكثر مما أحب نفسه.

إن إخلاص ألفريدا وتفانيها لنايت هو عدوّها الأساسي، وهو يعرف تماماً تعلقها به واعتمادها الشديد عليه، وهو أمر يكتشفه الرجال سريعاً، والثورات الصغيرة التي تحصل أحياناً لا تسبب له أي أذى، وقد تكون لها نتائج، إيجابية عليها؛ ولكنها أحبته إلى درجة العبادة وكانت سعيدة بأن تكون خادمته المطيعة.

* * *

31

دودة في البرعم

قال الناقد الأدبي في أحد الأيام: «لنذهب إلى المرتفعات يا ألفريدا»، ودون أن يستشيرها بدأ بالتحرك.

قالت برعشة: «المرتفعات التي شهدت مغامرتنا المميتة؟ إن الموت ينظر إليّ خلال هذه المرتفعات». ومع ذلك فقد ذابت ملاحظتها وكأنها لم تكن واستعدت لاصطحابه.

قال نايت: «ليست تلك المرتفعات فإنها مقيتة لي أيضاً، إنني أتكلم بشأن تلك الأخرى، ما اسمها؟ وندي بيك».

إن وندي بيك هي ثاني أعلى قمة على طول الشاطئ، إن المناطق الطبيعية مثلها مثل الرجال، تحب دائماً أن تكون الأولى. إنها نفس المنطقة التي ذهبت إليها مع ستيفن في زيارته الصباحية ذات صيف.

سرت القشعريرة في جسدها للذكريات المرتبطة بالمكان، حيث تم الكشف عن مشاعرها ومشاعر حبيبها السابق هناك. ولم تعترض على الذهاب بسبب طاعتها وارتباطها بنايت مع أن المكان كان كئيباً.

وفي محاولة للرفض قالت: «ولكن هذا المكان أبعد من التل الآخر».

- نعم، ولكن بإمكانك ركوب الخيل.

- وهل ستركب الخيل أنت أيضاً؟

- لا، أنا سأمشي.

غير معقول هذا التكرار الذي يحصل، كأن المصائب تحوم حول رأسها، ولكنها لم تعترض.

قالت: «حسناً سأركب الخيل يا هاري».

بعد ربع ساعة كانت على ظهر الحصان، وكم كان المزاج مختلفاً بين المرتين، ففي المرة الأولى كانت ملكة متوجة، أما الآن فلا مكان للاستعراض، ولا مكان للاختفاء عن الأنظار مع الحصان بانسي لتتعب رفيقها، ولا قصائد شعر، كانت ألفريدا تحت عبء مشاعر الحب. قام نايت بمعظم الحديث وبقيت هي صامتة، وانقادت تماماً لحركة الحصان الذي تركبه كطائر النورس الذي يركب الموجة.

وعندما وصلا إلى آخر منطقة تسمح بالمشي فيها، أنزلها نايت عن السرج برقة ورَبَطَ الحصان، ومشيا إلى حيث مقعد حجري، جلس نايت وأجلس ألفريدا بجانبه، وأخذا ينظران إلى البحر.

كان خط أفق البحر يرتفع درجتين عن مستوى الكآبة، وكانت الشمس النحاسية دون أشعة في سماء رمادية لم تنرها أشعة الشمس كما في المغيب، وتلاقت هذه السماء مع ملوحة الماء التي تتطاير هنا وهناك، وكانت تصلهما أحياناً رائحة رطوبة كانت على الأغلب من

التقاء الماء بقاع التل، وتذكرت ألفريدا كيف كانت منذ فترة طويلة على نفس هذا المقعد حين جلست هنا مع ستيفن ووافقت أن تكون زوجته، وهذا كان أمراً آخر يضاف إلى قائمة الأمور التي كانت من ضمن مخاوفها.

كان نايت رقيقاً هذه الليلة، وأبقاها بالقرب منه طوال الوقت، لم ينبسا ببنت شفة، وقال فجأة وهو ينظر بعيداً: «هل تعتقدين أن أياً من عاشقَيْن على مر السنين قد جلسا هنا متلاصقين كما نحن الآن؟ على ما يبدو ذلك فهذا المقعد مصمم لهذا الأمر».

استعادت ذكريات قرطها المفقود في هذا المكان، وكيف عاد المسكين ستيفن إلى هنا بحثاً عنه ولم يجده، هذا الأمر جعل ألفريدا تفحص المنطقة بجانبها وخلفها، كثير من الناس الذين يفقدون أشياءهم ويعاودون البحث عنها، وعلى الأغلب لا يجدونها؛ لمحت ألفريدا شيئاً لامعاً في أحد الشقوق قربها، حيث لمع تحت أشعة الشمس التي ظهرت دقائق وهي لا تعرف حقيقة هل إيجادها القرط خير أم شر، أعادت لها الذاكرة ما تفوهت به عن غير قصد حين كانت مع نايت في ظروف مشابهة، وإن نايت حين يراه سيتذكر كلماتها أيضاً فعليها على ألّا يراه.

لم تستطع أن تسحبه حيث كان بعيداً بين الشقوق على الرغم من المحاولات العديدة التي قامت بها.

فقال وقد لاحظ محاولاتها: «ماذا تفعلين يا ألفريدا»، وأدار وجهه لناحيتها. كانت قد توقفت عن المحاولة ولكن بعد فوات الأوان، نهض نايت إلى حيث كانت يداها وشاهد ما شاهدته، وأخرج سكينه وأخرج القرط.

- من المؤكد أنه ليس لك؟

قالت بهدوء: «إنه لي».

- يا له من شيء غريب أن نجده هنا. هل هو ما أخبرتني به؟

ذكّره جوابها بما قالته حين قبّلها.

- هل كنت مخطوبة للزواج من ذلك العاشق؟

- نعم ليس بالضبط، لكن نعم.

همهم قائلاً: «أوه يا ألفريدا خطبة وزواج!».

- يمكن تسميتها خطبة بالسر، على ما أعتقد، أرجو ألّا تخيب آمالك، لا تلمني.

- لا، لا.

- لماذا تقول هكذا بهذه الطريقة؟

قال بعد صمت محاولاً أن يجمع أفكاره: «لقد أخبرتك من قبل يا ألفريدا، إنني لم أقبِّل امرأة عشيقة سواك، إن القبلة ليست بالشيء الكثير، إنها تحدث بين الكثير من الشباب، لكن تلك التي تحدث بين الخطّاب فهي تختلف. إن هذه نقطة ضعفي، ولأنني عشت حياة غريبة فعليّ أن أدفع ثمن ذلك على ما أعتقد. لقد تمنيت ولا يحق لي أن أتمنى شيئاً يخصك، فأنت منحت حبيبك السابق ما منحتني إياه».

خرجت منها «نعم» كأنها آخر همسة حزينة للريح.

- وكان معتاداً على تقبيلك أليس كذلك؟

- نعم.

- ومن المؤكد أنك سمحت له بممارسات أخرى لم أمارسها معك.

- لا، لم أسمح له بأي شيء.

- ولكنه قام به دون أن تسمحي له بذلك.

- نعم.

قال بصوت عميق مرتجف: «كم كانت صورتك في خيالي وكم تشوهت، كم من الأيام والساعات التي كنت أتمناك فيها وكنت أخشى أن أقبّلك سوى هاتين المرتين. وهو لم يكن عنده وازع يمنعه من...».

اقتربت منه وهي ترتجف ومرتعبة من أن يعرف بقية الحكاية وإن مفهوم البراءة هو ما جعلها تفكر بخوف، وتهويل ذنبها بهذه الطريقة وقول نايت دون مقدمات إنها امرأة ساقطة، كل هذا سيكون له نتائج مدمرة.

أضاف نايت: «أعرف أنني أتعامل بسخافة، وذلك لأنني أريدك لي حصرياً، حتى في ماضيك وقبل أن أعرفك. ومنذ أن كنتِ في المهد، أردت دائماً أن أفكر أنك لي ، سأجعلك لي بالقوة يا ألفريدا. لا أستطيع إلا أن أغار عليك. إنها طبيعتي، وأكره أنه قد تمت مداعبتك من قِبَل رجل آخر غيري، الله كم أكره هذا».

أخذت ألفريدا نفساً عميقاً. كان وجه نايت قاسياً ولم ينظر إليها قط، كان ينظر إلى البحر البعيد.

أخلدت الشمس إلى الغروب وملأ الغسق السماء نصف ساعة، حلّ بعده المساء وعبّر البحر عن نفسه في أضواء السفن على سطحه.

- أين قبّلك هذا العشيق يا ألفريدا، هل كان في مكان كهذا؟

- نعم.

- إنك لا تخبرينني بأي شيء سوى ما أنتزعه منك انتزاعاً، لِمَ ذلك؟ لماذا لم تعترفي بهذا حين اعترفت لك أنا باعترافي، وكان بإمكانك وقتذاك أن تبادليني الثقة. لماذا كنتِ على متن السفينة بمنتهى الغموض. لقد كنتُ أنا كالأحمق عندما كنت أقول لك يجب ألّا يكون بيننا أسرار وألّا يُخفي أحدُنا عن الآخر أيّ شيء. كنتِ توافقينني بالأقوال وتخالفينني بالأفعال. لو كنتِ تثقين بي وأخبرتني من تلقاء نفسك لكان الأمر مختلفاً، ولكنك تخفين كل شيء، وعليّ استجوابك. هل كنت تعيشين في أندلستو في ذلك الوقت؟

قالت بضعف: «نعم».

- أين كنت عندما قبلك أول مرة؟

قالت: «هنا على هذا المقعد».

قال وقد نهض لمواجهتها: «آه، هذا ما اعتقدته. هذا يفسر الكثير من نظراتك الخادعة، اعذريني لهذه الكلمة»، وابتسم ابتسامة مصطنعة، «يا لي من مسكين لأكون الثاني في كل شيء».

- لا تقل هذا يا هاري، لا تتكلم بهذه الطريقة.

- أين قبلكِ بالإضافة إلى هذا المكان؟

- ونحن جالسان على القبر في المقبرة، وفي أماكن أخرى.

قال عندما رأى دموعها: «غير مهم، غير مهم؛ لا أريد أن أسبب لك الحزن. فهذا لا يهمني».

- ولكنه كان يهمه.

- إن هذا لا يُحدِث أي فرق كما تعلمين.

- أشعر بالبرد، هل نذهب إلى البيت؟

- نعم، ما زال الوقت بارداً للجلوس في الخارج. علينا أن نذهب قبل أن يخيم الظلام ولا نرى مكان أقدامنا.

كان يأمل أن تخبره بكل القصة طواعية. فقد أزعجه أن يكون عندها سر من هذا النوع. فالثقة كالتي تخيلها بينه وبين الزوجة الصغيرة البريئة التي لم يكن لها عشيق، هل تكون بهذه البداية؟

رفعها على الحصان وسارا إلى البيت، وكانت سموم الشك تقوم بفعلها وتسيطر على تفكيره. كانا قد وصلا إلى التجويف الذي يسمح لهم برؤية برج الكنيسة القديم، وكان جزؤه الخلفي مخبأ خلف الشجيرات، كانت ألفريدا تنظر إلى البرج وتحاول أن تقول شيئاً لاستعادة رقّته، وبعد تفكير قالت: «أنت فسحة الأمل، والبرج القوي الذي أحتمي به من الأعداء».

حلقت في السماء بعض الطيور التي تطير بعيداً عن البرج.

قال نايت بدهشة: «إن البرج العظيم يتحرك!».

تحركت كتلة كبيرة من زاويته، وغرق البرج واختفى، وسَمِعا صوتَ دوي عظيم، تبعته سحابة من الغبار غطت على المكان.

قالت ألفريدا: إن المسؤولين عن إعادة إعمار الكنيسة هم الذين قاموا بذلك.

في هذه اللحظة رأوا السيدة سوانكورت تقترب منهما، واقترب منها أحد العُمّال، وحادثها.

قال: «لقد هدمنا البرج، وقد تهدم أسرع مما خططنا، كانت الفكرة الأولى أن نهدمه حجراً حجراً، ولكن اكتشفنا خطورة ذلك على الرجال أن يقفوا على الجدران وقتاً أطول، فقررنا أن نقوم بتفجيره، ولقد عمل ثلاثة رجال على أضعف نقطة من الزوايا هذا المساء، وكانوا ينوون التفجير غداً صباحاً، وذهبوا إلى بيوتهم قبل نصف ساعة عندما تهدم: عمل ناجح، عمل جيد».

مسحت السيدة سوانكورت عن وجهه العرق الناتج عن الإثارة.

قالت ألفريدا: «يا للبرج العتيق المسكين».

قال نايت: «نعم إنني آسف لأجله فقد كان قطعة معمارية جميلة، وهو توثيق محلي لفن محلي».

قالت السيدة سوانكورت: «ولكننا سنبني برجاً جديداً مكانه، صممه الرجل الأول في تصميم فن العمارة القوطية في لندن وهو مليء بالمشاعر المسيحية».

قال نايت: «بالتأكيد».

قالت السيدة سوانكورت: «ليس مثل البناء البربري المعتوه في المنطقة فلا ترى شيئاً مثل هذا السوء في كل إنكلترا».

ثم قالت: «أنصحك يا نايت أن تذهب لترى الكنيسة قبل أن يغيروا فيها شيئاً، بإمكانك أن تجلس في الهيكل وتنظر إلى صحن الكنيسة من خلال القوس الغربي، وبعد ذلك إلى البحر. إذا كان هناك عرس غداً صباحاً على المذبح فبالإمكان رؤيته من سطح إحدى السفن هذا إذا كنت تملك نظارة جيدة. على كل حال اذهب لرؤيته بعد العشاء على ضوء القمر».

أبدى نايت استعداده الشديد، فهو كان قد قرر أن عليه ذلك، ليستطيع النوم هذه الليلة وأن عليه أن يسمع من ألفريدا القصة كاملة. أما ألفريدا فكانت ترحب بالهروب وعدم مناقشة أي أمر وخصوصاً الليلة.

غادرا البيت قبل طلوع القمر، ولم يكن دافع نايت هو الكنيسة بقدر ما كان وضع الفتاة الرقيقة تحت ذراعيه مرة أخرى، وكانت ألفريدا على دراية بهذا الموضوع.

* * *

32

إنه تشرين الأول (أكتوبر)، وكان مساءً بارداً وبعد أن تأكد أنها متدثرة جيداً بأغطيتها، أخذها وتمشيا في الطريق التي تمشيا فيها دائماً، حين لم يكن للشك مكان بينهما؛ عندما وصلا الكنيسة وجدا أن أحد جانبي البرج قد أزيل كما قال القسيس، وكان تحت أقدامهما أكوام من القمامة، إن الجهة الغربية من البرج صامدة وستصمد عدداً طويلاً من السنين. دخلا من باب جانبي وجلسا على درج المذبح، كان القوس الثقيل يمتد بين البرج وصحن الكنيسة، وشكل الليل إطاراً عاماً أسود للمشعل برمته. وخلف القوس كان هناك أكوام من الحجارة المتساقطة ثم المقبرة، تحت ضوء القمر الخفيف، وكان البحر الواسع خلف كل هذا. ظهر نور القمر قليلاً وعاود الاختفاء.

قال نايت: «ها قد عاود ضوء القمر الاختفاء! لقد كنت أفكر يا ألفريدا، في أن هذا المكان الذي نجلس فيه هو ما نأمل أن نركع معاً عنده قريباً ولكني غير مستريح، هل تعلمين لماذا؟».

وقبل أن تجيب عاد ضوء القمر إلى الظهور منيراً المنطقة أمامهما؛ أنار المنطقة الداخلية أولاً، ثم الساحة الخلفية، وظهر أمامهما واضحاً وجلياً قبر الشاب جيثواي الأبيض.

ما زال موضوع القبلة التي حدثت في المقبرة يشغل بال نايت.

قال: «هل تعلمين يا ألفريدا، كان عليك أن تخبريني بالماضي طواعية بشأن القبلة والخطبة ودون أن تسببي لي كل هذه المصاعب. هل هذا هو القبر الذي جلستِ عليه معه؟».

انتظرت قليلاً وقالت: «نعم».

إن إجابة السؤال العشوائي صعقته فبالنسبة إليه يجب ألّا يجلس أحد على شواهد القبور، فللقبور حرمتها.

لم تجاريه ألفريدا بالاعترافات التي تمناها، وبدأ تحفظها يزعجه كما في السابق.

– لماذا لا تخبرينني كل شيء؟ لا شيء يشغل تفكيري إلا هذا الموضوع يا ألفريدا، فلا بد من توضيح كل شيء بين اثنين سيقدمان على الزواج، حتى نتجنب أي مفاجأة تُكتشَف فيما بعد، فالسر السخيف قد يصبح مشكلة كبيرة في حال اكتشافه فيما بعد، ولم يُعترَف به. يقولون إنه لا يوجد زوجين بينهما أسرار، أو سيخبر بعضُهم بعضاً أسرارهما، قد يكون أو لا يكون هذا صحيحاً، ولكن إن كان صحيحاً فالبعض سعيدٌ على الرغم من هذا. فإذا نظر رجل نظرة معينة إلى زوجة رجل آخر، فاحمرّت وجنتاها وتغيرت ألوانها، فهل سيكون راضياً فيكونَ اعترافها الصادق أنها في إحدى المرات أغمي عليها بين يديه! فهلّا أخبرت زوجها بهذا منذ زمن، قبل تلك الظروف التي أجبرتها على ذلك. تخيلي لو أن هذا المعجب المرتبط بالقبر ظهر في أحد الأيام وأزعجني، فهذا سيؤثر بشكل سيئ في حياتنا إذا كنت لا أعرف الحقيقة كما أنا الآن.

- هذا مستحيل.

سألها بحدة: «لماذا؟».

كانت منزعجة لمزاجه السيئ، وارتعدت، فأجابت: «لأنه ميت».

- إذا كان ميتاً، فكيف كنت تقابلينه؟

ثم أردف قائلاً: «هل هو ميت؟ هذه مسألة مختلفة تماماً. ولكن أخبريني ما قلتِ فيه وفي القبر؟».

- إن هذا هو قبره.

- ماذا؟ هل الرجل المدفون هنا هو عشيقك؟

- نعم، لكنني لم أحبه، ولم أشجعه.

- ولكنك سمحت له بتقبيلك، لقد قلت ذلك بنفسك.

لم تجب.

قال وحاول أن يسترجع التفاصيل: «لقد قلتِ إنك في مرحلة ما كنت مخطوبة له، ومن غير شك إذا كنت كذلك فمن المؤكد أنه قبّلك، والآن تقولين إنك لم تشجعيه، وأتذكر قولك إنك كنت تجلسين معه على هذا القبر، يا الله، هل تخبرينني بشيء غير صحيح؟ لماذا تلعبين بي هكذا؟ إن لي الحق يا ألفريدا، وإلا فلن نكون سعداء، هناك حائط بيننا، ويجب أن يتم هدمه قبل زواجنا». وتحرك نايت وكأنه يغادرها، فقفزت وتعلقت بذراعه.

- لا تذهب يا هاري، لا تذهب.

- والآن أخبريني وتذكري هذا، لا داعي إلى الألعاب وإلا فأقسم إنني سأكرهك، يا للسماء هل من الممكن أن أصل إلى هذا، أن أصبح أحمق نتيجة عدم صدق فتاة.

- لا تعاملني بهذه القسوة، يا هاري، ترفق بي، قم بسحب هذه الكلمات المريعة، إنني صادقة بطبعي، لا أعرف كيف أسأت الفهم ولكني خائفة.

- هل قلتِ إنك كنت جالسة على هذا القبر؟

- نعم، إن هذا صحيح.

- كيف إذاً بحق السماء، يجلس رجل على قبره؟

- هذا كان رجلاً آخر، سامحني هاري أرجوك.

- ماذا؟ عشيق في القبر وعشيق على القبر!

- أوه، أوه، نعم.

- إذن فهناك اثنان قبلي؟

- أظن ذلك.

- لا تكوني سخيفة يا امرأة بظنونك، إنني أكره كل هذا. لقد تعلمنا أشياء غريبة، لا أعرف ما ينبغي لي فعله، لا أحد يعرف ما يمكن أن يقابله من أحداث ولكنني لا أعتقد أن بإمكاني قبول فكرة أن عشيقاً يجلس فوق بقايا عشيق آخر.

وكان نايت في مزاج متأمل ينظر إلى القبر الذي ظهر كأنه شبح بينهما؟

- ولكنك فهمتني خطأ فأنا لم أقم بهذا عمداً يا هاري، صدقني لم أقم به، ولكنه حصل من تلقاء نفسه.

قال بحزن: «لا أعتقد أنك قصدتِ ذلك فلا أحد يمكنه ذلك».

- والذي بالقبر لم أحبه يوماً.

- أظن أنك والعشيق الآخر عندما كنتما جالسين هنا قد أقسمتما على الإخلاص أحدكما للآخر.

أجابت بتنهيدة عميقة.

قال: «وأنتما لم تختارا سوى أن تكونا متحفظين؟».

- من غير شك، كنا كذلك.

- من غير ريب، فإنك تتعاملين مع الموضوع ببساطة تامة.

- إنه ماضي وانتهى، ولا يعنينا الآن.

- إن هذا لا يجعل الرجل غير المهتم يضحك، بل إنه يجعل الرجل الحقيقي يحزن، وهو ألم مضني، أخبريني الآن حقيقة كل شيء.

- أبداً، كيف أخبرك بكثير مما أقلقك قليله.

- ألفريدا، اسمعي هذا، إن ما أخبرتني به هو قليل وأنا أعرف أن هناك الكثير. ولا أريدك أن تعتقدي أن خطبة سابقة مثل هذه قد تغير حبي لك، أو نيتي بالزواج منك، ولكن يبدو أن عندك أشياء أخرى لم تقوليها وهنا يكمن الخطأ، هل هناك أشياء أخرى؟

أجابت بقلق: «ليس بالشيء الكثير».

صمت نايت صمت القبور قليلاً، وقال: «ليس بالشيء الكثير، لا أعتقد هذا، أرجو ألّا تمانعي، ما سأقوله يبدو غريباً وهو التالي: إذا كان هناك شي يجب أن يقال إضافة إلى ما سبق، وإذا لم تقوليه فهذا قد يؤدي إلى فسخ الخطوبة ويجعل من المستحيل عليّ أن أستمر بحبك والزواج منك».

إن مزاج نايت المضطرب أخذه إلى أماكن ما كان يصلها في ظروف مختلفة، وإلى أي درجة كانت هي متأكدة أنه لن يقوم بما قاله. ولو أنها ذات شخصية أقوى وأكثر عملية وأقل خيالاً، لكانت استغلت الموقف وحبه لها للتأثير فيه. ولكن الرقة والحنان اللذين كانا سمته في كل المواقف السابقة، يحفزان كل امرأة لتثق بلطف القدر ليجلب لها نتائج جيدة، بدل أن تناقشه وتدخل معه في متاهات.

قال نايت بسخرية: «لن أقول إن هذا خطؤك، إنه فقط حظي السيئ، فليس من حقي أن أستجوبك، ولكن عندما يكون هناك سوء تفاهم، فنشعر بالجرح من المسبّب لسوء الفهم هذا. فأنت لم تذكري مرة واحدة أنك لم تكوني على علاقة سابقة بأحد، فلماذا ألومك؟ إنني أستميحك عذراً يا ألفريدا».

قالت: «لا، لا، إنني أفضِّل غضبك وثورتك على هذا الأدب الصامت البارد، لا تتعامل بهذه الطريقة الجافة إنك تشعرني بأنني غريبة عنك».

قال: «إنك تتعاملين معي كأنني غريب، لماذا لا يكون بيننا ثقة لأجل الثقة؟».

قالت: «نعم ولكنني لم أسألك سؤالاً واحداً عن ماضيك، ولم أرغب في أن أعرف عنه شيئاً، وكل ما كان يهمني منه من أين

أنت، وماذا فعلت، وهل أحببت، أنت لي في المحصلة النهائية ولا يهمني ماضيك ألبتة، لو كنتَ عرفتَ علاقتي السابقة، فهل كنت لتهتم بي أصلاً؟».

قال: «لا أستطيع قول ذلك، ولكن فكرة أنك بلا خبرة وفتاة نقية ودون علاقات سابقة، كان لها تأثير السحر فيّ. ولكني أعتقد التالي إذا عرفتُ أن لك ماضياً ورفضتِ كشفه إذا طلبتُ معرفته، فسيكون من المستحيل أن أحبك».

تنهدت بمرارة وقالت: «يا لي من مجرد لعبة بلا شخصية حيث لا شيء فيّ له أهمية سوى البراءة وعدم الخبرة بالحب والعلاقات، وحيث إنني لا أملك عقلاً، ولكنك قلتَ بنفسك إني ذكية وعندي أفكار خلاقة. أليس هذا بالشيء المهم؟ أليس عندي جمال؟ أعتقد أنني أملك بعض الجمال. وأعرف أنني جميلة، لقد أعجبك صوتي، وسلوكي وإنجازاتي وهل هذا جميعه مجرد أشياء تافهة، فقط لأنني بطريق الصدفة عرفت شخصاً ما قبلك».

قال: «عرفتِ بطريق الصدفة يا ألفريدا! هكذا وبهذا البرود. لقد أحببت شخصاً قبلي هل تذكرين؟!!».

قالت: «حسناً أحببته قليلاً».

قال: «وترفضين الآن الإجابة عن سؤال بسيط، كيف انتهت العلاقة؟ هل ما زلت ترفضين؟».

قالت: «أنتَ قلتَ إنه ليس من حقك أن تستجوبني. ثق بي لأثق بك».

قال: «ليس الموضوع هكذا».

قالت: «لن أحبك إذا كنت معي بهذا السوء، إنك تستجوبني بمنتهى القسوة».

قال: «من المحتمل أنني هكذا، ولكن مشاعري تجاهك جرفتني، والله يعلم أن هذا خارج إرادتي، لقد أحببتك وهذا سبب هذه القسوة التي تتحدثين بشأنها».

قالت: «لا أمانع هذا يا هاري»، وزحفت واقتربت منه: «وسأنسى هذه المعاملة إذا غفرت لي، على ألّا تعاود هذه الطريقة في التعامل معي مرة أخرى.. كم أتمنى لو كنتُ كما تشتهي، لو كنت أعرف أنك قادم لعشت في رهبانية شديدة لأكون مناسبة لك».

قال نايت: «لا يهم، إن الفلاسفة كانوا قديماً يقومون بحرمان أنفسهم من البصر عمداً حتى لا يمنعهم من التأمل، ويبدو أن على الرجال المحبّين أن يقوموا بنفس العمل».

قالت: «لماذا، لا أريد أن أعلم، ولكن لا تتكلم معي بالألغاز».

قال: «لماذا، حتى لا يكتشفوا أن معبوداتهن وحبيباتهن لهن علاقات سابقة».

نظرت إلى الأرض وتنهدت، ثم خرجا إلى مدخل المقبرة. لم يكن نايت على طبيعته ولم يدَّعِ أنه على طبيعته. وهي لم تخبره بكل شيء.

أمسك بها كما يمسك العاشق حبيبته، ولكن لم يكن الحلم كما كان سابقاً، من الممكن أن تركيبة نايت لم تكن مناسبة للزواج، وقد يكون عزوفه عن الزواج سنين طويلة والذي يدعي أنه بطريق الصدفة، قد لا يكون بطريق الصدفة فعلاً.

33

أوه يا ابنة بابل لقد أضاعك البؤس

كان من عادة نايت، عندما لا يكون مع ألفريدا أن يتمشى نصف ساعة بعد العشاء وقبل النوم. قالت له ألفريدا: «إذا أردت أن تقوم بجولتك المعتادة فإن بإمكاني أن أذهب وحدي إلى البيت».

قال: «شكراً لك يا ألفي، أعتقد أنني سأقوم بالجولة».

بقي قليلاً في المقبرة ثم استدار إلى المبنى، أشعل غليونه استعداداً لفترة من التأمل، ولكن فكره المشغول منعه من الاستمرار، تمشى قليلاً حول مبنى البرج المتهدم وجلس على حجر كبير وأخذ يفكر في ماضي ألفريدا السابق، وكان قبر جثواي أمامه، وكان بإمكانه سماع صوت البحر البعيد، وللهروب من الأفكار غير السارة التي تملكته فقد قرر أن يعتلي كومة حجارة البرج الذي تهدم، مد يده ليمسك بصخرة فوقه لتساعده على الصعود فأحس تحت يده بشيء لا يشبه الصخرة أبداً بأي حال من الأحوال، كان ذا خيوط ويمكن تلمسه ويمتد على الصخور، كانت ظلال الكنيسة تمنعه من

رؤية هذا الشيء وبدأ يتساءل بينه وبين نفسه إذا ما كان نوعاً من الطحالب.

ولكن هذا الشيء كان فوق الحجارة. وكأنه خصل من الأعشاب وفي نفس الوقت فهو يفتقر إلى قساوة الأعشاب ورطوبتها.

هل هي فرشاة دهان.

إن هذه الفُرَش لا تُستعمَل في هدم المباني. إنه شيء له خيوط وأهداب.

تحسس أكثر فوجده دافئاً، حيث يجب أن يكون بارداً.

أن تجد برودة شيء ما حيث تتوقعه دافئاً فهذا شيء صاعق، ولكن أن تجد شيئاً دافئاً حيث كل الأشياء باردة فهذا يشكل صدمة.

الله وحده يعلم ما هذا.

تحسس أكثر، وفي أقل من دقيقة وجد تحت يديه رأس إنسان، كان الرأس دافئاً، ولكن ساكناً أيضاً، والشعر المتناثر دل على أنه رأس امرأة.

توقف نايت في حيرة بضعَ دقائق وتذكر أن العُمّال قد أعدوا البرج للتفجير غداً صباحاً، ولكن بعد مغادرتهم بنصف ساعة تفجر المبنى، كانت المرأة نصف مدفونة تحت الأنقاض.

تسلل نايت محاولاً إزالة الأنقاض بيديه العاريتين، ووجد أن من الأفضل أن يجلب مساعدة فأسرع إلى حائط المقبرة خلال التل، وهناك رأى رجلاً قادماً باتجاهه، فاستدار لملاقاة الرجل.

قال نايت دون مقدمات: «لقد حصل حادث في الكنيسة، لقد سقط البرج على أحدهم هل تأتي لتساعدني في إخراجه».

قال الرجل: «نعم سأفعل هذا».

قال نايت في طريق العودة: «إنها امرأة، وأعتقد أننا نحن الاثنين نستطيع إخراجها، هل تعرف إذا كان هناك مجرفة».

- إنهم يحتفظون بمجارف حفر القبور في البرج، لا بد أن تكون في مكان ما هناك، ولا بد من وجود بعض الممتلكات للعُمّال.

بحثا قليلاً حتى وجدا معاول، ودار نايت حول المكان قال: «كان يجب أن نحضر فانوساً ولكن أعتقد أن بإمكاننا العمل دونه». وبدأ بإزالة الأنقاض. لم يستطيعا إخراجها إلا بعد عشر دقائق، وبعد جهد شديد، فرفعاها بحذر ووضعاها فوق قبر فليكس جيثواي.

قال الغريب: «هل هي ميتة؟».

قال نايت: «على ما يبدو، أعتقد أن بيت القسيس أقرب منزل إلينا».

- نعم ولكن بما أننا سنحضر الطبيب من قلعة بوتريل، فأعتقد أن من الأفضل أن نأخذها في ذلك الاتجاه بدل أن نأخذها إلى المدينة.

- أليس أول بيت في اتجاه المدينة أبعد من بيت القسيس؟

- ليس كثيراً.

- حسناً، لنأخذها هناك هل تساعدني في حملها؟

- بالعكس إنني سعيد بمساعدتك.

شبكا أيديهما تحت جسد المرأة، ومشيا جنباً إلى جنب بإرشادات الرجل الغريب الذي يبدو أنه يعرف المنطقة جيداً.

- لقد كنت جالساً في الكنيسة ساعةً عندما قررت أن أقوم بجولة حول البرج المتهدم، ووجدتها هناك، وكم هو مؤلم حين أفكر أنني أضعت الوقت في حضرة روح تحتضر.

- لقد سقط البرج عند الغسق. قبل ساعتين على ما أعتقد أليس كذلك؟

- نعم، لا بد أنها كانت هناك وحدها، ما الهدف من زيارتها المقبرة في هذا الوقت؟

قال الغريب: «من الصعب معرفة ذلك» ونظر إلى وجه المرأة وقال: «هل يمكن أن أرى وجهها؟»، وأدار وجهها ليتمكن من رؤية ملامحها تحت نور القمر.

قال الغريب: «إنني أعرفها».

قال نايت: «من هي؟».

الغريب: «إنها السيدة جيثواي والبيت الذي سنذهب إليه هو بيتها، إنها أرملة، وكنت أتحدث معها عصر هذا اليوم، لقد التقيتها في مكتب البريد حيث كانت تريد إرسال رسالة، ليرحم الله روحها المسكينة. لنسرع قليلاً».

- أمسك يدي بشدة أكثر، أليس القبر الذي وضعناها عليه هو قبر ابنها؟

- نعم إنه كذلك، لا بد أنها كانت في زيارة للقبر، فمنذ وفاة ابنها أصبحت امرأة منعزلة ويائسة ودائمة الندب لابنها، كانت زوجة مزارع ومتعلمة، أعتقد أنها كانت مربية.

امتلأ قلب نايت بالشفقة، وأحس أن قدره يتقاطع مع قدر هذه العائلة من خلال تأثير ألفريدا فيه وفي ابن هذه العائلة سيئة الحظ. لم يرد على كلام الرجل الغريب واستمرا في طريقهما.

قال الغريب كاسراً الصمت: «لقد بدأتْ تزداد ثقلاً».

قال نايت: «نعم إنها كذلك» وأضاف بعد برهة: «أعتقد أنني التقيتك مرة، ولكن لا أذكر أين، هل من الممكن أن أسأل من أنت؟»

- نعم إنني اللورد لوكسليان.

- إنني ضيف في بيت القسيس السيد نايت.

- لقد سمعت عنك يا سيد نايت.

- وأنا سمعت بك أيضاً، لقد سررت بمعرفتك.

- وأنا مثلك، إن اسمك مألوف لي من خلال الصحف.

- واسمك أيضاً مألوف هل هذا هو البيت.

- نعم.

كان الباب مغلقاً، وبعد لحظة فتشوا جيب المرأة فوجدوا هناك مفتاحاً كبيراً وفتحوا الباب، كان موقد النار مطفئاً، دخلت أشعة القمر وأضاءت البيت قليلاً، مما ساعدهما على رؤية الغرفة ذات الأثاث الجيد وهي نفس الغرفة التي كانت فيها ألفريدا قبل

ثلاث ليالٍ، وضعا الجثة على كنبة بجوار الجدار، وبحث نايت عن مصباح أو شمعة فوجد شمعة على أحد الرفوف فأضاءها ووضعها على الطاولة.

فحص نايت واللورد لوكسليان الجثة وعرفا ألّا أمل هناك، ولم يكن هناك أي أثر لأي عنف..

قال اللورد لوكسليان: «بما أنني أعرف أين يسكن الدكتور جرانسون فسأذهب لإحضاره، وتبقى أنت هنا». وافق نايت وذهب اللورد ليحضر الطبيب. أعاد نايت تفحص المرأة مرة أخرى عدة دقائق ولكنه أحس ألّا فائدة حيث بدأ جسدها بالتصلّب فغطى وجهها وجلس.

مرت الدقائق بطيئة، واعتادت عيناه على الظلمة، وتوجهت أنظاره إلى الطاولة حيث وجد بعض المواد الكتابية عليها: محبرة وقلماً ودفتراً وأوراقاً، ورسائل كانت بدأت في كتابتها ثم مزقتها، ربما لأنها لم تلبِّي رغبتها. كان هناك أنبوب من الحبر، وبعض من الشمع الأسود الذي تختم به الرسائل وختم. استطاع نايت قراءة بعضاً من الرسائل الملقاة على الطاولة:

«سيدي، بصفتي امرأة أنعم الله عليها بولد من صلبها فأرجو أن تتقبل التحذير».

واحدة أخرى:

«سيدي أرجو أن تتقبل هذا التحذير من امرأة غريبة قبل أن يفوت الأوان لتغير مسارك؛ استمع إليّ».

الثالثة:

«أرفق طيَّ هذه الرسالة رسالة أخرى، وهي تُوفي كل التوضيحات وتتكلم بحكاية صاعقة، وأود إضافة بضع كلمات لتوضيح الغموض الذي يحيط بك».

كان من الواضح أن هناك رسالة رابعة قد تم كتابتها، وإرسالها، وكان على الطاولة أيضاً نقطتان من شمع الختم وأنبوبتهما ملقاة على الطاولة، وما زالت حارة. وما زال الكرسي الذي جلست عليه في مكانه. والمرأة التي قامت بكل هذا ملقاة جثةً على الأريكة.

خرج نايت مع انطباع أن المرأة كان عليها كتابة رسالة مهمة لشخص ما، وقد ذهبت إلى مركز البريد بنفسها لإرسالها ولكنها لم تعد إلى البيت إلى أن أعادها هو واللورد لوكسليان جثة هامدة.

على الرغم من كآبة الموقف، وانتظاره بصمت وحده إلا أنه لم يتقاطع مع مزاجه العام، فهو مخطوب لفتاة جميلة وجيدة وكان في صحبتها قبل قليل عند البرج المتهدم، ولكنه أحس إحساساً جديداً، وهو أن إطالة موضوع خطبته لألفريدا قد يكون غير مناسب له بصفته رجلاً ذا التزامات، وأنّ عليه أن يضع حداً لهذا بالإسراع إلى الزواج بها..

إن نايت هو برأيه الشخصي كالرجل الذي أخطأ هدفه نتيجة تصويبه المتهور؛ فهو إلى هذه اللحظة قد تخلى عن الكثير من طموحاته الأساسية، فقد تمنى الآن بشدة أن يوجه طاقاته لطريق عملية أكثر ويصحح مسارات كثيرة جلبت له التعاسة وليبدأ في هذا؛ فإن عليه الزواج، الذي منذ تعرف على ألفريدا فكرة خلابة،

مع أن جاذبيتها قلَّت الليلة نتيجة لردات فعله ونتيجة خيالاته وأوهامه المتعلقة بها مما أضاع الكثير من وقته. إن قلب نايت كثيراً ما حكمه، ولكن هذا الحكم ليس كاملاً في وجه التغيرات الذهنية.

قطع حبلَ أفكاره، صوتُ عجلات عربة، فتح الباب ودخل اللورد لوكسليان، والجراح، والسيد كول الطبيب الشرعي وهو الذي كان يتحدث مع الطبيب عند وصول اللورد لوكسليان، وبعض الممرضات.

أعلن الطبيب بعد فحوصات دقيقة، موت المريضة بسبب الاختناق، الناتج عن الضغط على أعضاء التنفس. اتخذت الترتيبات لإجراء التحقيقات في اليوم التالي قبل عودة الطبيب الشرعي، إلى سانتلونس.

وبعد وقتٍ فَرَغَ بيت الأرملة من الناس، فبقيت وحيدة في موتها، كما كانت في حياتها خلال السنتين الأخيرتين.

* * *

34

كم سيكون سعيداً بمكافئته لخدمته لنا

بعد ست عشرة ساعة، من التحقيق المؤثر في موت السيدة جثواي عاد نايت إلى بيت القسيس، لم تكن ألفريدا في البيت. استفسرت السيدة سوانكورت عن الظروف المحيطة بالحادث.

قالت: «لقد جاء رجل البريد هذا الصباح برسالة واحدة لك، وها هي هناك على الطاولة».

أعطته الرسالة، فصعق من منظرها وهمهم ببعض كلمات وغادر الغرفة.

الرسالة تم إغلاقها بالشمع الأسود والخط الذي كتب به العنوان طويل وبارز، استُثير نايت وبحث عن مكان آمن يقرأ فيه الرسالة، دخل إلى مكان مهجور ومحاط بشجيرات، وفتح الرسالة. إن الخط، والختم، والورق وكلمات المقدمة، كلها أخبرته أن الرسالة من السيدة جثواي الميتة، وقد فهم في الحال أن الملاحظات غير المكتملة التي رآها الليلة الماضية كانت موجهة له. وهي تذكّر بالكلمات التي تفوهت بها ألفريدا عندما كانت تحلم على السفينة البخارية، وكانت

عن شخص طلبت منه ألّا يخبره بشيء حتى لا تتهدم حياتها، وكان قد نسيه تماماً واعتبره أضغاث أحلام. كل هذه الأشياء زادت من ضيقه وارتجفت الورقة بين يديه.

«وادي أندلستو.

سيدي، إن امرأة ليس لديها ما تخسره ولا تخشى لومة لائم فيما ستقوم به، تودّ أن ترسل لك بعض التلميحات المتعلقة بالمرأة التي تحبها. لو تفضلت بقبول تحذيري قبل فوات الأوان، فستجد أن الرسالة تقول:

إنك خُدِعت، فهل امرأة كهذه تستحق؟

تلك التي شجعت فتى على حبّها، ثم صدّته، مما أدى إلى وفاته.

تلك التي اتخذت رجلاً بلا أصل عشيقاً، ومنعه والدها من دخول البيت.

تلك التي تركت بيتها سراً لتتزوج بذاك العشيق، وذهبت معه إلى لندن.

تلك التي لسبب أو لآخر عادت من لندن دون زواج.

تلك التي بمراسلاتها معه كانت تناديه بزوجها.

تلك التي كتبت الرسالة المرفقة ترجوني ألّا أخبر أحداً، خوفاً من الفضيحة.

أنا لا أطمح لمديح أو ذم، ولكن قبل أن يأخذني الله فإنه وضع في يدي القوة والقدرة على أن أنتقم لموت ولدي.

جيتريد جيثواي»

كانت الرسالة المرفقة رسالة ألفريدا التي كتبتها للسيدة جيثواي في بيتها بقلم الرّصاص.

«عزيزتي السيدة جيثواي، لقد جئت لزيارتك، وأردت رؤيتك بشدة، ولكني لا أستطيع الانتظار أكثر، جئت لأرجوك ألّا تنفذي تهديدك لي، لا تفعلي هذا، أتوسل إليك يا سيدة جيثواي، ألّا تخبري أحداً بأنني هربت من البيت، فهذا سيهدم حياتي، ويكسر قلبي، سأفعل أي شيء لأجلك، باسم ما ترتبط بها النساء جميعاً أرجوك وأتوسل إليك أن لا تفضحيني.

أ. سوانكورت»

أدار نايت وجهه إلى ناحية البيت، مادت الأرض تحت قدميه، إن غرفة ألفريدا أمامه مباشرة، وكانت النوافذ مضاءة وكان يستطيع من مكانه رؤية ما بداخل الغرفة، كانت ألفريدا تقف بين النافذتين تنظر إلى انعكاس نفسها في زجاج النافذة، أحست بحركة خلف كتفيها.

لم تكن ردة فعل نايت جيدة، فالظروف ساعدت الكلمات السرية على قرع أجراس العدالة القاسية من جنبات القبر. لم يحتمل نايت حيازة الرسالة فقام بتمزيقها إلى قطع صغيرة، أحس بحركة بين الشجيرات خلفه فرأى ألفريدا، نظرت إليه الفتاة الجميلة وعلى محياها ابتسامة على أمل أن يسامحها وتخفي حزنها من قسوته معها الليلة الماضية.

قالت بلين: «لقد رأيتك يا هاري من غرفتي».

قال وكأنه أصمّ: «إن الندى سيبلل قدميك».

- لا يهم.

- إن ابتلال الأقدام خطر.

- نعم يا هاري، ما الأمر؟

- لا شيء، هل نكمل حديث الليلة الماضية؟ من الأفضل ألّا نكمله.

- كم هذا سيئ، كم أتمنى أن تعود كما كنت: الشخص الرقيق الذي عرفت، والذي كان يقبّلني كلما رآني، لماذا لم تقبّلني؟ قبّلني الآن؟ إن هذا بسبب حديث الأمس الكريه، إن كلمات الأمس كانت كالليل المظلم بالنسبة إليّ».

- قبلة! إنني أكره هذه الكلمة، حلّفتكِ بالله ألّا تتكلمي عن القبل، أرى أنك تتكلمين في القبل بشكل دائم، قد يعود هذا إلى عدد القبل التي قمت بتوزيعها على الناس.

شحب لونها واعتراها الجمود وامتقع لونها حيث يمكن أن ترى أثر ضغط إصبعك عليه.

سار نايت وسارت بجانبه بصمت، فتح البوابة ودخلا طريقاً في حقل القصب، قالت: «لعليّ تطفلت عليك، هل تريد مني الذهاب؟».

- لا، استمعي إليّ يا ألفريدا، لقد كنت صادقاً معك، فهل تكونين صادقة معي؟ إذا حدث وكان هناك صلة بينك وبين عشيقك السابق، فأخبريني بها الآن، فمن الأفضل أن أعرف الآن على الرغم

من أن هذه المعرفة قد تتسبب في ابتعاد أحدنا عن الآخر، فهذا أفضل من أن أعرف فيما بعد. فقد أثيرت الشكوك في داخلي، ولن أخبرك لماذا، وذلك لأنني أحتقر الطريقة التي تم بها ذلك، ولكن اكتشاف ماضيك فيما بعد سيسبب لي الغيظ ولحياتنا التعاسة.

انتظر نايت قليلاً بصمت، كانت عيناه حزينتين ونظر بعيداً إلى الحقول.

قالت: «وهل ستسامحني إذا أخبرتك بكل شيء؟».

- لا أستطيع أن أعدك بذلك، فإن هذا يعتمد على ما ستخبرينني به.

لم تحتمل ألفريدا الصمت الذي تلا هذا، قالت: «هل ستتوقف عن حبي؟ هاري أرجوك لا تتوقف عن حبي، استمر بحبّك لي، وتكلم كما كنت تتكلم معي في الماضي، أرجوك يا هاري!».

قال بغضب: «هل ستكونين عادلة معي؟ ماذا فعلت حتى يتم إقصائي بهذه الطريقة؟ إنني كالطائر الحبيس في قفص في الربيع. لماذا تخفي عني كل هذه المعلومات؟ لماذا يا ألفريدا؟ هذا كل ما أسأله؟».

جرفهما الحوار الحامي وتركا الطريق التي كانا يقفان عليها، وليجدا نفسيهما في وسط حقل القصب الرطب.

قالت: «ماذا فعلت؟».

- كيف تقولين ماذا فعلتِ وأنت تعرفين ذلك جيداً؟ أنتِ تعرفين أنني غُيِّبت تماماً عن مسألة مهمة تتعلق بك سيدتي، والتي إن عرفتها لتغيرت أمور كثيرة وما زلت تقولين ماذا فعلت!

أطرقت رأسها بصمت.

- إنني لا أصدق الملاحظات والرسائل الخبيثة، في الحقيقة لم أعد أعرف إذا كنت أصدقها أو لا، ولكنني أعرف أنك كنت بالنسبة إليّ شيئاً مقدساً، كنت أنظر في عينيك وأرى الصدق والبراءة، والطهارة والعفة تتجسد في امرأة. إن في الحقيقة المثالية شيء كثير لا أطلبه منك. ولكنني أسعى إلى الحقيقة العادية ولن أقبل بشيء سواها أبداً. وقولي: هل من الأفضل برأيك أن تحتفظي بالمعلومات الخطيرة الآن؟

- إنني لم أفهم شيئاً، فإذا كنت قد أخفيت عنك أمراً، فذلك لأنني أحبك كثيراً وأخشى أن أخسرك.

- بما أن هذا هو الحال فاسمحي لي بسؤالك بعض الأسئلة!

- تفضل، تفضل، قل كل ما عندك، قل أقسى ما عندك وسأتحمل.

«إن هناك فضيحة في الجو تتعلق بك، ولا أستطيع التعامل معاً دون أن أعرف ماهيتها، وقد لا تمت لك بصلة أبداً»، قال هذا بكل مرارة الدنيا. «أتمنى أن تكون هناك (أ. سوانكورت) في المنطقة واحدة أخرى غيرك». ناولها الرسالة التي تركتها على طاولة السيدة جيثواي.

نظرت إليها بشكل تافه وقالت: «إنها ليست بالشيء الكثير الذي تبدو عليه، إنها تبدو خادعة بشكل شرير لتنظر إليها الآن، ولكنها في حيثياتها أبسط مما تعتقد وأكثر براءة، إن هدفي كان ألّا أعرِّض حبنا للخطر، هذا كان كل همي، ولا أعتقد أن هذا بالذنب الخطير».

- نعم، نعم، ولكن بناءً على ملاحظات المخلوقة التعيسة، فإن هناك خطباً ما.

- أي ملاحظات؟

- تلك التي أرسلتْها إليَّ وقمتُ أنا بتمزيقها، ألفريدا، هل هربت مع الرجل الذي أحببت؟

- نعم.

تغيرت ملامحه وقال بصوت أشبه بالفحيح: «لتتزوجي به؟».

- نعم سامحني أرجوك، كان هذا قبل أن أعرفك.

- إلى لندن؟

- نعم، ولكن...

- أجيبي عن السؤال ولا شيء آخر، هل حاولتِ قصداً الزواج به في السر؟

- لا ليس قصداً.

- ولكن هل فعلت ذلك؟

- نعم.

- وبعد ذلك وفي أثناء مراسلاتكم، هل أطلق عليك لقبَ زوجتي وأنت أطلقت عليه لقب زوجي؟

- انتظر، انتظر لقد كان...

- أجيبيني، فقط أجيبيني.

قالت: «نعم» ببعض الكبرياء وقد ارتجفت شفتاها، «كنت أود إخبارك بكل سرور، فأنا أعلم أنني أخطأت، ولكنني لم أجرؤ على ذلك، لقد أحببتك حباً جماً، لقد كنت كلَّ عالمي وما زلت، هل من الممكن أن تسامحني؟».

إنها أفكار مليئة بالكآبة، تلك التي تتعلق بالرجال عندما لا يسمحون بفكرة البراءة والطهارة المتعلقة بزوجاتهم أو حبيباتهم أن يتم المس بها من قريب أو من بعيد. والعكس من غير شك ليس صحيحاً. وما أن يساورهم الشك حتى يبدؤوا باستجوابهن ومواجهتهن بأدلة تخجل الكلاب أن تتعامل بمثلها.

إن التردد في الإجابة النابع من بساطة ألفريدا في الثقة بقدرتها على مواجهة الموقف، والتي لم تكن بمحلها، كان لها التأثير القاتل في عقل نايت. فالرجل صاحب الأفكار العديدة، قد تحطم حلمه بالأمور المستحيلة. وتذبذب كثيراً في الاتجاه المعاكس. وكان يأخذ كل خلجة في وجهها، وكل حركة، وكل كلمة دليلاً على عدم جدارتها.

قال: «ألفريدا علينا أن نودع حدود اللياقة، ونسأل بصراحة أقسى، انظري في وجهي وأقسمي بالله إنك ستقولين الحقيقة، هل كنت وحدك معه؟».

- نعم.

- هل عدت في نفس اليوم الذي غادرت فيه؟

- لا.

سقطت الكلمات كالرصاص، وإن السماء والأرض تعاني، أشاح نايت بوجهه، كانت ألفريدا يائسة من تبرير أعمالها، ومهما حاولت لن تفلح.

انحفر المشهد بذاكرة نايت إلى الأبد: القصب البني الميت، الأعشاب التي بين القصب، وأشجار الدراق التي تحجب المنزل، والأوراق التي كانت حمراء بلون الموت.

قال: «عليك أن تنسيني، إننا لن نتزوج يا ألفريدا».

اعترتها نظرة عذاب انسكبتْ من روحها إلى وجهها.

قالت: «ما معنى هذا يا هاري؟ إنك فقط تقول هكذا؟» ونظرت إليه غير مصدقة وحاولت أن تضحك وكأن ما قاله غير قابل للتصديق.

قالت: «إنك لست جدياً في هذا، لا بد أنك تمزح، فمن المؤكد أنني أنتمي لك، وأنك ستتخذني زوجة لك!».

- لقد كنت صريحاً معك، قلت ما أنوي أن أعمله، ونصيحتي لك، تزوجي رجلَك بأقصى سرعة ممكنة، على الرغم من غرابة الموقف، ولكنكما ينتمي أحدكما إلى الآخر، ولن أقف بينكما، وهل كنت تعتقدين لحظةً أن بإمكاني ذلك؟ وإذا حدث وتزوجت رجلاً آخر فلا تخبريه بهذا بعد الزواج إن لم تكوني قد أخبرتِه به قبل الزواج لأنه سيحطم الثقة بينكما.

قالت بحيرة: «لا، لا لن أكون زوجة أحدٍ سواك، يجب أن أكون لك. إنك لا تعني هذا، وأنا ألَا أعني لك شيئاً؟».

اعترت جسمها كله تنهيدات متشنجة إثر انخراطها بالبكاء الشديد، ونظرت إلى وجهه بحثاً عن بصيص أمل فلم تجده.

قال: «سأذهب إلى الداخل، وأرجو ألّا تتبعيني يا ألفريدا. أرجو ألّا تتبعيني».

- لن أتبعك لن أفعل هذا.

- وداعاً سأذهب إلى قلعة بوتريل.

كانت كلمة «وداعاً» توحي أنه وداعاً عادياً كوداع كل يوم وهذا ما فهمته هي. ولم يمتلك القوة ليخبرها بأنه وداع نهائي. حيث لم يكن يدري هو إذا ما كان وداعاً نهائياً أم لا. أو أنه سيستطيع أن يكبح جماح عواطفه أو يستسلم لها.

غادر المنزل بعد عشر دقائق، وترك تعليمات بإرسال حقائبه إلى غرفته في لندن في حال عدم عودته، وكان ينوي أن يكتب إلى السيد سوانكورت عن أسباب مغادرته. عَبَرَ الوادي ولم يستطع أن يلتفت إلى الخلف، وكان يرى أمامه صورة حقل القصب وفتاة في وسطه تقول له: ابقَ ابقَ، أعاد النظر ورآها مرة أخرى، وبقي أسابيع بل شهوراً، وضع يده على عينيه ليبعد المشهد واستمر في طريقه.

* * *

35

وهل ستتركني هكذا، قل لا

انتقل المشهد إلى غرفة نايت في فندق البدان، كانت الليلة التالية لمغادرته أندلستو، كانت الأمطار غزيرة على لندن ولم يكن بالإمكان التنقل في مثل هذه الليلة.

كان نايت يقف بالقرب من موقد النار، ويرتدي قبعته استعداداً لمغادرته إلى بيته في ريتشموند. وفي أثناء انتظاره موعد القطار سمع جلبة عند باب الغرفة، كانت منخفضة في البداية ثم ارتفعت مما جعله يعبر الردهة ويفتح الباب.

ما أن رأته المرأة حتى رمت بنفسها عليه وأحاطت عنقه بذراعيها، وبدأت في البكاء.

- إنك تقتلني يا هاري، لم أستطع منع نفسي من المجيء، لا تبعدني عنك، لا ترسلني بعيداً، سامح ألفريدا حبيبتك، اعذرني لمجيئي، إنني أحبك كثيراً.

تملكته الدهشة عدة دقائق وقال بعد أن استعاد رشده: «ماذا يعني هذا يا ألفريدا؟ ماذا فعلت؟»».

- لا تعاقبني ولا تؤذني أكثر من هذا، لم أستطع منع نفسي من القدوم. عندما لم تأتِ إلى البيت الليلة الماضية، لم أحتمل ذلك، إن هذا يقتلني، اتركني أبقى هنا أرجوك لا تبعدني، يكفيني أن أرى وجهك، لا أريد أي شيء آخر.

كانت جفونها حمراء ثقيلة حارة بسبب النحيب المتواصل، وكانت وجنتاها الرقيقتان متشققتين من أثر استخدام المناديل لمسح دموعها ووجهها.

سألها بسرعة: «من معك؟ هل جئت وحدك؟».

- عندما لم تأتِ مساء البارحة، انتظرت وانتظرت، وكانت ليلة مليئة بالعذاب وانتظرت الصباح وقرأت ملاحظتك التي تقول إنك لن تأتي، فهربت منهم إلى سانتليونس، وجئت بالقطار وكنت في القطار طوال الوقت. إنك لن تجعلني أذهب أليس كذلك يا هاري؟ لأنني سأبقى أحبك إلى أن أموت.

- إنه من الخطأ أن تبقي يا ألفريدا... ماذا فعلت بحق نفسك؟ إن هذا يحطم سمعتك أن تهربي وتأتي إليّ هكذا؟ ألم تكن تجربتك الماضية كافية لتمنعك من القيام بأعمال كهذه؟

- سمعتي، إنني سأموت قريباً، وما فائدة سمعتي حينذاك. هل من الممكن أن نتبادل الأدوار وأكون أنا الرجل وأنت المرأة؟ ما كنت لأتركك لهفوة كهذه، هل تعتقد أن هروبي معه كان أمراً حقيراً. أتمنى لو أنك هربت مع عشرين امرأة قبلي ولكنت اعتبرتك غير مذنب، وسأكون سعيدة لأنني الوحيدة التي فزت بك، لو أنك عرفتني عن قرب لاكتشفت كم أنا واضحة وصادقة وصريحة. ألا

يمكن أن أكون لك، قل إنك تحبني، ولا تفارقني أرجوك، فأنا لا أحتمل ابتعادك عني كل تلك الساعات والأيام وتكرهني فيها.

قال وهو يسندها: «لم أكرهك يا ألفريدا، ولكن لا يمكنك البقاء هنا في الوقت الحالي».

- أعتقد ذلك، مع أنني أتمنى ذلك، ولكني أخشى ما أن أغيب عن عينيك، حتى يحدث أمراً سيئاً ولا نلتقي بعد ذلك أبداً.

ثم أردفت قائلة: «إذا لم أكن جيدة كفاية لأكون زوجتك فدعني أكون جاريتك وأعيش بقربك. المهم ألّا تبعدني عنك فبعدها لا يهمني أي أمر في هذه الحياة».

- لا أستطيع أن أرسلك بعيداً، يعلم الله ما قد ينجم عن هذه الليلة التي آمل أن تمر على خير وسلام، اجلسي حتى أستطيع أن أجمع شتات أفكاري وأعرف ما عليّ فعله.

في هذه اللحظة سمع كلاهما طرقاً عالياً على الباب، وصوت قرع الجرس ووقع أقدام، ودخل السيد سوانكورت محمرّ الوجه حزيناً، وقف بجانبهما ونظر إلى نايت بسخط، وأعاد نظره إلى ابنته المرتجفة.

قال: «أوه، ألفريدا ها قد وجدتك أخيراً، ما هذه الألاعيب يا سيدتي؟ متى ستتخلصين منها وتحسّني سلوكك كامرأة محترمة؟ وهل يجب على اسمي واسم عائلتي أن يتمرغ بالعار نتيجة أعمال تعد فضيحة حتى لأبسط الناس، تعالي يا سيدتي تفضلي».

قال نايت بكرب: «إنها ضعيفة، أرجوك يا سيد سوانكورت كن رحيماً بها، لا تكن قاسياً معها».

التفت إليه السيد سوانكورت تحت ضغط الظروف وقال: «أما بالنسبة إليك يا سيد نايت، فليس لديّ الكثير لأقوله، وإنما كلما قلَّ الوقت الذي أكون فيه بحضرتك ازداد سروري، لماذا لم تحسن معاملة ابنتي كرجل شريف؟ هذا ما لم أعرفه، إنها فتاة حمقاء عديمة الخبرة، لماذا أغويتها للقيام بهذه الحماقة؟ حتى لو كان الحل بنظرها مغادرة بيتها، فكان عليك منعها، على ما أعتقد».

قالت: «إنه ليس خطأه إنه لم يُغوني، لقد جئت وحدي».

- إذا أردت إبطال الزواج، فلماذا لم تقل هذا بوضوح؟ إذا لم تكن راغباً في الزواج فلماذا لم تتركها وشأنها؟ إنه لمما يحزن قلبي بشدة، أن أفكر في هذا الشكل السيئ بشخص كنت أعتبره صديقي.

كان نايت مريض الروح والقلب عند سماعه هذه الكلمات، ولم ينبس ببنت شفة، فكيف يدافع عن نفسه، ودفاعه هو اتهام لألفريدا؟ وانطلاقاً من هذا الأمر فإنه قرر أن يعض على جرحه ويترك والدها يتهمه ويظن به السوء، وداهمه إحساس قليل بالسرور وسط الكآبة السائدة بسبب اعتقاد القسيس أنه أغواها بالهروب.

قال لها السيد سوانكورت مرة أخرى: «هل أنت قادمة». وأخذ يدها المستسلمة بيده، وقادها إلى الدرج. تبعتها عينا نايت وكان يأمل أن تلتفت وتنظر إليه، ولكنها لم تنظر للخلف أبداً.

سمع صوت فتح الباب وإغلاقه، وصوت العربة تبتعد وانطلقوا في طريقهم.

احتدمت في صدر نايت قضية مريعة منذ لحظة اختفاء ألفريدا، فكل عواطفه، ومشاعره وحتى حدسه دعته لأن يقف مع ألفريدا

وأن يكون الحامي لها طوال العمر. ثم جاءته الفكرة المعاكسة وهي أن ألفريدا كالأطفال، وغير عقلانية، وأن قدومها إليه غير الحكيم وغير العقلاني أثبت أن له خصائص الرسالة المهملة التي بلا عنوان. المحصلة أنه كان في حقيقته عملاً عفوياً بدون انصياع لحدود المجتمع، وقال في نفسه بمرارة إنه كالمرأة التي تعرضت للخداع في حياتها، فالمرأة التي تفترض في رفيقها السوء والشر فمن المستحيل أن يتم خداعها، في حين أن المرأة التي تثق كألفريدا هي دائماً التي تقع ضحية طيبتها وثقتها.

مع مرور الأيام والأسابيع فتر حنين القلب إلى وجودها، وزاد تمنطق عقله لأفعالها. كان يعرف مقدار حبها له، وهو أيضاً لم يستطع أن يتوقف عن حبها، ولكنه لن يتزوجها. لو أنها بقيت ألفريدا حبيبته كما كانت في نظره، ولكن هذه الألفريدا ماتت ودُفِنت، ولم تعد موجودة. وكيف له أن يتزوج ألفريدا هذه، التي لو رآها من قبل بهذه الطريقة فلن تلفت انتباهه بأي شكل من الأشكال.

وكان يعصر قلبه أنه واجه بشكل شخصي حالات أكثر قساوة من تلك التي كان يكتب عنها بمقالاته الساخرة.

إن أخلاقيات نايت وسلوكه رفيعة جداً، وعلى الرغم من ذكائه وفطنته إلا أنه لم يكن يقبل التسامح بالخطأ، وهذا من صفات الرجال المثاليين، فالصدق بالنسبة إليه كان قيمة لا يجوز التهاون بها، والآن وبعد أن اكتشف أن صورة ألفريدا الحقيقية تختلف عن صورتها في خياله، فلا شيء في العالم يمكن أن يقنعه ببراءتها.

أمضى بعض الوقت في المدينة في صراع بين عقله وقلبه، وتوصل إلى قناعة بأن عليهما ألّا يلتقيا أبداً.

عندما قيَّم الملفات الموضوعة على رفوف مكتبته وجد أن القليل منها قد تم فتحه منذ أن احتلت ألفريدا قلبه، ثم قام بهجران أصدقائه الصّدوقين حيث سيقومون بلومه للينه تجاه النساء، فوصل إلى حالة من المرارة كبيرة. إن إنكاره لذاته، والتي تصل إلى مرحلة الزهد، يبدو أنها غادرته في مرحلة وقوعه في الحب فقد عوضه شعور احترام الذات عن شعور عدم تقدير الذات. مسكينة ألفريدا فبعدما كانت في نظره مُلهِمة له تحولت إلى مصدر إغواء له. وقد يكون من طبيعة نايت أنه لم يفكر لحظة في أنها عرَّضت حياتها للخطر من أجل إنقاذ حياته. وأنّبه ضميره جداً على إخبارها بأدق تفاصيل أسراره.

كان نايت رجلاً عقلانياً جداً، ويستطيع الفصل بين عقله وقلبه، وتخيل أن حنين الحب وألمه قد يخفّان ويقلّان بتغير الظروف. ولكن بنفس الوقت فهو لا يدري لماذا اعتراه الأسى.

أيها الأسف الأخير... هل مصيرك الموت!

على الرغم من قناعته أن موت الأسف هو أمر في صالحه، ولكنه لم يمنع نفسه من الإحساس به. أغلق غرفته، وأوقف اتصالاته مع المحرِّرين، وترك لندن وترك القارة كلها، وهامَ على وجهه في محاولة لنسيان ألفريدا.

* * *

36

النقود والمجوهرات الجميلة

- لا أستطيع أن أفهم أبداً ما حدث لأهالي سانتلونس، أبداً أبداً.

- هل تقصدين بسؤالهم «كيف حالك؟».

- نعم بسؤالهم كيف حالك، والمصافحة باليد، والسؤال عنك بكل رقة، يا جون.

كان هذا الحديث يدور بين جون سميث وزوجته، في إحدى أمسيات السبت الربيعية التي تلت مغادرة نايت لإنكلترا. وكان قد مضى وقت طويل منذ عودة ستيفن إلى الهند، وترك الزوجان العجوزان قرية اللورد لوكسليان إلى مسكن مريح قريب من الشارع في سانتلونس، حيث افتتح جون محلاً خاصاً به.

قالت السيدة سميث: «منذ جئنا إلى هنا منذ ستة شهور كنت أذهب إلى السوق وأمر على الجزار والخباز، وكان يتكلم معي من خلف الحاجز وكنت ألاقيه بعد ساعة أو نصف ساعة في الشارع ويتجاهلني وكأنه لم يرني من قبل».

فأجابها زوجها: «ينظر إليك كما لو أنك شفافة كالزجاج ولا يراك».

- نعم إن الوقحين منهم كانوا يفعلون ذلك، أما المهذبون فكانوا ينظرون إلى ما فوق رأسي، بجانبي، فوق كتفي، ولكن لم يكونوا ينظرون في عيني أبداً. أما أصحاب المزاج الرقيق، فكانوا يلتفتون إلى الغرب إذا جئت من الشرق، ينزلون إلى الطريق إذا كنت أنا على الرصيف، مثل بائع الكتب الشاب، وابنة اللحام، والمنجد الشاب الذي يسلم عليك بيده مرتدياً قفازه حين يكون هناك مصالح بينكما بعيداً عن الأعين.

- نعم صحيح يا ماريا.

- أما اليوم فالأمر مختلف، فما أن وصلتُ السوق، حتى هرعت إليّ السيدة جاكسون على مرأى من أهل البلدة، وقالت لي: «عزيزتي السيدة سميث لا بد أنك متعبة من التجول في السوق، تفضلي بتناول الغداء معي، إني أصرّ على ذلك. فأنا أعرفك منذ سنين عديدة، ألا تذكرين عندما كنا نذهب إلى آثار القلعة ونبحث عن ريش طير البوم».

ثم أردفت ماريا تقول: «وكأنني أحتاج لمن يذكرني، فاعتذرت إلى المرأة بشكل حضاري، وما أن وصلت إلى الزاوية حتى تبعني المحامي الشاب قائلاً: «اعذري وقاحتي، ولكن يبدو أن هناك شيئاً تعلق بذيل فستانك في أثناء قدومك من الريف، اسمحي لي بأن أزيله لك» وصدقني إن هذا حدث أمام ساحة المدينة على مرأى من الجميع، ترى ما سبب حبهم المفاجئ لامرأة عجوز مثلي؟؟».

- لا أستطيع أن أفسر ما حدث، ولكن قد يكون توبة.

- توبة! أليس هناك أحد أحمق مثلك يا جون؟ هل تعرف طوال عمرك أن أحداً ما تاب وجيبه ممتلئة بالنقود وعمره لا يتجاوز خمسين؟

قال جون: «لقد كنت أفكر أنا أيضاً في مقدار اللطف الذي واجهته اليوم فهو يساوي كل الفترة التي قضيناها هنا، فالعجوز (أولدرمان توب) مشى إلى وسط الشارع ليصافحني، على الرغم من ملابس العمل التي كنت أرتديها مما اعتبرته غريباً ولكني قمت بمصافحته».

- وكذلك الشاب ورنيغتون.

- من هو؟

- الرجل في أول الشارع هو الذي يبيع الأدوات الموسيقية. فقد كان يتكلم مع إجلوسكري ذاك العازب الضئيل الحجم والذي يملك أموالاً في البنك. كنت ماراً بجانبهما بملابس العمل أيضاً وكنت متأكداً أنني لن أحظى بلفتة من رجل من هذه الطبقة.

- إنك دائماً تتجول في البلدة بملابس العمل، دائماً ما كنتُ أرجوك أن تبِّدلها، ولكن دون فائدة.

- حسناً، على كل حال كنت في ملابس العمل عندما رآني وورينغتون فقال لي: «آه سيد سميث إنه نهار جيد للبناء» قال لي هذا بصوت عالٍ ودود، وكأنه التقاني في مكان مهجور، ولم يكن إلا أنا للتحدث معه، وورينغتون رجل مهم في المجتمع، إن هذا لغريب.

قُرِع الباب في هذه اللحظة وفتحت السيدة سميث الباب.

- عذراً لإزعاجك يا سيدة سميث ولكن الجو الربيعي الرائع منعنا من البقاء في البيت فأخذت السيدة تريون في يدي وتناولنا كوباً من الشاي، وخرجنا ثم رأينا أزهار حديقتك الجميلة، فأعطينا أنفسنا الحق بالدخول، ونود التجول في حديقتك إذا لم يكن عندك مانع.

- أبداً على الإطلاق، تفضلوا.

وتوجهوا إلى الحديقة، رفعت يديها باستغراب لحظة مغادرتهما الحديقة، وقالت: «يا رب عفوك».

قال لها: «من هؤلاء؟».

- السيد تريون مدير البنك.

طار صواب السيد سميث، فانطلق إلى الخارج ينظر إلى بوابة الحديقة في محاولة لجمع شتات أفكاره، لم يمضي عليه سوى دقيقتين وهو في مكانه حتى سمع صوت عربة يجرها حصانان، تسير خلال الشارع، فيها امرأة متميزة الشكل ولها مظهر دوقة متكئة داخل العربة، وعندما وصلت مقابل السيد سميث أدارت وجهها ناحيته وأمرت الحوذي بالتوقف.

وقالت: «آه، السيد سميث، سعيدة برؤيتك في صحة جيدة، لم أستطع إلا التوقف لتهنئتك أنت والسيدة سميث، وأتمنى لكما السعادة»، وقالت للحوذي: «بإمكانك الاستمرار يا جوزيف».

وأكملت العربة طريقها إلى سانتلونس.

هرعت السيدة سميث من خلف الشجيرات حيث كانت تقف، قال السيد سميث: «كنت أوشك أن ألمس قبعتي تحية لها، كما كنت أفعل لدى رؤيتي الليدي لوكسليان قبل وفاتها منذ سنين عديدة».

السيدة سميث: «يا إلهي من هذه».

- إنها امرأة الأعمال، ما اسمها؟ إنه... إنه السيدة فالكون.

امرأة الأعمال، تقف لتحية عائلة سميث البسيطة، يمكنك القول إنها مالكة فندق الفالكون، بما أنّا في خضم هذه اللطافة، إن الناس يتصرفون بسخافة شديدة، ومن المؤكد أن هناك أسباباً لهذا. ومن المحتمل أن السيدة سميث انزعجت من ظاهرة اللطافة هذه التي أصابت سكان سانتلونس على حين غرة. ولها الحق في ذلك، إن هذا الاهتمام الغريب الذي لم يمارسه أهالي البلدة من قبل كان أصيلاً في ذاته ونقياً.

في هذا الوقت أنهى السيد تريون وزوجته جولتهما في الحديقة، فهمس جون لزوجته: «سأسألهما بشكل مباشر، سأقول لهما، إننا نعاني من ضبابية في الرؤية، فهل من الممكن أن نسأل سؤالاً، كيف تكونون كلكم بهذا اللطف اليوم؟ إن هذا ليس مفهوماً أبداً».

- لا تتلفظ بأي كلمة، يا الله، متى سيتحلى هذا الرجل ببعض التهذيب.

قال مدير البنك: «لا بد أنها لحظة تشعرك بالفخر، أن يكون لك ابن تُقام من أجله كل هذه الاحتفالات».

قالت السيدة سميث لنفسها بفخر: «إنه ستيفن لقد عرفت ذلك».

قال جون: «إننا لا نعرف بشكل خاص».

- ألا تعلمون!

- لا.

- لماذا، إن الخبر منتشر في كل أرجاء المدينة، لقد أشار إليه العمدة في خطبته على العشاء في (نادي كل إنسان يصنع مدينته)، الليلة الماضية.

قال السيد سميث: «وماذا بشأن ستيفن؟».

- إن ابنك قد احتفى به نائب الحاكم في الهند، وأمراء الفُرْس، والله أعلم من أيضاً، وإنه سيصمم قصراً كبيراً، وكاتدرائية، ومستشفى، وكلية، وقاعة، كلفه بتصميمها المجلس الأعلى للهيئة الحاكمة، المسيحية والوثنية.

قال السيد سميث: «هل بالتأكيد كان ستيفن؟».

- قام العمدة بذكر ذلك، في خطبته الليلة الماضية.

قالت والدة ستيفن: «إنه لشيء جيد من العمدة أن يذكر ذلك، أتمنى أن يحتفظ الفتى بما حققه. أما فيما يتعلق بالرجال فهم جنس بسيط، فستتعلق به امرأة ما».

- حسناً يا سيد سميث ويا سيدتي لقد تأخر الوقت وعلينا أن نذهب. وتذكروا كل سبت عندما تأتون إلى السوق فعليكم أن تمروا

لزيارتنا في بيتنا وتعتبروه مثل بيتكم، وستجدون دائماً فنجاناً من الشاي وصحن من الطعام، فأنا امرأة واضحة وأعني دائماً ما أقول.

عندما غادر الضيوف وغابت الشمس وظهر القمر وأرسل أشعته على بيت السيد سميث، جلس هو وزوجته يقرؤون الجريدة التي أحضراها بسرعة من المدينة. وعند انتهاء القراءة، أخذوا يفكران في التغييرات التي عليهما أن يقوما بها من أجل الوضع الاجتماعي الجديد، فقررت السيدة سميث ضرورة تغيير الأثاث وتوسيع البيت.

- جون، عليك أن تنتبه لشيء، وهو عند كتابتك رسالة إلى ستيفن فلا تذكر اسم ألفريدا سوانكورت أبداً، لقد تركنا المنطقة ولا نعرف عنها شيئاً إلا ما نسمعه من الناس، يبدو أنه بدأ يتحرر منها وأنا سعيدة بذلك. كانت ساعة سيئة حين وقعت عيناه عليها، فلم تكن هذه العائلة جيدة معه من البداية إلى النهاية. دعهم يحتفظون بدمهم النبيل لأنفسهم إذا أرادوا ذلك. إنه يفكر بها، أعرف ذلك ولكن ليس بشدة، فلا تحاول أن تعرف أخبارها، لذا فلن نستطيع الإجابة عن أسئلته، عندها قد تموت في دماغه.

قال جون: «وهذا ما سيكون».

37

بعد عدة أيام

جاب نايت الجنوب من أجل دراسة آثار القارة: ذهب إلى ممرات أمينز الشامخة، وتريث في دير أردنز أبي، وتسلق برج لايون الغريب، ودرس نيون وريمس، ثم وصل تشارتر وفحص أبراجها المتقشرة، ومنحوتاتها الطريفة وتريّث قليلاً في كواتنس، وجدف إلى تحت قاعدة جبل سانت مايكل، ودرس صروحه المتفتتة المغلفة له. وقد عرف جبال سانت أوين أرون، وفيزلاي، وعدداً كبيراً من الجبال المقدسة المحيطة. وتخلى عن الفنون النحتية الفرنسية القديمة بنفس السرعة التي أقبل عليها، وذهب بعيداً إلى حيث فيرارا وبيزا، المتخمة بآثار العصور الوسطى، وتناول العصر الروماني، ثم راقب ضوء القمر ونور النجوم فوق خليج نابولي، ثم ذهب إلى النمسا وعبر سهول هنغاريا الكئيبة، وانتعش بهواء الكاربات.

ووجد نفسه في اليونا، فزار الماراثون وتخيل خسارة الفرس، وإلى مارس هيل ليتخيل سانت بول وهو يعظ الأثينيين، وإلى ثيرموبالا وسالامي ليعرف حقيقة تقاليد الغزو الثاني. اتسمت معظم جولاته

بالفوضوية... وازدادت غرابة هذه الأماكن في نفسه. شعر بصدمة الهزة الأرضية في جزر إنيون، وذهب إلى فينيسيا وأبحر في قناتها، وزار برج بيزا المائل مساءً، وبقي بعد ذلك أسابيع في متاحف ومعارض ومكتبات في فيينا، وبرلين، وباريس، وأخيراً عاد إلى الوطن.

يأخذنا الزمن إلى ما بعد خمسة عشر شهراً من تاريخ مفارقته لألفريدا: كانت أمسية من أمسيات شباط (فبراير) التي التقى فيها رجلان بطريق الصدفة في الطريق المؤدي إلى متنزه هايد بارك وكان واضحاً من هيئتهما أنهما غريبان وليسا من سكان لندن، وما أن اقترب أحدهما من الآخر وتلاقت نظراتهما حتى قال الشاب: «السيد نايت، أليس كذلك؟».

قال نايت: «ستيفن سميث. هل أنت هنا في إنكلترا منذ مدة طويلة؟».

- منذ يومين.

- بقيت في الهند منذ ذلك الوقت؟

- نعم.

- كانت هناك جلبة متعلقة بك في سانتلونس العام الماضي، على ما أعتقد فإني قرأت ذلك في الصحف.

- أعتقد أنه كُتِب عني شي ما في الصحف.

- عليّ أن أهنئك على إنجازاتك.

- شكراً، ولكنه شيء لا يستحق الذكر، مجرد تقدم وظيفي طبيعي.

هذه كانت طبيعة الحديث بين اثنين كانا صديقين ثم اكتشفا أنهما لم يعودا كذلك.

نظر كلاهما خلال المتنزه؛ تذكر نايت معاملة ستيفن الجافة له في لقائهما الأخير ومن الممكن أن هناك نوعاً ما من الغيرة للوضع الذي آل إليه ستيفن. وستيفن لم ينسَ أن نايت خطف منه حبيبته.

سأله ستيفن سؤالاً، حاول بكل جهده أن يبدو طبيعياً: «هل تزوجت؟».

قال نايت بمرارة واضحة: «لا»، وأضاف بأسى «ولن أتزوج أبداً. هل تزوجت أنت؟».

قال ستيفن بحزن وبهدوء: «لا»، وهو لا يدري إذا ما عرف نايت بخطبته السابقة لألفريدا، وقرر أن يحاول استخلاص ما يمكنه من المعلومات فسأله:

- إذن يبدو أن خطبتك للآنسة سوانكورت قد فُسِخت، فقد قابلتكما مرة ألا تذكر؟

وكان يبدو من صوت ستيفن والمرارة التي تعتريه أن حرارة الهند لم تقتل حرارة مشاعره لألفريدا، فقال نايت:

- لقد فسخت الخطبة، فهذه النتيجة الطبيعية، فإما أن تفسخ وإما أن تتم.

- نعم بالتأكيد وأين كنت أنت، وماذا كنت تفعل مؤخراً؟

- لا أستطيع أن أحدد لك بالضبط، ولكني كنت أتجول في أوروبا لدراسة آثار العصور الوسطى، ونتائجُ الدراسة تحت تصرفك إذا أحببت أن تأخذها فأنا لست بحاجة إليها.

- سأكون مسروراً بذلك، إذن فقد كنتَ كثير الأسفار وسافرتَ بعيداً هنا وهناك إذن.

«ليس بعيداً»، أجاب بعدم اهتمام، «أترى الخراف، فهي أحياناً ما تكون تائهة ويصيبها مرض وتدور حول نفسها مرات ومرات، وهذا ما حصل معي فقد سافرت كالخراف بطريقة تائهة ودرت حول نفسي مرات ومرات».

كانت طريقة حديثه تشي بالكثير من الأسى والسخط وكان كأنه يصف حاله أكثر من محاولته توصيل فكرة.

صعق ستيفن، من حديث صاحبه واستشعر مرارة نفسه؛ لقد كان نايت رجلاً آخر وتغير كثيراً. لا ينكر أنه هو أيضاً قد تغير ولكن ليس مثل نايت.

- لقد وصلت بالأمس وحسب اعتقادي فليس عندي أي فكرة تستحق الاحتفاظ بها.

ثم قال ستيفن بصراحة قد تكون جارحة: «إنك تذكرني بمزاج هاملت السقيم».

لم يرد نايت.

- أتعلم لقد توقعت أنك تزوجت منذ زمن بعيد وذلك نتيجة لما رأيته.

امتقع وجه نايت وقال: «حقاً».

أحس ستيفن بالعجز أمام اكتئاب صاحبه.

- نعم، وهذا ما دعاني إلى التساؤل.

- ومَن توقعت مني أن أتزوج؟

- تلك التي رأيتها معك.

- شكرا لك لتساؤلك.

- هل تخلت عنك؟

- اسمع يا سميث، إليك كلمة واحدة، إياك أن تسألني عن هذا الموضوع، إن لي أسبابي التي تمنعني من التحدث بهذا الأمر، وإذا سألتني فلن تحصل على أي إجابة.

- لم أقصد لحظة واحدة أن أكدرك بأسئلتي، ولكني أحسست أن عليّ توضيح بعض الأمور من جانبي وأن أسمع منك عن مثله، ولكن انسَ الموضوع، لا تذكره.

- ماذا تريد أن توضح؟

- لقد فقدت المرأة التي كنتُ أوشك أن أتزوجها، وأنت فقدت خطيبتك فبدا لي أن نتبادل الخبرات.

- ولكنني لم أسألك كلمة واحدة عن حالتك؟

- أعرف هذا.

- الحالة متشابهة.

- بالضبط.

- في الحقيقة يا ستيفن، كنت قد قررت ألّا أذكر الموضوع أبداً. وألّا أشير له لا من قريب ولا من بعيد وذلك لأسباب خاصة.

- من غير شك، إن هناك سبباً قوياً لعدم زواجك منها.

- إنك تتكلم الصواب، لقد كان سبباً قوياً، بكل اعتبار.

إنّ تَوْق ستيفن معرفة الحقيقة جعلته يسأل سؤالاً آخر: «ألم تحبك حبّاً كافياً؟»، وانتظر الجواب بشوق.

- يجب أن تتحلى بقليل من التهذيب في الأسئلة الخاصة والشخصية، بالتحديد بعد التحذير الأخير الذي حدثتك إياه، اعذرني فعليّ أن أذهب.

قال ستيفن بانفعال ظاهر: «يا إلهي، لماذا، إنك تتكلم وكأنك لم تأخذها من شخص طلبها قبلك وأحبّها!».

قال بحيرة: «ماذا تعني بذلك؟ هل سمعت شيئاً؟».

- لا شيء، يجب أن أذهب أنا أيضاً.

- إذا كان لا بد من ذهابك، فيجب أن... أعتقد... إنني متأكد لماذا تتصرف معي بهذه الطريقة؟

- وأنت لماذا تتصرف هكذا، لطالما كنت شاكراً لك، ولم يكن يخطر ببالي أننا سنصبح كالغرباء، كما نحن الآن!

- وهل أسأتُ لك يوماً يا ستيفن؟ أنت تعلم ذلك، أنت بدأتَ بهذه المعاملة ولست أنا.

- لا، لا أنت من بدأ، فأنا كنت دائم الثقة بك، وهذا يعود على ما أعتقد إلى اختلاف وضعنا الاجتماعي حينذاك، حيث كنت أنا الطالب وأنت المعلم، وعندما تغيرت الأوضاع وأصبحت أنا معلماً، لم يعجبك الوضع. على كل حال كنت أود أن أدعوك إلى زيارتي.

- أين تقيم؟

- في فندق جروزفنور بملكو.

- وأنا أيضاً.

- إن هذا جيد، سأبقى في لندن يوماً أو يومين، وبعدها فسأذهب لرؤية والديّ إنهما في سانتلونس الآن فالليلة ستكون وقتاً مناسباً.

- قد يكون ولكنني لا أستطيع أن أعدك، إنني بحاجة إلى قضاء ساعة أو ساعتين مع نفسي، ولكنني سأعرف كيف أجدك وأين.

*　*　*

38

إن الغيرة قاسية كالقبر

تأمل ستيفن كثيراً بما قاله صديقه القديم، وقد أحس بالحزن فعلى الرغم من سنوات الاغتراب والشتات في الهند فما زال في داخله شعور خفيف من الإخلاص لنايت، وقد يكون ذلك لمعاملة نايت له خلال السنين بصفته طالباً عنده، على الرغم من أنه كان يزدريه في بعض الأحيان، وقد يكون عن غير قصد، ولكن الازدراء الخطير الذي قصم ظهر البعير عنده فكان عندما أخذ منه حبيبته، وتم بناء حائط بينهما من أجل امرأة، والجرح الذي جرحه إياه نايت بقي طرياً وحاراً.

كان نايت مغتاظاً بعد أن افترق عن ستيفن، بسبب كلمات ستيفن، المتعلقة بخطبة أحدهما لألفريدا وهي التي أثارت تساؤلاته، وكان يود أن يقول لستيفن: «تعال أيها الشاب وأخبرني كل ما تعرف».

تذكر نايت بشكل ضبابي ستيفن الفتى الساذج الذي عرفه من قبل وكيف غيّرته الغربة وتحول إلى رجل مبدع.

كان في لندن كالغريب، بعد قيامه ببعض الأعمال الضرورية؛ ذهب إلى المتحف البريطاني قبل إغلاقه بنصف ساعة، إن لقاءه مع ستيفن ربط الحاضر بالماضي، وردم هوّة فترة غيابه عن لندن وكأنها لم تكن.

أعيد إحياء موضوع ألفريدا سوانكورت بقوة أكبر من ذي قبل، وعدم زواجه منها على الرغم من ملاءمة شخصيتها لطبيعته، وبدل أن يمحو كل الذكريات المتعلقة بها فقد وجد نفسه يلاحقها وكأنها مرض عليه أن يتحمل عذابه.

عاد نايت إلى الفندق مبكراً على غير عادته؛ لم يكن يهمه ما إذا كان السبب هو ردم الهوة بينه وبين صديقه القديم، أو رغبته في معرفة المعنى وراء الملاحظة التي طرحها ستيفن فيما يتعلق بمعرفته بأمور تتعلق بألفريدا أكثر منه.

تناول عشاءَه بسرعة، واستفسر عن ستيفن، وكان ستيفن يجلس بجانب موقد النار.

- لقد جئت إليك أخيراً، كان مزاجي سيئاً هذا الصباح، وكان لا بد من الحضور وقد لاحظت أنني كنت متعباً بسبب سفري إلى إيطاليا وفرنسا.

ثم أردف قائلاً: «لا تتفوّه بأي كلمة، إنني فقط سعيد برؤيتك مرة أخرى».

كان ستيفن قبل حضور نايت بقليل يقوم بقراءة رسائل ألفريدا القديمة القليلة، التي حتى هذه اللحظة كانت مختومة ومحفوظة في

محفظة جلدية، مع بعض التذكارات وبعض الأثر المقدس الذي حمله معه في سفره.

إن بعض مناظر لندن واجتماعاته مع أصدقائه أعادت إحياء مشاعره لألفريدا التي تم إقصاؤها بسفره إلى الجهة الأخرى من العالم، ولم يتم تمزيقها؛ كان ينوي في البداية أن ينظر إلى الرسائل فقط، قرأ الأولى، ثم الثانية، ثم قرأها جميعاً مما أثار حزنه من جديد، فأعاد طيّها ووضعها في جيبه. وأخذ يفكر في الظروف التي أدت إلى عدم زواج نايت بألفريدا، كبح ستيفن خياله، وشعر بشكل مكثف أكثر من الشهور الماضية أن حياته تعيسة دون ألفريدا.

في أثناء جلوسهم حول موقد النار تحدثا في أمور كثيرة، ولم يحاول أحدهما أن يكون الأول الذي يتطرق إلى الموضوع الذي يصبو إليه الاثنان.

كان على الطاولة بعض الكتب وكان أحد الكتب مفتوحاً، ورأى نايت أن محتوياته هي رسومات واسكتشات. بدأ نايت بتقليب صفحات الكتاب حتى بعد خروج ستيفن بعض الوقت. إن الفكرة النقية تتطور إلى أنواع كثيرة خلال الصفحات؛ كانت في بداياتها عبارة عن خطوط: تم نقل الخطوط العامة للآثار ولبعض الأعمدة الهندية، وللتماثيل الضخمة وبعض الرسومات لمعابد إلفنتا وكنيري، وكانت هناك رسومات لأبواب حديثة، وشبابيك حديثة وأسطح، ومدافئ وأثاث حديث، كل هذا مختصر ويأتي ضمن تجربة معماري يسافر بعينين مفتوحتين، وأحياناً كانت تأتي التجربة في شكل رسم منحوتات العصور الوسطى كرؤوس القديسين والرسل أو العذراء.

كان ستيفن يرسم الوجوه الإنسانية بمهارة، بدأ نايت يلاحظ أن جميع القديسات لهن ملامح متطابقة، وأن لهن نفس الوجه وهو وجه يعرفه نايت تماماً، فكر نايت أنه قد تكون مصادفة عرضية، ولكن لا يمكن لهذا التكرار إلا أن يعني أن هناك معنى آخر. تذكر نايت كلمات ستيفن في الصباح ثم نظر مرة أخرى إلى الرسومات.

- لمن هذه الرسومات؟

نظر ستيفن إلى الكتاب بعدم اهتمام وقال: «لقديسين وملائكة، قمت برسمها في وقت فراغي لزجاج الكنيسة الإنكليزية».

- ولكن من هي هذه المرأة التي تمثل العذراء في كل رسوماتك؟

- لا أحد.

ثم طرأت فكرة على ذهن ستيفن ونظر إلى صديقه.

إن رسم وجه ألفريدا للقديسات والعذراء كان يتم بشكل غير واعي لهذا فهو لم يفهم في البداية استفسار صديقه، إن اليد كاللسان فمن الممكن أن تعبر عما يدور في الدماغ خلال التكرار غير الواعي، الذي يتم دون قصد أو نية. إن الشباب الذين لا يستطيعون كتابة قصائد لعشيقاتهم يلجؤون إلى رسمهن. ولم يكن ستيفن واعياً في البداية أن وجه ألفريدا يحتل كل الوجوه في رسوماته إلا متأخراً.

- ألفريدا سوانكورت التي كنت أنا خطيبها.

- ستيفن!

- أعرف ما تعنيه بكلامك هذا.

- هل كانت ألفريدا؟ هل أنت الرجل يا ستيفن؟

- نعم وأنت تستفسر عن السبب وراء إخفاء هذه الحقيقة عنك في أندلستو أليس كذلك؟

- نعم، أكمل، أكمل.

- عملت هذا من أجل الجميع. لُمني إذا ما شئت، ولكني عملت هذا لأجل الجميع وأنت تتساءل كيف أستطيع أن أكون معك كما كنت في السابق؟

- إنني لا أعلم شيئاً، لا أستطيع القول؟

كان نايت مستغرقاً في التفكير، ثم قال: «كانت لي بعض الشكوك اليوم، إن هناك معنى وراء كلماتك بأنني أخذتها من خطيبها. ولكنني طردت هذه الأفكار»، ثم سأل: ستيفن:

- كيف عرفتها؟

- ذهبت من أجل إصلاح الكنيسة منذ بضع سنوات.

فأجابه نايت: «عندما كنتَ مع هيوبي. إنني لا أفهم هذا»، ثم علا صوته: «لا أعرف ماذا أقول؟ لقد خدعتني طوال هذا الوقت».

- لا أعتقد أنني خدعتك على الإطلاق.

- نعم، ولكن...

نهض نايت عن كرسيه وأخذ يروح ويجيء بوجه شاحب وصوته يرتجف: «إنني لن أتصرف هكذا كما لو كنت مكانك في نفس الظروف. إنها لكبيرة، وأقول لك بصراحة، إنني لا أستطيع نسيان هذا.

- ماذا؟

- تصرفك ذاك عندما اجتمعنا في مقبرة عائلة لوكسليان، كان الخداع والكذب في كل مكان ويملأُ الدنيا.

لم تعجب ستيفن إساءةُ فهم دوافعه من قِبَل صديقه على الرغم من معرفته أنها كانت ردة فعل عاطفية غير عقلانية.

- لم أكن لأستطيع القيام بغير ذلك، وذلك احتراماً لها.

قال نايت بمرارة: «كان الأجدر بك الزواج منها، وذلك هو الاحترام الحقيقي لمشاعرها. وكنت أتمنى لو أنه -الذي تبين أنه أنت - قام بالزواج بها».

- إنك تتكلم بغرابة، ولكني أملك أفضل سبب في العالم لعدم زواجي منها.

- وما هو هذا السبب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- أنني لم أستطع.

- كان عليك أن تخلق الفرصة. عليك أن تفعل ذلك الآن.

ثم صرخ نايت على الرغم منه: «كن عادلاً معها يا ستيفن، إنه ليؤلمني ويجرحني أكثر مما يمكن أن تتخيل، عدم قيامك بأي نوع من التعويض لامرأة من هذا النوع، امرأة صادقة المشاعر إلى الدرجة التي تجعلها تهرب معك نتيجة هذه المشاعر، يا للمسكينة الحمقاء، ولم يأتها غير الشر من وراء ذلك».

- لماذا تتكلم كرجل فَقَد عقله. لقد أخذتها أنت مني. أتنكر هذا؟

- التقاط ما رماه الآخرون لا يعتبر «أنني أخذتها منك»، على أي حال يبدو أننا لن نتفق على هذا الأمر، لذا فمن الأفضل أن نفترق.

- يبدو أن هناك أمراً مهماً لا تفهمه، ماذا فعلت؟ أخبرني، لقد فقدتَ ألفريدا وهل هذه خطيئة؟

- هل كان أنا من قام بذلك، أم أنت؟

- قام بماذا؟

- بالفراق؟

- سأخبرك بصراحة، كان قرارها.

- وما كان سببه؟

- لا أعرف، ولكني سأخبرك بالقصة كاملة.

كان ستيفن قد توصل إلى قناعة بأنها قد شعرت بالملل منه وتوجهت إلى نايت، ولكنه لم يكن يريد أن يصرح بهذا، لا الآن ولا لاحقاً. وليفسر الموضوع بطريقة أخرى، وخصوصاً بعدما رأى موقف نايت، فقد اقتنع بأنها لم تتركه لأنها أحبت صديقه، ولكن لأنها لم تكن متأكدة من حقيقة مشاعرها تجاهه.

«إن أمر كهذا يجب ألّا يفسد العلاقة بيننا». انسحب نايت لسلوك يشي بحقيقة مشاعره وكأن الثقة أصبحت أمراً لا يُحتمَل، وأضاف: «إنني أعرف أن تحفظك تجاهي في المقبرة نابع من حرصك، مع أنه كان أمراً غريباً ولكن لا أهمية له، على ما أعتقد بعد هذه الفترة الزمنية، ولا يعنيني أصلاً، ومع هذا فلا مانع عندي من سماع قصتك».

إن كلمات نايت التي تشي بالتنازل وعدم المبالاة، شجعت ستيفن بقليل من الرضا عن النفس للتحدث عن خطبته السرية لألفريدا وإخباره بالتفاصيل كاملة حتى رَفْض والدها القطعي لعلاقة الحب التي تربطهما.

احتفظ نايت بالمظهر الخارجي الذي أراده وهو عدم الاهتمام، وقد كان ضرورياً الاحتفاظ بهذا المظهر أمام ستيفن وإلا لتخلى الأخير عن صراحته، وعاد اجتماعهما إلى المربع الأول من السخط والاتهامات.

كان ستيفن قد وصل حينذاك إلى الوقت الذي غادر البيت بسبب موقف والدها، وهنا ازداد اهتمام نايت، حيث تأكد أن علاقتهما كانت طفولية وبريئة إلى أقصى حدّ وأضاف: «إن عدم إخبارك لسوانكورت بأن معظم أصدقائك هم زملاء له في الأبرشية لهو أمر نابع من الطبيعة البشرية في مثل هذه الظروف، إنني أفهم هذا جيداً، حسناً ماذا فعلتم بعد ذلك؟»

- اتفقنا على الإخلاص سراً، والتأكيد على أننا سنتزوج.

ازداد فضول نايت عند ذكر ستيفن لهذه المرحلة، وأضاف بصوت حاول أن يكون ثابتاً: «هل يمكن أن تكمل». أخبر ستيفن عند ذلك بكافة تفاصيل لقائه بألفريدا عند سكة الحديد، وأهمية ذهابهما إلى لندن، والرحلة الطويلة من العصر إلى المساء ومشاعر الخجل والاشمئزاز التي ساورتها والتي بلغت ذروتها عند وصولهما لندن، وعبورهما الرصيف ثم مغادرتها مرة أخرى بناءً على رغبتها والعودة في نفس الليلة والتي كانت طوال الليل ومراقبتهما التواق

للفجر، ووصولهما سانتلونس أخيراً. أخبره كافة التفاصيل حتى إنه أخبره بأن امرأة قروية تمكنت من التعرف عليهما وهي السيدة جثواي، وكم أرعب ألفريدا هذا الأمر؛ وأخبره كيف انتظر في الحقول إلى أن غادرت على مهرتها وكيف أن قبلة الوداع الأخيرة كانت خارج المدينة، في الطريق إلى أندلستو.

أخبره ستيفن بكل هذه التفاصيل قاصداً أن يبين له سبب مطالبته بألفريدا ويوضح حقيقة علاقته بها.

- لعن الله تلك المرأة لعنها الله... إن تلك الرسالة قد فرقتنا، يا إلهي.

أخذ نايت يذرع الغرفة ذهاباً ومجيئاً.

التفت إليه ستيفن قائلاً: «ماذا قلت؟».

- قلت؟ هل قلت شيئاً؟ كنت أفكر في قصتك، وكيف أنني أعجب بنفس المرأة، ولكني الآن قد نسيتها تماماً، ولا أحد منا يكنّ لها أي مشاعر إلا كصديقة.

أجاب ستيفن بسرور وقد خدعه كلام صديقه اللامبالي: «بالضبط».

وانطلاقاً من أن نايت لم يخدعه في أي أمر سابقاً فقد صدق ستيفنُ نايت حين أبدى عدم اهتمامه بألفريدا. وأنه قد توقف عن حبها، مما كان له الأثر الأكبر في تخفيف الموقف تجاهه.

قال نايت بطريقته الساخرة التي تعمد فيها اللامبالاة: «يبدو أن ألفريدا تستطيع أن تحب شخصاً آخر، ولم تكن سيئة في تلك التجربة أيضاً».

- الأسوأ. من غير شك لم تكن الأسوأ.

- هل فكرت يا ستيفن أن ما قامت به طائش وغير عقلاني؟

- بالتأكيد لم أفعل. حاولت إقناعها بأن لا أذى من وراء ذلك، إلى أن قررت العودة، ولم أكن لأظن ذلك وكان هناك قليل من الطيش.

- لقد اقتنعتْ بأن هذا خطأ وأنها لا يمكنها الاستمرار.

- نعم وكنتُ قد بدأت أعتقد أنه خطأ أيضاً.

- إن هذا التصرف يمكن أن يفسره أحدهم بشكل سيئ جداً.

- من الممكن ذلك، ولكن لم أسمع بأي شي يتعلق بالموضوع، ولم يكن تعليق كل من عرف بالظروف كاملة سوى الابتسام، حتى لو عرف جميع العالم بالأمر فإن ألفريدا هي الوحيدة التي اعتبرت أن ما قامت به خطيئة. المسكينة إن هذا الأمر كان يسبب لها القلق والخوف.

- هل ما زلت تحبها يا ستيفن؟

أجاب في محاولة للتهرب ومستخدماً كل إستراتيجيات الحب: «حسناً إنني أميل إليها، وسأبقى دائماً كذلك كما تعلم، ولكنني لم أرها منذ فترة طويلة فكيف لي أن أحبها. هل ما زلتَ أنت تحبها؟».

- كيف أجيب دون الشعور بالخجل، فكما تعلم نحن الرجال نحب بقوة ولكن النساء يحببن بديمومة، كنت أحبها بطريقتي.

- نعم إنني أفهم هذا وأنا أيضاً كنت أحبها بطريقتي، في الحقيقة لقد أحببتها كثيراً يوماً ما، ولكن السفر والبُعد له دور في قساوة القلب.

- نعم من المؤكد ذلك.

إن أكثر ما يميز المحادثة السابقة مقدار الخداع الماهر فيها، فكل شخص كان يظهر عكس ما يبطن، والأمر الأهم أن مشاعر الرجلين قد استيقظت نتيجة أفعال بسيطة. ثم استأنف نايت المحادثة فقال لستيفن:

- بما أن الأمور طيبة بيننا الآن فاسمح لي بالمغادرة؟

فأجابه ستيفن: «ستبقى للعشاء بالتأكيد؟ لماذا لم تأتِ وقت الغداء؟».

- يجب أن تعذرني في هذا.

- إذن سنفطر معاً غداً صباحاً.

- سيضغط هذا وقتي.

- كيف لإفطار مبكر أن يضغط وقتك؟

قال نايت بعد تردد: «سآتي في الثامنة صباحاً، فما نحن إلا تحت نفس السقف».

- في الوقت الذي تريد، فلتكن الثامنة.

غادر نايت، وكم شعر بالعذاب لأنه اضطر إلى لبس قناع في أثناء محادثتهما البائسة، فقد كانت هذه المرة الأولى في حياته التي يقوم فيها بخداع تلميذه ستيفن الذي كان يتطلع له، منذ طفولته كمثاله الأعلى.

ذهب للنوم، واعترته مشاعر الإثارة. إن ستيفن فقط هو منافسه، وهذا ما اعتبره نايت نوعاً من السخافة، فستيفن ما هو إلا

صبي بالنسبة إليه، وإن المأساة الكبرى كانت حين رأت ألفريدا أن خطأها البريء ما هو إلا خطيئة في نظره لو أن ألفريدا أشارت بأي درجة إلى أن خطأ لم يحدث، لكان تم إخماد أنفاس السيدة جيثواي السامة. لماذا لم يسمح للفتاة المسكينة بأن تخبره أكثر؟ لو استخدم معها طريقته المعتادة في الاستجواب، والتي يستخدمها مع الآخرين لكشف كل المسألة.

وكأن قلبه قد أعيد فتحه بمفتاح، وأخذ يتذكر كم كانت رقيقة في تعاملها معه وكيف كانت تتلقى توجيهاته ونصائحه بكل الطاعة المرعيّة في العالم ولم تعارضه يوماً في أي مسألة وكانت تحيطه دائماً بحبها.

غفر نايت خطأ ألفريدا وأكثر من ذكر لطفها، وتذكر بشكل ضبابي الأمسيات الصيفية التي قضياها معاً وتذكر اندفاعها في لقائهما الأول، وكيف كانت متحمسة لتوضيح وجهة نظرها، وكيف كانت تنتظره في الحقول، وكم كانت فخورة بأن يراها الناس معه فقد كانت تراه أعظم رجل في العالم.

توصل نايت إلى حل، وبعد ذلك لم يعرف النعاس إليه طريقاً، فنهض وارتدى ملابسه وجلس ينتظر طلوع النهار.

وليلة ستيفن كانت قلقة أيضاً: وليس بسبب عودته إلى الحياة الإنكليزية، وليس بسبب رؤيته لوالديه واستقراره قليلاً في الحياة العائلية الإنكليزية. اعترته الكوابيس فكل ما مر به من بومباي إلى بونيه ما هو إلا خيالات، فجلّ تفكيره كان منصباً على أن ألفريدا ونايت قد انفصلا. وكأن خطبتهما لم تحدث، لا بد أنها فسخت بعد

معرفته بحدوثها بوقت قصير. فأخذ ستيفن يفكر في احتمالية عودة حبه إليها فهل هذا هو سبب قلقه؟

إن رأي ستيفن هو رأي عاشق وليس رأي رجل رشيد، فطبيعته كانت متفائلة وتَبْني آمالاً فوق آمال حتى يصدق آماله ولن يترك مجالاً للشك، وأن حبها له قد تم حجزه بظهور نايت الذي تسبب في فراقهما. إن رؤية ألفريدا أصبحت الآن ضرورة ملحة، عليه أن يذهب من سانتلونس إلى قلعة بوتريل مسافة لا تقل عن عشرين ميلاً، ويذهب كالشبح إلى مكانهم القديم، ويقوم ببعض التحريات عنها، هذا ما سيقوم به بعد ذهابه إلى بيته بعد غد.

إنه أغنى الآن مما كان ويقف على قدميه، وقد زرع نفسه في وضع اجتماعي جيد بشهادة عمدة سانتلونس نفسه.

*   *   *

39

كان كله حباً من جانب واحد

اجتمع الصديقان المتنافسان على الإفطار في الصباح التالي، ولم يتم التحدث بأي كلمة تتعلق بما دار بينهما مساء الأمس. أمضى ستيفن جلّ يومه يتمنى لو لم يكن مضطراً إلى البقاء في المدينة يوماً آخر.

- لا أنوى المغادرة إلى سانتلونس قبل الغد كما تعلم، ماذا تنوي أن تفعل هذا اليوم؟

تعمد نايت القول: «إن لي بعض ارتباطات قبل العاشرة، وبعد ذلك فعليّ رؤية بعض الأشخاص».

- إنني أنتظرك هذا المساء.

- نعم، وبإمكانك أن تأتي لتناول العشاء معي. إذا التقينا فقد لا أنام في لندن هذه الليلة، في الحقيقة إنني لم أستقر لحظة، أول عمل سأقوم به هو أنني سأنقل أمتعتي إلى فندق بدان، إلى اللقاء الآن، سأكتب لك في حال عدم قدرتي على الحضور.

كانت الساعة التاسعة والربع عند مغادرة نايت، وقد أقلق ستيفن مرورُ يوم آخر على عدم تواجده في البقعة التي فيها أجمل أحلامه والتي من الممكن أن يتم إحياؤها، وخطر بباله أن الترتيبات التي ينتظر حدوثها في المدينة من الممكن تأجيلها بكل سهولة.

نظر إلى ساعته واكتشف أن هناك أربعين دقيقة قبل مغادرة قطار العاشرة من بادينغتون، مما يعطيه ربع ساعة إضافية قبل المغادرة إلى المحطة.

كتب ملاحظتين على وجه السرعة، واحدة للعمل، وأخرى لنايت يعتذر فيها عن اللقاء مساءً. دفع الفواتير وترك أمتعته الثقيلة لتتبعه في قطار الأمتعة، قفز في العربة وتوجه إلى محطة القطارات الغربية.

بعد قليل أخذ مكانه قي القطار، أطلق الحارس صفارته، معلناً دخول راكب آخر في الغرفة المجاورة، وكان ستيفن قد لمحه وهو يسرع إلى الرصيف في الدقيقة الأخيرة. غرق ستيفن مرتبكاً في مقعده فالرجل يشبه نايت تماماً كأنه هو، هل من الممكن أن يكون هو؟ إذا كان هو فلا بد أنه طار كالريح ليصل فندق البدان. لا يمكن أن يكون هو، إن هذه ليست طريقته في إنجاز الأمور.

اعتملت الأفكار في دماغ ستيفن حتى أحس أنه تورم، الفكرة الأولى كانت في مخططه القادم، فهو متقدم يوماً واحداً عن ترتيبات زيارته إلى أهله تلك التي كان من المفترض أن يقابلوه في بلايموث مما أثار فرح والديه.

وهذا يعطيه الفرصة للذهاب إلى قلعة بوتريل، فيتجول في الحي الذي يعرفه جيداً، طوال المساء والصباح التالي ويقوم ببعض

التحريات ثم يعود إلى بلايموث لمقابلة والديه، وهذا يلبي رغبة والديه وفي نفس الوقت يريحه من التفكير في موضوع ألفريدا.

في تشيينهام كان هناك عملية ربط عربات جديدة وفك عربات أخرى. أخرج ستيفن رأسه لينظر في نفس الوقت الذي أخرج جاره في العربة المجاورة رأسه لينظر، تبادل الرجلان النظر، تواجه نايت وستيفن. قال ستيفن: «أنت هنا؟».

قال نايت بغرابة: «نعم، يبدو أنك أنت أيضاً هنا».

- نعم.

إن أنانية الحب وقسوة الكراهية كان يمكن ملاحظتها بشدة، نظر كلاهما أحدهما إلى الآخرة نظرة لم ينظراها من قبل وكل منهما كان مستاء من حضور الآخر.

قال نايت: «أعتقد أنك قلت إنك لن تأتي قبل الغد».

- نعم ولكن بعد تفكير قررت أن آتي اليوم. هذه الرحلة هي ارتباطك إذن.

- لا ليست هي. لقد جاءت بعد تفكير أيضاً لقد تركت لك رسالة أعتذر عن عدم حضوري مساءً.

- وأنا أيضاً فعلت ذلك.

- إنني أشعر بالصداع. إنك تبدو أكثر شحوباً اليوم.

- وأنا أيضاً أعاني من الصداع، أعتقد أن علينا البقاء هنا بضع دقائق.

تمشى الاثنان على الرصيف، وكل منهما محرج من تواجد الآخر، توقفت عينا ستيفن على بعض الحمالين الذين كانوا يزيحون عربة سوداء غريبة الشكل من خلف القطار ليضعوا أخرى. تمت العملية وعاد الصديقان إلى القطار مرة أخرى.

قال نايت مجاملاً: هل تأتي إلى هنا؟

قال ستيفن: «إن معي حقيبتي ومظلتي وبطانيتي، سيكون صعباً عليّ الانتقال، لماذا لا تأتي أنت؟

- إن معي أشيائي أنا الآخر وسيكون صعباً عليّ أنا أيضاً، أراك إذن فيما بعد.

- نعم

وبقي كل منهما في مقعده، وما أن بدأ القطار بالتحرك حتى رفع رجل يده وأوقفه.

كان أحد الرجال يوضح للضابط المسؤول أن العربة يجب أن تربط مرة أخرى: «ألا ترى أن هذا يجب أن يكون على الخط الرئيسي، بسرعة يا للعالم كم هو مليء بالحمقى».

قال نايت وهو ينظر من النافذة: «يا لها من مزعجة هذه التوقفات؟ ما هو السبب؟».

قال ستيفن: «يبدو أن الميكانيكي أخطأ في شبك العربة الصغيرة بالقطار».

كان يراقب عملية الربط حين لاحظ أنه رأى هذه العربة في بادنغتون قبل أن يتحرك القطار، إنها تبدو جديدة وبموديل حديث وقد لفتت الانتباه بفخامتها، شبكها الرجال وانطلق القطار مرة أخرى.

أمضى ستيفن طوال فترة العصر يفكر في الأسباب وراء ظهور نايت. هل سيذهب إلى قلعة بوتريل؟ إذا كان سيذهب إلى هناك فهذا لا معنى له سوى زيارة ألفريدا، هل هذا معقول!

تناول ستيفن بعض المرطبات عند بلايموث، ودار إلى حيث سيغادر القطار إلى كاميلتون، المحطة القريبة من قلعة بوتريل وأندلستو.

كان نايت هناك.

توقف ستيفن بجانبه دون أن ينبس ببنت شفة، زحف حينذاك رجلان من بين عجلات القطار.

قال أحدهما بصوت أجش: «إن العربة خفيفة جداً وكأنها فارغة».

قال الآخر: «لا شيء كثير بالحجم ولكن بالقيمة» ويبدو أنه أكثر ذكاءً.

لاحظ ستيفن أن هذه العربة نفسها هي التي سببت المشاكل طوال الطريق. وقد شبكت بالقطار أكثر من مرة.

قال نايت وهو يلتفت إلى ستيفن: «أنت ماضٍ في هذه الطريق على ما أعتقد»، قال هذا وهو ينظر إلى نفس الشيء.

– نعم.

– لنسافر معاً بقية الطريق؟

سنقوم بهذا بالتأكيد ودخل كلاهما من نفس الباب، حل المساء وتصادف أنه يوم الفالنتين عيد العشاق جميعاً.

أشرقت الشمس وملأت السماء بأشعتها الوردية.

قال نايت: «لكنك ستذهب إلى سانتلونس على ما أعتقد؟».

- لا، فهم لا ينتظرونني قبل الغد.

صمت نايت.

قال ستيفن مباشرة: «وهل أنت ذاهب إلى أندلستو».

قال نايت: «بما أنك سألت فليس بوسعي سوى أن أقول نعم»، وقال ببطء وبتهذيب لم يره منه طوال الرحلة: «إنني ذاهب إلى أندلستو لأرى إذا كانت ألفريدا سوانكورت ما زالت عزباء وأطلب منها أن تكون زوجتي».

قال ستيفن: «وأنا أيضاً».

قال نايت: «أعتقد أنك بهذا تخسر جهدك» وأضاف نايت: «من الطبيعي أن تخسر».

كان هناك نوع من المرارة في صوت ستيفن حين قال: «قصدك آمل أن تخسر بدل أعتقد أنك ستخسر».

- لم أقل هذا ولكنني أعطيتك رأيي. قد تكون ألفريدا سوانكورت أحبتك يوماً، لا أنكر هذا ولكن هذا عندما كانت صغيرة لا تعرف ما تريد.

قال ستيفن: «شكراً، ولكنها كانت تعرف ما تريد كما كنت أنا أعرف ما أريد. إننا بنفس العمر لولا تدخلاتك...».

- لا تقل هذا يا ستيفن، لا تقل هذا، لا تقل أنني تدخلت، كن عادلاً، أرجوك.

قال ستيفن بقلب منكسر: «كانت لي قبل أن تراك، وأنت تعلم هذا، وكان شيئاً صعباً أن أراك وقد أخذتها، ولولاك لكانت الأمور جيدة بالنسبة إليّ». وأدار وجهه إلى الناحية الأخرى حتى لا يرى نايت مدى تأثره.

قال نايت بصوت رقيق: «إن هذا غريب أن تنظر إلى أمر من هذه الزاوية، ولكني سأخبرك أمراً لصالحك الخاص، ولكنك لا تريد أن ترى الحقيقة، وهو أن حبها لك كان طيش شباب، لا جذور له أبداً».

قال ستيفن بعاطفية: «هذا ليس صحيحاً، إنك أنت من أقصيتني، وها أنت تحاول أن تبعدني، وتقف بيننا مرة أخرى، وتحرمني من فرصتي مرة أخرى، من حقي، كم هو سيئ منك أن تحاول أن تأخذها مني مرة أخرى. عندما فزتَ بها لم أتدخل، كما أرجو منك يا سيد نايت أن تفعل معي ما فعلته معك سابقاً».

نايت: «لا تقل لي سيد فأنا وأنت في هذا العالم متساويان الآن».

- الحب الأول هو الأعمق، وهذا كان لي.

قال نايت متشككاً: «من قال لك ذلك؟».

- أنا كنت حبها الأول، وبسببي تم التفريق بينك وبينها. أستطيع أن أستنتج هذا بسهولة.

- نعم، لقد كان ذلك ولو أوضحت لك كيف كان ذلك لأقنعتك بأنك مخطئ في التقدم إليها، وكما قلت سابقاً إن جهدك سيضيع سدى، لا أريد الإيضاح، إلى الآن التفاصيل مؤلمة، وإذا كنت تريد الاستمرار، فهذا أمر يخصك، وبحق السماء فلا يهمني ما تقوم به يا فتى.

- لا يحق لك أن تتعامل معي بهذه الطريقة، كل هذا لأنني عندما كنت صبياً صغيراً كنت أعتبرك مثالي الأعلى، وقد ساعدتني قليلاً وكنت شاكراً وقد أحببتك لذلك، إنك تطلب الكثير الآن، وتضع نفسك قبلي، إن هذه قساوة، إن هذا ظلم أن تجرحني بهذه الطريقة.

- ستيفن، إن هذه الكلمات غير صحيحة ولا تستحق أن تقال من أي رجل، وهي غير مناسبة منك، إنك تعلم أنك مخطئ في حقي، وإذا كنت قد استفدت يوماً من نصائحي فإن هذا يفرحني

مسّ هذا الكلام طبيعة ستيفن الطيبة، وقال في صوت مضطرب: «نعم إنني لم أكن عادلاً في هذا، ها هي سانتلونس على ما أعتقد هل تريد النزول؟».

أعادت ملاحظة نايت ستيفن إلى وضعه الأصلي: «لا، لقد أخبرتك أنني ذاهب إلى أندلستو».

استمرّ القطار في طريقه، اتكأ نايت في زاويته وأغلق عينيه. واستغرق في النوم، أفاق مذهولاً بعد فترة من السكون واستغرق بعض الوقت ليستعيد توازنه.

فرك يديه بعينيه وهو يقول: «كم كان حقيقياً، كم كان حقيقياً!!».

قال نايت: «ما هو؟».

- الحلم، لقد غفوت قليلاً بضع دقائق، وحلمت حلماً بدا حقيقياً.

نظر إلى الخارج بتجهم وكانا قد اقتربا من كاميلتون.

سأله نايت: «بماذا حلمت؟».

- لا شيء يُروَى، إنه مجرد أضغاث أحلام.

- أعتقد ذلك؟

- إنني متأكد من ذلك.

- على كل حال، فإن ما رأيته كان في كنيسة شرق أندلستو صباحاً مضيئاً، وكنا أنا وأنت نقف أمام الخط وبعيداً عند المذبح يقف اللورد لوكسليان وحيداً. كان بارداً ولم يكن يشبه نفسه ولكنني عرفت أنه هو.

وكان هناك قسيس غريب ومعه كتاب مفتوح، رفع رأسه وقال للورد لوكسليان، أين العروس فأجابه: ليس هناك عروس. في تلك اللحظة دخل أحد ما من الباب، وعرفتها فقد كانت الليدي لوكسليان التي ماتت. أدار وجهه ونظر إليها وقال: لقد كنتِ في المدفن تحتنا، ولكن هذا قد يكون أحد أحلامي، تعالي، فجاءت. وعندما مرت بجانبي أصابتني قشعريرة باردة، وذهبت الحياة مني، واستيقظت وها نحن بالقرب من كاميلتون.

كانا يدخلان المحطة.

قال نايت: «ماذا ستفعل هل ستزور عائلة سوانكورت؟».

- لا هذا مستحيل، سأقوم ببعض التحريات أولاً، وسأبقى في لوكسليان هذه الليلة، أعتقد أنك ستذهب إلى أندلستو في الحال؟

- لا يمكنني ذلك في هذا الوقت من النهار، إنك لا تعرف أن والدها يبغضني بنفس القدر الذي يبغضك به.

- لم أكن أعلم ذلك.

- ولا أستطيع دخول البيت كما كنت أفعل قديماً بصفتي صديقاً قديماً للعائلة، مثلك تماماً. على الرغم من علاقة القربى البعيدة التي تربطنا.

نظر نايت من النافذة، فقال: «إن هناك عدداً كبيراً من الناس في المحطة ويبدو أنهم ينتظروننا».

عندما توقف القطار، استطاع الغريبان، على ضوء المصابيح، رؤية مجموعة كبيرة من الرجال بعباءات سوداء، فُتحت بوابة جانبية في الرصيف وكانت تقف خارجها عربة سوداء لم يستطيعا أن يميزاها، وعرف نايت من شكل سطحها المصنوع من خشب الأرز أنها تابوت. كان هناك عدد قليل من الناس في استقبال المسافرين والعدد الأكبر في استقبال العربة.

ترجّل الرجلان واتجها إلى نفس المكان. إن العربة النكدة التي صاحبتهم طوال الطريق يبدو أنها متجهة إلى نفس المكان الذي يتجهان إليه، فتم جرّها إلى البوابة. تراجع المارة وشكلوا طابوراً من البوابة إلى العربة، ودخل الرجال بالعباءات السوداء لإتمام عملية النقل الأخيرة.

- لا بد أنهم عُمّال.

وأضاف ستيفن: «الغريب أن هناك ثلاثة من رجال أندلستو بينهم»، وبدؤوا بالخروج اثنين اثنين واستطاعا تحت ضوء المصابيح رؤية تابوت من خشب الليمون الملمع والزاهي اللون دون أي مسمار. حمل ثمانية رجال النعش وتوجهوا إلى خارج البوابة.

اقترب الرجلان أكثر لمشاهدة الحدث، تحركت عربة تنتمي إلى الموكب قريباً من ضوء المصابيح واستطاعا أن يشاهدا وجه قسيس أندلستو تحت ضوء المصابيح.

كان السيد سوانكورت يبدو أكبر بكثير من عمره.

سأل نايت أحد المارة: «ما علاقة السيد سوانكورت بهذه الجنازة؟»

أجاب الرجل: «إنه والد السيدة».

سأل نايت بصوت أجوف: «والد أي سيدة؟».

- والد السيدة التي في التابوت، لقد توفيت في لندن وأحضروها في هذا القطار، سيأخذونها إلى المنزل الليلة ويدفنونها غداً.

أخذ نايت يحملق كالأعمى إلى حيث سيأخذون التابوت وكأنه يرى ما بداخله، ثم رأى ستيفن منحنياً كرجل عجوز، فأخذ بيده وقاده بعيداً إلى حيث الضوء.

* * *

40

أهلاً بالسيدة الفخورة

انقضت نصف ساعة وما زال الرجلان البائسان يتجولان في ظلمة الطريق بين كاميلتون وأندلستو.

نايت: «هل انكسر قلبها؟ هل من الممكن أن أكون قتلتها؟ كنت قاسياً معها يا ستيفن، وها قد ماتت، فليرحمني الله».

ستيفن: «كيف تكون أنت قاتلها ولست أنا؟»

- لقد تخليت عنها، أخذت منها كل شيء، ولم أخبرها أنني لن أعود، وفي آخر لقاء لنا لم أقبّلها وتركتها تذهب بتعاسة، لقد كنت أحمق... أحمق. أتمنى أن يتم الاعتراف الخسيس قبل دخول الحشود بتعويض حبيبتي عن البؤس الذي سببته لها..

- حبيبتك! إن العالم كله يعرف أنها حبيبتي أنا قبل أن تكون حبيبتك، وإذا كان لأحد أن يناديها حبيبتي فهو أنا.

- إنك تتكلم كرجل جاهل، وهذا هو ما أنت حقيقة، هل قامت بعمل ما من أجلك، خاطرتْ بسمعتها من أجلك؟

- نعم فعلت هذا.

- ليس بالضرورة. هل انتحبتْ يوماً من أجلك؟ عاشت لأجلك؟ أثبتت أنها لا تستطيع الحياة دونك؟ ضحكت من أجلك؟

- نعم.

- هل خاطرت يوماً بحياتها من أجلك، إن حبيبتي خاطرت بحياتها من أجلي.

- إن هذا من باب اللطافة والإنسانية فقط، ومتى خاطرت بحياتها من أجلك؟

- لتنقذني عند المنحدرات. كانت المسكينة معي عندما كنا نراقب سفينة البفن البخارية، وتزحلقت ونجونا بأعجوبة، ليتنا متنا هناك حينذاك.

قال ستيفن بعينين دامعتين: «ولكن انتظر قليلاً، لقد ذهبت إلى تلك المنحدرات لتراقب وصولي، فقد وعدتني بذلك، لقد أخبرتني قبل ذلك بأشهر. ولم تكن لتذهب إلى هناك لو لم تكن تهتم بي».

قال نايت بسخرية كئيبة وهو غير قادر على الدفاع عن فكرته: «أنت مقتنع أن ألفريدا قد ماتت بسببك».

- إذا وجدنا أنها قد ماتت بسببك، فلن أتطرق إلى الموضوع أبداً.

- وإذا وجدنا أنها ماتت بسببك، فلن أتطرق إلى الموضوع أبداً أنا الآخر.

- حسناً، ليكن ذلك؟

أخذت الأمطار تتساقط بغزارة قال ستيفن: «هل يمكن أن ننتظر في مكان ما إلى أن تتوقف الأمطار؟».

- كما تشاء، ولكن الأمر لا يستحق، سنستمع للأحاديث ونعود، يجب ألّا يعرف أحد من نحن، فلست بقويّ على المواجهة الآن.

وصلا إلى ما قبل مفترق طرق حيث يتفرع الطريق إلى طريقين خارج القرية؛ إحدى الشعب تذهب إلى أندلستو الشرقية وبما أنهم جاؤوا على الأقدام فقد وجدوا أن عربة الجنازة أمامهم.

- أعتقد أنها توجهت إلى أندلستو الشرقية هل تستطيع الرؤية؟

- لا أستطيع يبدو أنك مخطئ.

دخل الرجلان القرية، كانت الشوارع مضاءة إضاءة خافتة، كانت دكان الحداد نصف مفتوحة، وسُمع صوت مطارق ومعاول. ازداد تساقط الأمطار فالتجآ إلى مكان يتقيان فيه المطر.

جاء إلى حيث كانا رجلاً آخر لا يرتدي معطفاً، ولا يحمل مظلة، ويحمل طرداً تحت إبطه.

فقال للرجلين واستمر في طريقه: «أمسية شتائية ماطرة»، بقيا في خارج المحددة، في حين توجه الرجل إلى حيث النار.

توقف الحداد عن نفخ ناره وبدأ بالتحدث مع رجل كان وصل قبل قليل.

قال الرجل: «لقد جئت من كاميلتون مشياً على الأقدام، فأنا مضطر إلى القدوم الليلة كما تعلم».

قرَّب الطردَ من ضوء النار، ليتأكد أن البلل لم يصل إليه، ثم وضعه على حافة طاولة الحدادة بشكل عمودي وركزه بيد واحدة، ومسح وجهه بمنديله بيده الأخرى.

قال للحداد: «أعتقد أنك تعرف ماذا في هذا الطرد».

قال الحداد: «لا، لا أعرف».

قال الرجل الذي يحمل الطرد: «بما أن المطر لن يتوقف، فسأريك ما معي».

وضع الطرد ذا الزوايا المختلفة، نفخ الحداد بالنار ليعطي إضاءة أكثر، بعد أن فك الطرد أزال طبقاً من الورق البنيّ، ثم أزال قطعة من القماش الأخضر، وتحت هذا كانت مجموعة من نسيج الورق أزالها وكشف المحتوى، ورفعها ليراها الحداد.

قال الحداد وهو يقترب: «آه، إنني أرى هذا، يا للشابة المسكينة، إنه لشيء محزن، ما زال الوقت مبكراً».

أدار نايت وستيفن وجهيهما ونظرا.

أكمل الحداد: «وما ذاك؟».

الرجل: «إنه الإكليل، إنه جميل أليس كذلك، وقد كلف مبلغاً من المال».

الحداد: «إنه أجمل قطعة معدنية رأيتها في حياتي، إنها كذلك».

الرجل: «لقد صنعها نفس الأشخاص الذين صنعوا التابوت، ولكنها لم تكن قد جهزت بعد ليتم إرسالها إلى البيت في لندن بالأمس. وكان عليّ الانتهاء منها هذه الليلة».

وقد تم تغليفها بحذر شديد.

تقدم نايت وستيفن عندما سمعا حديث الرجلين، وعندما رآهما الرجل أدار المنحوتة باتجاههما ليقرآها واستطاعا أن يقرآ بنفس الوقت على ضوء النار المتراقصة.

«ألفريدا

زوجة سبنسر هيجو لوكسليان

بارون لوكسليان الخامس عشر

توفيت في العاشر من شباط (فبراير) 18---

قرآها، ثم أعادا القراءة المرة الثالثة، وضع ستيفن يده بيد نايت وغادرا دكان الحدادة، وابتعدا أكثر فأكثر إلى أن أطبقت عليهما الظلمات الباردة وظللتهما السماء السوداء بغمامة من الكآبة.

قال ستيفن: «أين نذهب؟»

قال نايت: «لا أعلم».

وبعد صمت طويل قال ستيفن بهمس: «ألفريدا تزوجت».

قال نايت: «غير صحيح».

- وميتة، ولم نصدق هذا، والآن متزوجة، إنني أكره هذا، أكرهه.

لم يجب نايت.

لم يصدر عنهما أي صوت سوى ضربات قلبيهما، وصوت قطرات المطر فوق ملابسهما، وطرقات الحداد البعيدة.

قال ستيفن: «هل نتبع ألفي إلى مكان آخر؟».

- لا، لنتركها وحدها، إنها الآن خارج نطاق حبنا، ولندعها خارج نطاقنا أيضاً، فنحن لا نعرف نصف الأسباب التي جعلتها تفعل ما فعلته، يا ستيفن، فكيف لنا أن نقول حتى في هذا الوقت إنها لم تكن نقية الروح والقلب؟

وأضاف نايت برقة طفل: «هل يمكن أن نقول إنها طموحة؟ لا من المؤكد أن الظروف كالعادة عاندتها، فإنسانة هشة ورقيقة مثلها من المؤكد أنها وجدت نفسها في خضمّ الأحداث، إنني متأكد من هذا. ما رأيك؟».

- من المحتمل، بل من المؤكد ذلك، هيا نكمل طريقنا.

توجها إلى قلعة بوتريل، حيث يجب أن تصل حقائبهما، تجوّلا قليلاً بصمت، بضع دقائق، توقف ستيفن قليلاً ووضع يده في ذراع نايت:

- إنني أتساءل كيف ماتت هل نعود لنعرف أكثر؟

عادا ودخلا أندلستو للمرة الثانية، وتوجها إلى فندق يدعى «ولكم هوم»، ويبدو أن الفندق قد أعيد إصلاحه وفرشه ولم يكن صاحبه إلا مارتن كانيستر.

دخل نايت وسميث، كان الفندق صامتاً تماماً ومشيا في الممر إلى أن وصلا المطبخ، حيث كانت هناك نار عظيمة تزمجر عبر المدخنة، وامرأة تقف وترتدي مريولاً أبيض ورداءً أسود، وخلفها طاولات نظيفة وقد عرفها كلاهما فقد كانت يونتي خادمة ألفريدا.

قال ستيفن برقة: «ألم تعرفينني يا يونتي؟».

نظرت متحيّرة ثواني ثم قالت: «آه السيد ستيفن. وأنت السيد نايت، تفضلا بالجلوس، فقد تزوجتُ مارتن كانيستر بعد آخر مرة رأيتكما فيها».

- كم مضى على زواجك؟

- خمسة شهور، لقد تزوجنا في نفس اليوم الذي أصبحت فيه ألفريدا «الليدي لوكسليان». نزلت الدموع من عيني ألفريدا على الرغم من محاولتها منعها.

ازداد ألم الرجلين من المشهد وابتعدا بضع خطوات إلى الخلف.

عندها قالت يونتي: «هلا تذهبان للردهة يا سادة؟»

همس نايت لستيفن: «دعنا نبقى هنا معها»، وأضاف: «بعد إذنكِ سنجلس هنا وندفئ أنفسنا ونجفف ملابسنا». جلس الصديقان البائسان مع مضيفتهما بجانب النار الكبيرة وأخبرتهم ما أرادا سماعه من باقي تاريخ ألفريدا.

- في يوم ما بعد مغادرتك لآخر مرة، فُقدت من الأبرشية، وذهب والدها يبحث عنها وعاد بها إلى البيت مريضة، إلى أين ذهبت، لم أعرف قط ولكنها لم تكن بخير أسابيع بعد ذلك، وأخبرتني أنها لا تهتم بما يجري لها، وأنها تتمنى الموت. وعندما تحسنت، قلت لها «ستعيشين لتتزوجي مرة ثانية»، فقالت: نعم سأقوم بأي شيء لصالح عائلتي وإنني مستعدة لتقديم حياتي عديمة الفائدة لمصلحة عائلتي. هكذا كان الأمر، حين بدأ اللورد لوكسليان بمغازلتها. فبعد وفاة

زوجته الأولى كان في إشكالات كثيرة بسبب فقدان ابنتيه أمّهما، وقد اعتادتا على زيارتها بعد فترة بفساتينهما السوداء، فقد أحبّاها أكثر من أمهما الحقيقية، واعتادتا أن تنادياها الماما الصغيرة، هاتان الفتاتان خفّفتا عنها كثيراً، ولكنها لم تعد كما كانت في السابق، ونحفت أكثر بكثير من السابق، وكان سيدي اللورد يدعو عائلة سوانكورت مراراً وتكراراً إلى العشاء وبعد ذلك كانت عائلة سوانكورت ذاهبة قادمة من البيت وإليه كان الناس يقولون إن الفتاتين طلبتا من والدهما أن يدعو ألفريدا للحياة معهم، وأنه وعدهما بأنه سيقوم بذلك إذا كانتا فتاتين جيدتين. على كل حال مرّت الأيام وقلت لها يوماً: «إنك لا تبدين بصحة جيدة كما كنت سابقاً»، ولا يبدو أن هناك من يلاحظ ذلك، ولكنني أستطيع أن أرى هذا.

ضحكت وقالت: «سأعيش لأتزوج كما قلتِ أنت يوماً».

- حقاً يا آنستي؟

- بمن تعتقدي أنني سأتزوج؟

قلت: «بالسيد نايت على ما أعتقد». صرخت: «أوه» وشحب لونها، وقبل أن أصل إليها كانت قد فقدت الوعي، وبعد أن استعادت وعيها قالت: «هيا نكمل حديثنا يا يونتي».

- الأفضل ألّا نكمله اليوم يا سيدتي.

- لا سنكمله، من تعتقدين أنني سأتزوج؟

قلت لها هذه المرة: «لا أعلم».

- خمِّني.

- إنه سيدي اللورد، أليس كذلك؟

- نعم إنه كذلك.

- ولكنه لا يأتي لزيارتنا كثيراً.

- إنك لا تعلمين، إن هذا سيكون في تشرين الأول (أكتوبر)، بعد أن تكون قد تحسنتْ قليلاً.

«ولا أعلم لعله كان هروباً من المنزل أو لا، وسأتكلم بصراحة إن بيتها لم يعد بيتاً لها، فقد كان أبوها قاسياً وجافاً معها، وكانت السيدة سوانكورت تتعامل معها بتهذيب بارد، وقد عانت المسكينة كثيراً... وقبل الزفاف بشهر كانت تركب الخيل، هي واللورد والفتاتين، وكم كان منظرهم جميلاً ولم أرهما يوماً إلا والفتاتان معهما، مما جعل المغازلة غريبة الشكل، وسيدي اللورد وسيم الشكل ولا بد أنها قد أحبته، وقد رأيت مرات قليلة ابتسامتها واحمرار وجنتيها على أشياء قالها. وكان يريدها بشدة بسبب الفتاتين، وكان الجميع يعرف أنها ستكون لهما أماً رائعة، وتكون صديقة، ورفيقة لعب أيضاً. إن سيدي ليس وسيماً فقط، ولكنه مغازل رائع، وقد أحضر لها هدية رائعة، سِواراً من الألماس والزمرد، يا إلهي كم احمرّ وجهها حين رأتها، وقد ساعدتها في ارتداء ملابسها يوم زفافها الذي كان يوم زفافي، وكانت هذه آخر خدمة أقوم بها لها. يا للمسكينة، وعندما أنهت استعداداتها صعدت إلى الطابق الأعلى ولبست ملابس الفرح، وذهبتُ أنا مع السيد مارتن، وذهبا هما بطريقهما، وما تزوجا حتى تزوجنا نحن أيضاً، كان عرساً مزدوجاً جميلاً وتحسنت سيدتي قليلاً فقد كان سيدي اللورد وسيماً وطيباً».

قال نايت: «وكيف ماتت، بعيداً عن البيت؟».

- ألا ترى لقد كانت مريضة قبل الزواج بفترة، وقد أخذها سيدي إلى الخارج لتغيير الأجواء، وفي أثناء عودتهم إلى البيت وفي لندن مرضت مرضاً شديداً، ولم يستطيعوا نقلها وماتت هناك.

- هل كان يحبها كثيراً؟

- مَن؟ سيدي اللورد؟ نعم كان يحبها.

- مغرماً بها؟

- مغرماً، ليس مرة واحدة، ليس فجأة ولكن بالتدريج، كان من طبيعتها أن تكسب الناس بعد أن يعرفوها جيداً كان يموت من أجلها، يا لسيدي المسكين، إنه محطم الفؤاد الآن.

- الجنازة غداً؟

- نعم إن زوجي الآن مع البنّائين في المقبرة، ليفتحوا الدرج ويبيضوا الجدران.

سار الرجلان في الصباح التالي خلال الوادي انطلاقاً من قلعة بوتريل إلى كنيسة أندلستو، وعند انتهاء الجنازة وذهب الجميع في طريقه، نزل الرجلان إلى مقبرة عائلة لوكسليان تحت الأقواس المنخفضة المضيئة كما كانت في المرة السابقة، وفي المحراب كان هناك تابوت جديد، وقد فقد بعضاً من بريقه ولكنه ما زال لامعاً لا تشوبه شائبة. بجانب المذبح كان هناك رجل راكع على الأرض، يتأرجح جسده على التابوت، يداه مغلقتان ومستسلماً تماماً للحزن، وكان شاباً، ويبدو أصغر من نايت، وكان جسده جميلاً ومتناسقاً وكان

يهمس بالصلاة بصوت مرتفع قليلاً، ولم ينتبه لوجود رجلين آخرين يقفان بجانبه على بُعد بضع ياردات.

تقدم نايت وستيفن إلى المكان الذي وقفا فيه مع ألفريدا عندما كانوا ثلاثتهم هنا المرة الأولى، قبل أن تنضم بصمتٍ إلى أجدادها في الأسفل، وتغلق عينيها الزرقاوين الجميلتين إلى الأبد، حينذاك فقط استطاعا رؤية الشخص الذي يركع بجانب التابوت، وقد عرفه نايت فقد كان اللورد لوكسليان زوج ألفريدا الحزين.

أحسا بنفسيهما كمتطفّلَيْن وانسحبا بهدوء كما دخلا.

- هيا بنا، لا حق لنا في البقاء هنا، إن الذي يقف أمامنا، أقرب إليها منا.

ومشيا إلى جنب، خلال الوادي الرمادي الهادئ نحو قلعة بوتريل.

* * *

مكتبة
t.me/soramnqraa

A PAIR OF BLUE EYES روايات

عينان زرقاوان

تعتبر رواية «**عينان زرقاوان**» من أوائل روايات **توماس هاردي**، وتمتاز بحيويّتها وقدرتها على شدّ القارئ.
إنّ الفصل الدراميّ المتعلّق بالهاوية، على سبيل المثال، يحتوي على الكثير من التوتّر والإثارة والسخرية والمشاعر الرقيقة، إضافة إلى بعض اللمسات الرومنسيّة.
إنّ مسرح أحداث الرواية هو بين **ويسكاس ولندن**، وذلك ما يعطي الرواية ملامح السيرة الذاتيّة، فالبطلة ذات العينين الزرقاوين **ألفريدا سوانكورت** هي تجسيدٌ لشخصيّة **إيما جيفورد** الّتي أصبحت زوجة **توماس هاردي** الأولى. لقد جذبت طبيعة **ألفريدا** المرحة حولها عددًا من العشّاق. لكنّها عانت من التحيّز الجنسيّ وما تبعه من أحداثٍ ساخرةٍ بيّنت قيود المجتمع في ذلك الوقت.
إنّ رواية «**عينان زرقاوان**» تمثّل تجربةً أخّاذة ومثيرةً لقرّاء اليوم.

telegram @soramnqraa

ISBN 978-6589-09-872-0
9 786589 098720

الأهلية
الأردنّ، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 منشورات 2020
الغلاف: 95297109 7 00962